الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 387-388
آذار: 2017

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

[illegible] 2000 [illegible]
[illegible] (50) [illegible] (100) [illegible]
[illegible]

[illegible]:

[illegible]:
[illegible]
[illegible]
[illegible] 11153
[illegible] MBIVIQBA

[illegible]:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

[illegible]:
thakafajadida@hotmail.com
[illegible]:
thakafajadida4u@gmail.com

[illegible]:
http://www.althakafaaljadeda.com
[illegible] - [illegible].
[illegible].
[illegible]: 781
[illegible]: 1288

[illegible]:
* [illegible] ... [illegible].
* [illegible] 4000 [illegible].
* [illegible].
* [illegible] 50 [illegible].
* [illegible].
* [illegible].
* [illegible].
* [illegible].

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد
8- ملف الراحل الكبير الدكتور غانم حمدون

مقالات

52- الميّزات الحيوية ..... خالد سعيد
56- مفهوم "الانسان الكامل" لدى ماركس ..... ثامر الصفار
65- قراءة في المقاربات النظرية الحديثة للأمة والنزعة القومية ..... سوران قحطان
75- ملاحظات حول مشروع الدولة الاتحادية في العراق ..... فرحان قاسم
83- مخاطر الاقتراض الخارجي على عملية التنمية الاقتصادية ..... إبراهيم المشهداني
95- الاستغلال المشترك للمصادر المائية بين الدول المتشاطئة وموقف القانون الدولي.....يعقوب يوسف يوسف
105- من مكتب فرانز كافكا، بقلم: دان سكوايرـ ..... ترجمة: مصباح كمال

طاولة حوارية

116- (اصلاح العملية الانتخابية... أحد متطلبات البناء الديمقراطي الحقيقي ووسيلة رئيسية في التغيير)

نصوص قديمة

143- فصول من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي (التأسيس) ..... عزيز سباهي

نصوص مترجمة

166- من (أرشيف الكومنترن) رسالة رقم 9 ..... عبدالله حبة

حوارات

172- حوار مع الشاعر عبد الكريم كاصد ..... اجرى الحوار: خالد السلطان

أدب وفـــــن

كلمة "أدب وفن"

186- **الملف الثقافي وصناعة السلطة ..... علي حسن الفواز**

في الحدث الادبي والفني

188- **قطار الأدباء من البصرة الى أمّ الربيعين**

دراسات نقدية

190- **عمر السراي .. إعادة بناء الملاحم في الضفاف العتيقة ..... عبد العزيز لازم**

198- **مسرح اللامعقول – مفهومه، نشأته، أنواعه، وعناصر بنائه الدرامي..... زهير البياتي**

شعر

210- **قصائد بابلية ..... ناهض الخياط**

قصص

213- **الشهداء الخونة ..... حسن كريم عاتي**

218- **متابعات في الصحافة الثقافية العالمية.....ترجمة: جودت جالي**

لوحتا غلافي العدد: للفنان كاظم حيدر

كلمة العدد

أهمية وضرورة وحدة قوى اليسار العراقي في الظروف الراهنة

نجدد التأكيد على أن بلادنا تواجه أزمة بنيوية الطابع، تطال مختلف اصعدة التشكيلة التي بدأت بالتبلور بعد ٢٠٠٣/٤/٩. وقد بيّنت التجربة عجز النظام المحاصصاتي/ الطوائفي/ الإثني وقواه، عن تأمين حلول جذرية للمشاكل والتحديات الوطنية والاجتماعية – الاقتصادية التي تواجه البلاد.

وبالمقابل فان تجاوز هذه الازمة ينبغي أن يرتبط ببلورة بديل عابر لهذا النظام. غير ان تحقيق ذلك مرتبط بعوامل عديدة، من بينها بل وأهمها هو تبلور الكتلة التاريخية القادرة على انجاز هذه المهمة، غير ان الواقع يشير الى ان هذه الكتلة ما زالت ضعيفة التأثير لأسباب عديدة.

ومن هنا فان المطلوب في المرحلة الراهنة هو بناء وحدة القوى الاجتماعية والسياسية، ذات المصلحة الحقيقية في اعتماد المشروع الوطني – المدني – الديمقراطي، وفي النضال لتحويله إلى واقع ملموس وليس مجرد شعار. فهو المشروع الأقدر على تحقيق المهام الوطنية، وتحقيق تنمية اقتصادية مستدامة، وتوفير العدالة الاجتماعية. كما أنه يوفر افضل الضمانات للتصرف السليم بالموارد النفطية، وتوظيفها لبناء اقتصاد وطني متنوع وكفوء.

ومن بين القوى المعنية بتحقيق هذا المشروع هي قوى التيار المدني الديمقراطي (والتي تحدثنا عنها في مناسبات سابقة)، والقوى اليسارية على تنوع مشاربها ومرجعياتها الفكرية والسياسية العملية.

وإذا كان من الممكن القول بأنه لا شيء يمنع التقاء القوى والتنظيمات اليسارية وتعاونها وإيجاد صيغ للتنسيق، من دون وضع ذلك في تعارض مع بناء وحدتها، ومع تفعيل دورها السياسي والفكري والميداني، فإنه في الواقع يبدو أن هناك مشكلة تشتت قوى اليسار. وحتى لا نبسّط الامور لا بدّ من الاستدراك بان هذا التشتت ناجم عن أسباب وعوامل كثيرة؛ منها ما هو موضوعي لا يتحمل تبعته اليسار العراقي، ومنها ما هو ذاتي.

فهناك مثلا التحولات التي شهدها المجتمع خلال العقود الاخيرة والانزياحات الطبقية التي حدثت في المجتمع، وما أفرزته من تخلخل في بنيته، بفعل انهيار النشاطات الإنتاجية، وانسحاق الفئات الوسطى والكادحة وتدهور مكانتها، ما جعل مهمة اليسار والقوى الديمقراطية صعبة في مخاطبة وتحديد جماهيره. لقد نشأت تلك الانزياحات عن عدة عوامل، كان أبرزها تعاظم الريوع النفطية منذ السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وسيادة "الاقتصاد الريعي" وما حمله معه من "ثقافة" ومفاهيم، اضافة للحروب التي خاضها النظام المقبور، وما تركته من آثار وتداعيات.

وكما هو معروف فانه ومنذ وقت ليس بالقليل اندلع نقاش ولا يزال لم يهدأ أواره حول اليسار ووحدته وضرورة تدشين حوارات معمقة، حول دوره في المشهد السياسي العراقي المضطرب والمتناقض. والدعوات للحوار والتوصل الى مشتركات، مهما تنوعت نيات مطليقها، فإنها في الواقع تعكس الحاجة الموضوعية لدور ما لقطب مهم، لعب أدوارا تاريخية مهمة في المشهد العراقي، ولكنه مشتت لحد الان وغير قادر، في اطار هذا التشظي، على طرح نفسه كبديل حقيقي لنظام المحاصصات الطائفية والاثنية، دون ان تعني هذه الملاحظة الانتقاص من دور مأمول لهذا التيار، عندما يعبئ قواه ويوسع قاعدة المشتركات.

إننا على قناعة كاملة بأن الحوار ضروري جداً، ومن المهم ان لا يكون بمثابة "حرب خنادق" بل أن يتبلور ويتصاعد ليصل الى نتائج ملموسة، تتيح خروج اليسار من أوضاعه الراهنة أو قل أزمته.

بعض منطلقات الحوار

ولكي يكون الحوار بين القوى اليسارية جادا ومنتجا، فانه يستلزم التوافق ولو على العديد من المنطلقات لتدشينه ومن بينها:

– أن تعترف كل أطراف اليسار بالتعددية داخل هذا التيار، اي الاقرار بتنوع مرجعيات القوى المكونة له.

– ونظرا لطبيعة "القطيعة" الطويلة بين هذه الأطراف، ينبغي تجنب انتظار صيغة ناضجة تكتمل كل شروطها في لحظة ما، بل لا بدّ من الانطلاق من اشكال دنيا من التنسيق والتقارب حتى تنضج الظروف لإقامة إطار جبهوي، للعمل المشترك على غرار ما حاصل في حالة التيار الديمقراطي.

– التوجه الى مواقع المحتشدات الجماهيرية والسكنية للعمل مع مكوناتها حول قضاياهم المباشرة. فهناك قطاعات واسعة من العراقيين يعيشون تحت خط الفقر، وما يحمله ذلك من مخزون لقاعدة جماهيرية راهنة ومحتملة لصعود الكتلة التاريخية المتمثلة باليسار والديمقراطية، في حال تغير أوضاعه الذاتية والتغلب على تشتته. ولا شك في أن قوى اليسار هي من بين القوى المعنية والقادرة موضوعيا للدفاع عن مصالح الطبقات الكادحة وجموع الفقراء والمهمشين وسائر المتضررين من السياسات الاقتصادية والاجتماعية الراهنة، وتعبئة هذه القوى من أجل الدفاع عن حقوقها وحماية مصالحها من عسف واستغلال ائتلاف الرأسمالية الطفيلية/ البيروقراطية/ الكومبرادورية في بلادنا.

وهذا يتطلب بلورة شعارات ملموسة قادرة على تعبئة القوى الراغبة في التغيير وتفعيل النشاط في أوساط الطبقات والفئات الكادحة والمهمشين، اضافة الى حركات المجتمع المدني ومع القوى النقابية والتجمعات المهنية.

– بلورة إطار فكري وسياسي لليسار، يأخذ بالاعتبار تنوع المرجعيات، ويتفاعل مع الأوضاع الجديدة للمجتمع العراقي والعربي والعالمي، ويستوعب جملة التطورات الحاصلة. فقوى اليسار بحاجة ماسة الى قراءة معمقة، لما جرى في المجتمع العراقي من تغيرات في بنيته الطبقية وأوضاعه الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية، كذلك في المنطقة والعالم كله، حتى تستطيع أن تبلور رؤية استراتيجية مشتركة تجاه ما يحدث، مما يوصل في النهاية الى تبلور اتجاه واسع يضم قوى القوى الديمقراطية والمدنية الاخرى والقوى اليسارية التي تراهن على انبثاق بديل ثالث عابر للطوائف وخنادقها المتقابلة.

– من الضروري أن لا يخضع الحوار بين أطراف التيار اليساري لأهداف تحوله الى وسيلة لعكسه، كما لا يجوز أن يكون هذا الحوار مجرد مهرب من التقييم الصحيح لطبيعة الأدوات النضالية وبناء استراتيجية قادرة على خلق ديناميكية جديدة جاذبة.

الوحدة ضرورة موضوعية وليس مناورة تكتيكية

إن الملاحظات السابقة تتيح القول إن وحدة القوى والتنظيمات اليسارية هي ضرورة موضوعية ولا يجوز ان تكون مناورة تكتيكية من هذا الطرف أو ذاك. فالوضع الذي تمر به بلادنا هو وضع معقد وإذا شئنا الدقة، بالغ التعقيد والخطورة ومفتوح على كل الاحتمالات؛ اذ وصل الى مرحلة يجعل من الصعب الخروج منها بوسائل "عادية".

وهنا لا بدّ من التأكيد على أن نقطة البدء الصحيحة هي الحوار المنهجي الذي يتعين أن يكون حواراً موجهاً لفعل يدخله الجميع بنيّة بناء كتلة يسارية عريضة، وبذهنية التوصل إلى توافقات مشتركة، لا بنيّة أن يفرض أي طرف رؤيته المسبقة على الآخرين. وكلما دار الحوار حول القضايا المشتركة، وهي كثيرة حقا، بهذه الروحية كلما ازدادت فرص التوصل إلى نتائج محددة، وبما يحول اليسار الى قطب للوحدة والعمل والأمل ويخلق الارضية لتبلور كتلة وطنية – ديمقراطية – يسارية عريضة. ولا طريق أمام القوى اليسارية المتنوعة المشارب والمرجعيات غير إعمال العقل والحوار المتفتح بهدف الوحدة وبدون مواقف مسبقة أو مقاربات تحمل أجوبة معلبة وجاهزة!

وبالمقابل فإنه إذا كانت وحدة قوى اليسار ممكنة وضرورية فإنها في الوقت ذاته تحتاج الى جرأة الاقدام على البدء بالخطوة الأولى. فهل سيجرؤ الجميع على البدء بهذه الخطوة المفصلية ام تبقى الخنادق متقابلة؟ سؤال برسم الاجابة.

ملف الراحل الكبير
الدكتور غانم حمدون

وداعاً سادن (الثقافة الجديدة)، قلعة «فكر علمي.. ثقافة تقدمية»!

بحزن عميق، تلقينا لحظةَ رحيله الأبدي.. أية خسارة كبيرة ألمت بساحتنا الثقافية، برحيل شيخنا الجليل، المربي الانسان والاستاذ الجامعي المرموق والشيوعي النبيل، والرئيس الاسبق لمجلس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) د.غانم حمدون... هكذا ترجل الفارس عن صهوة جواده، فآثر الرحيل وقلبه عامر بالثقة بأن القضية التي كرس كل حياته لها ستنتصر حتما.

«بهدوء» وكما عوّد أصدقاءه ورفاقه ومحبيه، رحل د.غانم حمدون في فجر يوم 24 /2 /2017، بغير وداع وهو الذي يكره الوداع. هكذا انسحب المهذّب الانيق العفيف الشفيف. وهكذا، قرر أن ينام نومته الاخيرة. وبرحيله الابدي انكسر واحد من الأقلام هي بين الأغنى ثقافة، والأصلب في مقارعة الغلط.

تعلمنا منذ الدرس الاول في ممارسة السياسة ان من يقف ضد تيار الغلط والعسف... لا بد أن يكون شامخا وصلبا... ولا بد أن يكون مجبولا من طيبة هذه الارض... مدعما بثقل أحجارها الكريمة... وكان غانم واحدا من هؤلاء الشامخين الصلبين الودودين الواهبين بلا حدود.

د.غانم حمدون ناسك متعبد في محراب الحقيقة والحزب. في كل لحظة كان يبحث عن ذاته وعن الحقِ وسلوك طريقه برغم قلة سالكيه. كان (أبو ثابت) رجل مبادئ وفي... أمضى سنين عمره باحثاً عن الحقيقة، سابرا أغوار ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر والصعاب، يُلهِمُهُ في ذلك عقلٌ متوقدٌ ومستنير. وفوق ذلك كان أسلوب حَياته الشخصية مختلفا، فلقد عاش حَياته زاهدا في كل ما كان كثيرون يلهثون خلفه. وبرغم كل العواصف وأنواء السياسة المتقلبة لم يحد د.غانم حمدون قيد أنملة، عن التزامه السياسي، غير آبه بالمتغيّرات، بعكس اللاهثين خلف الثروة والسلطة. لقد كانت سيرته الشخصية مثالاً لما يمكن أن يكون عليه الإنسان من تناغم وانسجام مع الذات ونقاء سريرة.

على امتداد سنين معرفتنا وصداقتنا ورفقتنا، لم نلحظ يوما أن له، ككل إنسان، حلما خاصا به، فلقد كانت أحلامه لا حد لها. كان يحلم بعالم أكثرَ إنسانيةً وأكثرَ مساواة وأكثر عدلا وأقل عنفا، وقد كرَّس حياته وقلمه وفكره النير.ً عاش د.غانم حمدون حياة خصبة دفاعا عن القضية الكبيرة للكادحين وبسطاء الناس، لذا كانت حياته على امتدادها الواسع درسا كبيرا لكي يعيش المثقف والمناضل والإنسان حياته كما يجب ان تعاش؛ درسا كبيرا ومثلا ملهما لأجيال عديدة من رفاقه وأصدقائه وأحبته. وعزاؤنا ان الفقيد الكبير ترك لنا ولهؤلاء، وغيرهم أيضا وهم كُثر، إرثا طيبا من المواقف الأصيلة والذكريات الطيبة والسلوك الإنساني الرفيع والروح الشفيفة والتي لا تساوم على القيم والمبادئ الكبرى للرعيل الذي انتمى إليه الفقيد الحالم بوطن حر وشعب سعيد.

مات غانم؟ لا. لم يمت، بل رحل. رحل إلى عالمه الجديد بعيدا عن الصخب والمواقف الغلط، وهناك في مقبرة (غرينفورد) غرب لندن وجد راحته الابدية حيث الهدوء الساحر ورذاذ المطر وهمسات أوراق الربيع على أغصانها الخضراء.

سنفتقدك يا غانم، سنفتقدك نحن أصدقاؤك ورفاقك ومحبوك. ومع ذلك نعاهدك أننا سنواصل السيرَ على دروب العالَم التي عليها سُعدنا بالمسير معك. وفي ساعات الشك كلماتُكَ ومواقفك ستقوينا. فهذا ليس وقت موت، وليس وقت انكسار قلم، ولا وقت وهن قلب. لقد كنت على الدوام نقطة نور في مخيلتنا وابتسامة خجولة وذكية في قلوبنا، ولسان عفيف اسكت خصوما ومدعين كُثر.. فلماذا تحول كل هذا الى حزن عميق ودموع حارة.

رحل د.غانم حمدون تاركا فينا حبا كبيرا كمعين لا ينضب، وذكريات حلوة لا تغيب، ونفَسَا وطنيا لا ينازعه عليه إلا الشهداء الكبار. حتى الاختلاف معك يا (ابا ثابت) كان أيضاً متعة ما بعدها متعة، ولكن يبقى السؤال المحير هو: هل نختلف معك لأننا نحبك أم اننا نحبك لأننا نختلف معك؟ فقد كان الاختلاف معك كالحراثة في الأرض، تجرحها سكة المحراث ولكنها تمنحها العافية والغلال.

غانم.. الحياة لا تموت، الحياة لا تأبه للحظات المتوترة، فنم مطمئنا. حقيقة الموت الوحيدة هي... الرحيل الأبدي، لكن الصداقة لا ترحل، نعم يرحل القلب أو الجسد المتعب، لكن الفكر المتحرِّر الذي حملته يا غانم وبقيتَ وفيا له طيلة سبعة عقود ونيّف ليس مجرَّد محطة، بل له أسماء وتواريخ وأبطال وشهداء من الرجال والنساء الواهبين بلا حدود، انهم الكواكب اللامعة، سنواصل السير على دروبهم المضيئة، ونلتقي الأحياء ممن يواصلون رفع الراية لتبقى خفاقة. نطوف المعامل وأرض النخيل، وحقول الذرة والحنطة، والأهوار، نخوض في لجة الماضي والآتي، في قرانا ومدننا وبيوت العمال والفقراء التي تتطلع الى الفجر، ولم تعرف الكهرباء، استوطنتها الأمراض، وفتك فيها المستغلون، وسماسرة المدن ويكتسحها اليوم «أبطال» النظام الطوائفي/ المحاصصي الذين ما انفكوا يتحدثون عن «منجزات» كثيرة حققوها طيلة الاربع عشرة سنة الاخيرة!

فما أكثر الأبطال الذين لم تدون أسماؤهم على مسلة، أو على ورقة بردي، أو على أثر من الآثار التاريخية الباقية، ولكنهم باقون معنا يشاركوننا جلساتنا وصخبنا وأحلامنا وآمالنا واختلافاتنا حول الطرق الجديدة غير المطروقة.

(أبا ثابت) نفتقدك... و«هل يعزينا فرح أهل السماء بك؟».. لقد خسر معك الموت لعبة المفاجأة... ولكن مع ذلك باق أنت بين أجمل أقلام بلادنا المسكونة بـ«جنون» الحرية والعدالة والمساواة والكرامة.

وداعاً د.غانم حمدون... فمنذ الآن دونك لن يكتمل النصاب!

أيها العاشق لمن تركت الوردة الاخيرة؟

د. صالح ياسر

رئيس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

٢٠١٧/٣/٥

نعي المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي غانم حمدون.. وداعاً!

فجعنا هذا اليوم بنبأ رحيل المناضل الكبير، مربي الأجيال، الدكتور غانم حمدون في منفاه بلندن.
طوال عمره المديد ظل غانم حمدون مثالاً في أخلاقه الشيوعية، وروحه الثورية، وثقافته العميقة، وانجازه الابداعي، وحميمية علاقاته مع الناس، وقدرته على العطاء، وتواضعه وزهده، وتمسكه بالقيم السامية.
وقدمت سيرة حياته الغنية بالأحداث والخِبر نموذجاً ألهم أجيالاً من المناضلين الشيوعيين ومن المثقفين الثوريين.
إن رحيل الرفيق غانم حمدون خسارة فادحة لنا نحن الشيوعيين، ولكل التقدميين والوطنيين، ولقضية شعبنا التي منحها الراحل الغالي كل ما يملك من طاقات ابداعية.
لعائلته ورفاقه وأصدقائه وكلِ محبيه الكُثر أحر مشاعر المواساة.. ولهم الصبر الجميل.
غانم حمدون.. لك المجد عاطراً بسجاياك.. لك الذكر الطيب على الدوام..
مثالك سيظل منيراً يرشد المناضلين الى الغد الوضاء..

المكتب السياسي
للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي
٢٣ شباط ٢٠١٧

تعزية حزب الشعب الفلسطيني

الرفاق الاعزاء في المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي
تحية رفاقية
يتقدم حزب الشعب الفلسطيني منكم ومن خلالكم الى قيادة وكوادر وأعضاء الحزب الشيوعي العراقي الشقيق بأحر التعازي بوفاة الرفيق المناضل غانم حمدون.
كما ويتقدم من خلالكم لعائلة الرفيق الفقيد بأصدق مشاعر المواساة.

المكتب السياسي
لحزب الشعب الفلسطيني

رسالة تعزية من سيادة رئيس الجمهورية الدكتور فؤاد معصوم

بعث سيادة رئيس الجمهورية الدكتور فؤاد معصوم رسالة تعزية يوم الاحد 26 /2 /2017، الى عائلة المغفور له الباحث والمربي غانم حمدون. وفي ما يأتي نص الرسالة:

"الى عائلة الفقيد المغفور له الباحث والمربي غانم حمدون المحترمين

تلقينا بأسىً عميق نبأ رحيل الشخصية الوطنية والباحث والمربي المرموق الأستاذ غانم حمدون.

وإذ ننظر باعتزاز الى مسيرته المديدة في العمل السياسي والتربوي، وإلى انجازاته القيمة متجسدة في كتاباته التربوية الوطنية خلال فترة مهمة من تاريخ العراق المعاصر، ودأبه على نشر وترجمة العديد من النصوص والدراسات النقدية، فإننا نتقدم بأحر مشاعر العزاء إلى العائلة الكريمة وكل محبي الراحل وعارفي مكانته، سائلين المولى القدير أن يتغمده برحمته الواسعة، وأن يلهم عائلته الصبر والسلوان".

فؤاد معصوم
رئيس الجمهورية

تعزية د. حسن الجنابي، وزير الموارد المائية

السيد رائد فهمي المحترم
السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي

تلقيت ببالغ الاسى والحزن نبأ وفاة استاذي وصديقي الشخصية الوطنية والمربي المعروف المناضل غانم حمدون بعد عمر مديد قضاه في العمل الوطني المناهض للدكتاتورية والتعسف والتمييز ومن اجل الديمقراطية والحقوق والحريات المدنية في العراق.

لقد نهلت من معرفة الراحل الشيء الكثير في ميدان الكتابة، إذ كان يراجع مقالاتي وإسهاماتي في صحف المعارضة حينها، ويصحح الاخفاقات والهفوات بروح المعلم الكبير المثابر المجبول على العطاء والكرم، والحريص على الكتابة الرشيقة الهادفة المنفتحة على آفاق المعرفة الانسانية.

لقد افتقدنا برحيله انموذجاً فذاً للتواضع والعطاء والثبات على المبادئ. وبهذه المناسبة أتقدم لكم شخصياً ولقيادة الحزب الشيوعي وجماهيره بأصدق آيات التعازي.. مع فائق التقدير.

د. حسن الجنابي
وزير الموارد المائية

رحل قبل أن يحين أوان القطاف

عام 2017 أبى إلا ان يفتتح مواسمه بأخبار محزنة. ففي الرابع والعشرين من شباط 2017 غادرنا في رحلته الأبدية الدكتور غانم حمدون الرئيس الاسبق لمجلس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، فقد توقف قلب هذا المناضل الكبير ومربي الاجيال والإنسان عن الخفقان في لندن بعد اصابته بالتهاب رئوي حاد.

يصعب على (الثقافة الجديدة) أن تجد الكلمات التي تعبّر فيها عن الفجيعة والألم اللذين حلا برحيل المعلم والرفيق د.غانم، مثلما عرفه طلابه مدرسا حريصا، ومتشددا في تدريس اللغة الإنكليزية، كما عرفه الطلبة الجامعيون أثناء تدريسه في العراق والجزائر بهذا الحرص والتشدد. عمل في (الثقافة الجديدة) في سنوات المنفى طيلة عقود، متحملا عبء التحرير وحده، ثم في هيئة ومجلس التحرير وحتى بعد تخليه عن رئاسة التحرير.

فقدانه بعد من فقدنا في السنوات الماضية من قامات، يؤكد كأن هذه القامات الواقفة شامخة تأبى أن تظل تتنفس وهي ترى كل هذا القبح وكل هذا العجز، ليس في عراقنا وحده، بل في كل الدنيا، فتدع القلب يتوقف عن النبضان، دون أن تلحقها ذرة شك في أن الاشتراكية آتية، لتكنس أدران الرأسمالية.

إن هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) وهي تودّع د. غانم حمدون، تعزي رفاقه ومعارفه وأصدقاءه وهم كثر، كما تعزي كتاب المجلة وقراءها ومحبيه مثلما تعزي أنفسها، راجية لِلجميع الصبر والسلوان.

نَم أيها الصديق العزيز والرفيق المتفاني والمتصوف قرير العين، مطمئنا، فستنعم بالذكر الطيب دوما وستبقى حيا من خلال أعمالك ومواقفك الناصعة، فكنت مثالا يُلهِم ويُقتدى، خلقا وتواضعا ودأبا وإبداعا.

وماذا عسانا ان نقول الآن سوى: باق أنت بين أجمل قامات وطننا المسكون بـ"جنون" الحرية والعدالة والمساواة والكرامة.

وداعا سادن (الثقافة الجديدة)، قلعة "فكر علمي .. ثقافة تقدمية"!

هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

2017/ 02/ 24

الرفيق غانم حمدون في ذمة الخلود

رائد فهمي

توقف عن الخفقان قلب المناضل الشيوعي الكبير ومربي الاجيال الدكتور غانم حمدون صباح هذا اليوم اثر التهاب رئوي حاد. ان رحيله يمثل خسارة كبيرة لحزبنا وللثقافة العراقية، فقد كان الرفيق الراحل مثالا متميزا في الالتزام والعطاء اللامحدود لقضية الحزب والشعب والثقافة التقدمية ولقيم العدالة والحرية والمساواة، ويجمع كل من عرفه، ناهيك عن كل من رافقه وزامله وعمل معه وتعرف عليه عن كثب، على ما يطبع سلوكه وتعامله من خلق رفيع ونبل انساني ونزاهة ونقاء وتجرد عن النوازع الذاتية الأنانية. انه مفخرة لحزبنا وشعبنا وللثقافة العراقية، سواء كمثقف وكاتب ومرب جليل، أم كرئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة ومحرر رئيس فيها على مدى عقود.

الصبر والسلوان لذوي الرفيق وأهله ورفاقه وأصدقائه ومحبيه الكثيرين، والمجد والذكر الخالد للفقيد.

أيام غانم حمدون !

رضا الظاهر

كان سالكاً طريق الحق.. ما أوحش هذا الطريق الآن.. ما أصعب الرؤية إذ تحجبها الدموع !
ضاق صدري من فجيعة رحيلك.. وأنا أعلم أن صدراً أرحب من هذا الأفق يلزمني حتى أسند رأسي المتعب على جدار أغنياتك.. فأقول كلاماً يليق بمقامك الذي هو العراق !
يا غانم الروح، كم استجرت بك.. يا الهي، كم أسعفتني في وحشة أزمنة صارت أشواكاً أدمت أقدامنا، وهي تمضي نحو تلك الضفاف..
كم تقاسمنا خبزِ أيام مريرة.. وتمددنا في ظلال من الأرق.. واحتفظنا بدموع كنا نعرف أننا سنحتاجها يوماً ..
يا أيها الدرب ممتداً فينا، ونحن فيه نغذ المسير..
يا أيها القادم من تاريخ موغل بالعدالة والنور..
أنت يا وارث الربيع.. يا مانحه لنا ممتزجاً بأسئلتك الحارقة.. وبيديك تمتدان بالنداءات وهي تقرع أجراس الاطاحة بالعالم القديم ..
يا أيها الحالم الذي تحط حمائمك في سواقي القلوب، فتسمعنا أغنيتك التي لم تكتمل منذ فجر آشور حتى منفاك اللندني ..
أنت وحدك الذي كنت تستطيع أن تقنع الغيم حتى يتوقف عند أبوابنا، ويغسل أشرعتنا بشمسك التي لا تعرف الغياب ..
تلك الأمواج التي تكسرت عند ساحل أيامك، هي التي أرشدتنا لنستريح في ظلال لا تليق بغيرك.. وما تأخرت شمسك في إشراقها.. وما تأخرت نوافذ روحك في استقبال ضياء ذلك النجم البعيد ..
غانم حمدون.. غنِّ لنا: "وين رايح وين؟!".. هل تتذكر أيام الشام والياسمين؟! كيف لنا أن نحتمل كل هذه الأحزان والأشواق؟!
ستظل قادراً على أن تأمر الندى حتى يبلل عشب أيامنا المقبلات.. أيام غانم حمدون.. حيث الندى يدلّنا، نحن الذين ننتمي إليك، على مرفأك البعيد.. وحيث الأجراس تظل تقرع حتى يولد الغد الجديد ..
من أية رايات تخفق في يديك صدحت أنشودة التحدي.. من أية أشرعة عِذاب قُدَّ ضميرك البلور، وهو يرشدنا متحدياً الأمواج العاتية !
غانم حمدون.. أنت الذي سأحتفظ لك بآخر الزهور.. وأعلم أنك ستحتفظ لي بآخر الفراشات !

وداعاً رفيقنا الغالي الدكتور غانم حمدون.. ايها الشيخ الجليل

سلم علي

رحل عنا فجر اليوم الرفيق العزيز د. غانم حمدون، في مستشفى إيلينغ في لندن، بعد اصابته بالتهاب رئوي حاد لم يمهله طويلاً، وعن عمر يناهز 88 عاماً.

رحل الشيخ الجليل، فقيدنا الغالي (أبو ثابت)، الشخصية الشيوعية والوطنية العراقية البارزة الذي كرّس كل حياته، وحتى أيامه الأخيرة، لقضية الحزب والشعب والوطن. كان مثالاً نادراً في النقاء الشيوعي والنزاهة، والزهد في الحياة، والوفاء والإخلاص اللامتناهي للمبادئ السامية التي اعتنقها منذ انتمائه الى صفوف حزبنا الشيوعي العراقي.

ان رحيل رفيقنا العزيز د. غانم خسارة كبيرة لحزبنا ولشعبنا وحركته الوطنية، لكنه ترك لنا إرثاً فكرياً وثقافياً كبيراً.

ستبقى ذكراه خالدة في عقول وأفئدة رفاقه ومحبيه الكثر، في العراق والشرق الاوسط وأرجاء العالم..

نم قرير العين، شيخنا الجليل، ولك منا كل الحب والوفاء.

أجلس الآن معه وجهاً لوجه ولا أعرف ماذا أفعل.. أكتب عنه أو أعتذر منه؟

زهير الجزائري

أحتاجُ أن أبتعد أو أبعده لأتحدث عنه في صيغة الغائب، لكن حضوره كثيف أمامي. يغادر كرسيه ليقدمه إلى الآخرين كما هو دائماً، لا يريد ان يمتلك شيئا يريده الآخرون .
هل هو كرم، أم تخل عن كل ما يملك؟ ففي سوريا وضع ما يملكه من مال جمعه خلال فترة التدريس في الجزائر لمساعدة كل من يحتاج المال للسفر، او للمعيشة، وحين اسأله سيكون جوابه جاهزا، ليس لدي أولاد لأورث.
تعرفت عليه أكثر في لندن، فقد كان بيتنا محطته الأولى. كان لي أبا بعد ان فقدت أبي، وكان لابنتي أوس جداً. لم استطع ولم أتعلم منه سهولة التخلي عن الأشياء للآخرين، فقد تخلى وهو بهذا العمر عن سريره الخاص لصديقه علي الشوك. لم استطع تعلم زهده في الحياة ومساعدة الآخرين ولا نفوره من كلمات الامتنان والمديح.
كنت ألح عليه أن يكتب مذكرات أو نوع من السيرة، لكنه ينفي الفكرة بيده "ليس في حياتي ما يستحق ان يكتب" مع انني اجد الكثير. كنت أستشيره في كل الأمور وهو اول من يقرأ كتاباتي قبل النشر. أحب صراحته التي لا تداهن والتي كانت سببا في خسارة بعض أصدقائه. في المرات الأخيرة أردت ان أزوره، قال لي أفضل أن لا تأتي لأن بيتي مظلم لأن نور الشمس يسبب له حساسية جلدية وفي واحدة من حفلات الجالية العراقية قال لي وسط ضجيج الموسيقى انه بدأ يعود نفسه على فكرة، بالأحرى حقيقة الموت، وصارت بالنسبة إليه أليفة. ذهب غانم بهدوء وربما سيستغرب كتاباتنا عنه، فهو دائم الاعتقاد بأنه لم يقدم شيئا ذا أهمية للثقافة، للحزب، وللوطن في محنته.

صوت غانم حمدون

فخري كريم

رحل غانم حمدون، محمولاً على محبة جيلٍ عاش متعة زمن جميلٍ واعد، وجيل أنهكتهُ مرارة واقع رثٍ يزدريَ القيم والمبادئ التي جُبل عليها. أمس الاول تسلل من غفوته المَضنكة الى الراحة الأبدية، حيث لا مكان فيه للقلق من لصوص المقابر الذين يزدرون الحياة وهم يفتشون عن لُقى الموتى بعد أن أمعنوا في تجريدهم من القدرة على الاحتفاء بمباهج الحياة ورحمتها. وإذ يتظلل غانم حمدون بالراحة الأبدية، مخلفاً كل ما يجسد صورة الانسان حيث ينبغي أن يكون عليه، خلافاً لأشباه البشر "عِث الحياة"، يظل العراق حيث عاش حمدون ومجايلوه مجد أزمنته الجميلة، أسير أشباه البشر هؤلاء الذين يواصلون تلويث بيئة حياتنا، ويتفننون في محاولة تجريدنا مما تبقى لنا من أمل مرتجى.. أيمكن أن أشيعه، دون ان أستعيد لمحبيه، ومن بريد تمثُّل قيمه ونزوعه الانساني ما كان عليه غانم حمدون في الحياة حتى اللحظة الاخيرة.

وهل لي ان أقول فيه وأنا أسير لحظة وداعه غير ما كتبت، محاولة تقيم مثلٍ جديرٍ بأن يحتذى :

تجاوز عمر "بشيره الشيوعي"، بسنوات، وسبقه إلى الحياة، بسنوات أيضاً، دون أن يتقصد متابعة ما يجري من حوله، لبلورة المشروع الذي اصبح هاجسه، وحلم حياته. في السنوات المبكرة التي شبّ فيها صبياً، ساهمت جماعة "الصحيفة" الماركسية في التمهيد الفكري، مثلما مهد الحراك العمالي والنقابي والوطني العام لإعلان التأسيس الرسمي للحزب الشيوعي العراقي في ٣١ آذار ١٩٣٤.

ولادة غانم حمدون في منتصف عشرينيات القرن الماضي، رافقت التمهيد لذلك الحراك الذي أضفى عبر ثمانين سنة نضالية، طابع الديمومة والنشاط المتعدد الجوانب على الحركة الوطنية، وأشاع مناخاً من المناعة عليها، بما أُحيطت به من نهضة في الوعي الجماهيري، والجسارة في التصدي للمهام الكبرى، التي تضع في الأولويات السياسية التحرر من ربقة الاستعمار، والعمل من اجل اطلاق الحريات، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية.

لا يختلف اثنان في تقييم نبل هذا الإنسان المطبوع على التواضع والخلق الرفيع، والاستعداد لبذل ما يستطيع لإعلاء قيم الحرية والمساواة، وتكريس المبادئ التي تجعل من الإنسان، بغض النظر عن اي توصيف ديني او مذهبي او عرقي، مركز الاهتمام الذي تدور حوله، وتخضع له محاور الحياة وخيراتها.

عرفته في مطلع شبابي، من بعيد. لم تكن ملامحه الجدية تغري بالاقتراب منه. وربما أوهم بما يبدو عليه من صرامة، بالتعالي. وظل لسنوات على مسافة، لم أتجاوزها حتى بعد أن تداخلت المهام، وصار ممكناً

البحث عمّا وراء الصرامة في الملامح، والاقتصاد في متابعة الحديث، من تعبير عن الخصال الحقيقية التي لا تجسدها المظاهر الخارجية للإنسان.
بين عنفوان الشباب واندفاعاته، وحسابات الكبار وتردّداتهم، صار التوجس خيطاً رفيعاً، يثير من التساؤلات ما يحول دون التقارب وبناء المشتركات الإنسانية، وظل الهاجس والتوجس بيننا، يخف ويتورم تبعاً للمناسبات التي تجمعنا في ظل ظروف العمل الصعب والمأزوم والمتشابك، والملاحقات التي كانت تزداد وتتصاعد.
من بعيد، أو وهو قريب، لم تتغير صورته، ولا اختلفت سجاياه، ولم أحاول ان أخضعه لدواع لا علاقة لها بما يشكله هو من كينونة إنسانية، وما يراه من تقييمات للناس والأشياء التي تشكل دائرة حياته الضيقة، شغوفاً بالموسيقى الكلاسيكية، وإغناء حقيبته الفكرية والثقافية والفنية.
لم تثرني إشارات اصدقاء بـ "حنبليته" أو ما يسمى بلغة المثقفين والسياسيين، بـ "دوكمائيته"، واعتبرت تلك من الصفات التي تضبط إيقاع إنسان، وظل هو يتردد بين التحرر من أسر النمطية المتشددة، والانسياق وراء مخاوف وقلق لا يخفيهما، حتى انه يجاهر بما يستطيع أو لا يستطيع تحمله في مجابهة صروف الحياة والعمل وأعبائها ونتائجها.
لم أتصور أنني سأكون ضحية تشدده الفكري، وحنبليته في الدفاع عن عالمه القيمي، الفكري والسياسي، وقراره في ان يتخلى عن عشرة عمر، ونضال مشترك، متوهماً أنني، تسببت في خسارة الحزب، اصواتاً كان ممكناً ان يفوز بإضافتها الى رصيد أصواته بمقعد نيابي إضافي!
في قرارة نفسي، شعرت باعتزاز داخلي دون ان أُفصح عنه، ها نحن نعيش وسط خراب يُطبق علينا من كل طرف، فيفسد أجواءناً، ويحيل حياة العراقيين الى جحيم ومعاناة لا تنقطع، ويبقى وهج الماضي المزدان بالقيم والمبادئ، يضيء، وتتفتح تحت أنواره قامات، لن تجد طعم حياتها إلا في الذود عن خياراتها. وأي خيارات اسمى من تجاوز الذات وما يراه الآخرون ضرورة، والإمساك بالمُثُل، بالنواجذ، واعتبارها الخط الفاصل بين ان تكون أو لا تكون، بشراً سوياً، تزهو متعالياً على الصغائر التي تذروها الرياح، ولا تبقي منها غير الفضلات التي لا تصلح علفاً..؟!
غانم حمدون، صوتٌ من ذلك الزمن الذي كان الواحد فيه، ممّن رأى ان إنسانيته لا تتكامل، إلا اذا اندمج في الكينونة الجمعية، وكرامته لن تصان، إلا اذا صارت جزءاً من كرامة المجتمع، وحريته لن تتفتح إلا اذا جسدت إرادة الآخرين.
مثل الآلاف، ومئات الآلاف من العراقيين، الذين منح الآلاف منهم حياتهم بزهو دفاعاً عن وطن أرادوا ان يكون حرّاً، وعن شعب أرادوا له ان يكون سعيدا، ظل غانم حمدون يطوي الحلم الاول ذاك في ضميره، يستعصي على المكاره وضغوطات الحياة، مشدوداً الى مستقبل، يُدرك انه ليس على تلك المسافة التي يمكنه أن يبشر بأنها ها هنا في متناول العين وقبضة اليد!
طوال سنوات المنفى، كان يسألني بين فترة وأخرى، وهو يشاركني سكني المتواضع في دمشق "هل الرسالة في مكان أمين؟".
كنت أطمئنه دائماً وانأ ابتسم، وربما كنت أخرجها ليطلع عليها سليمةً، لم تتخدش فلا تُقرأ. ولم تكن الرسالة، غير وصيته في تسليم حزبه رصيده الذي ادخره من كَدّه طوال سنوات العمر، ولم تكن قليلة في

حساباتنا يوم ذاك، وحتى الآن.
احياناً كنت أمازحه بالقول "مصلاوي.. أصرف"، وجوابه المبتسم: هذه الأموال تنفع الحزب، وأنا مكتف!
لكن مصلاويته المحببةً، وميله الى التقشف الشخصي، لم يمنعاه من تقديم مساعدات سخية لأصدقائه ورفاقه، وقروض لا تُرد!
غانم حمدون قرر قبل فترة قصيرًة أن يبيع بيته في العراق، ويحول قيمته الى الحزب.
ليس هذا فحسب، بل اختار ان ينتقل الى دار المسنين، دون ان يخطر في باله ان يستعين بما لديه من مالٍ على عيشٍ باذخ، يبتهج فيه ويرفل بسعادًة انسان لاً يرى ألعالم من حوله إلا وهو مركز دورانه وسر وجوده!
غانم حمدون، سلاماً أيها الصديق، دُم على وفائك المضيء، فأنت أفضل مني!

الرفيق الدكتور غانم حمدون
الغائب الحاضر في قلوب وعقول رفاقه ومحبيه

كاظم حبيب

تعرفت إلى غانم حمدون في العام 1947 حين كان يدرس في الجامعة الأمريكية ببيروت مع شقيقي مهدي حبيب. وكانا يدرسان اختصاصين مختلفين، وقليلاً ما كانا يلتقيان. كنت حينذاك في الصف الرابع الابتدائي. كنت التقيه حين كان يذهب ليمارس الرياضة في ملعب الجامعة ويحييني تحية الأخ الأكبر لأخيه الصغير. وحين غادر شقيقي إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته، عدت أنا إلى العراق. لم التق به بعدها ببغداد أثناء عملنا الحزبي أو السياسي، إلا حين جاء إلى المانيا الديمقراطية للدراسة واختار فرع «اقتصاد العمل» في جامعة همبولدت، وحاز درجة دكتوراه فلسفة PhD . كان حينها متزوجاً من السيدة سلوى الجلبي التي عاشت معه طيلة وجوده بألمانيا، ثم افترقا نهائياً. التقينا مرة أخرى ببغداد حين كان عضواً في اللجنة الاقتصادية للحزب الشيوعي العراقي، كما كنا، مع آخرين، أعضاء في هيئة تحرير (الثقافة الجديدة)، وكان يعمل محرراً وكاتباً في جريدة اتحاد الشعب. التقينا مرة أخرى في مدينة الجزائر عام 1979 حين أجبرنا على مغادرة العراق في أواخر السبعينيات مع الهجوم البعثي ضد الشيوعيين والديمقراطيين. تعين الدكتور غانم في جامعة الجزائر وعمل مدرساً فيها لسنوات عديدة.

في العام 1987 زرت الجزائر قبل عودتي إلى حركة الأنصار بكردستان للمرة الثانية. زرت الهيئة الحزبية القيادية لتنظيم الحزب الشيوعي في الجزائر، وكان الرفيق غانم عضواً فيها والرفيق الدكتور عبد العزيز وطبان مسؤولها. بعد انتهاء الاجتماع طلب الرفيق غانم الانفراد بي. حدثني عن وضعه الصحي ومعاناته، وطلب مني أن أكون وكيلاً له بما يملك من مال وعقار ببغداد، ليكون المال والعقار بعد وفاته للحزب. كان الموقف في منتهى النبل وعبر عن حبه العميق للحزب ومبادئ الحزب التي اقتنع بها مبكراً، وكان الموقف محرجاً أيضاً. الموقف محرج لأن الرفيق ما يزال معافى عموماً وهو قادر على الاحتفاظ بأمواله، وبمقدوره أن يكتب وصية يمكن أن ينتقل وفقاً لها ما يملك إلى ملكية الحزب الشيوعي العراقي عند وفاته، كما إنها تعتبر مسؤولية غير مناسبة لي وأنا في طريقي إلى حركة الأنصار بإقليم كردستان؛ إذ أن من كان ينخرط في الحركة لا يعرف حقاً هل سيعود حياً أم سيستشهد في جبال وقرى وأرياف كردستان، كما استشهد الكثير والكثير جدا من رفاق وأصدقاء الحزب في الفترة الواقعة بين 1979 – 1989، إضافة إلى الكثير من المناضلين الكرد هناك من أعضاء البيشمركة. فقلت له عزيزي رفيق ثابت، (وكان هذا اسمه الحزبي منذ

ولج بوابة الحزب الشيوعي العراقي حتى وفاته وكان ثابتاً على العهد الذي قطعه): أنت ما تزال بصحة مناسبة وأتمنى لك عمراً مديداً وصحة جيدة، كما يمكنك كتابة وصية تجددها كل عام إن شئت، ليتحول كل ما تملك لصالح الحزب في حالة الوفاة. ولهذا أرى ألا تتعجل الأمر، وأنت تتبرع سنوياً بخمسة رواتب شهرية من رواتبك السنوية للحزب، كما كان يفعل جميع رفاق الحزب في الجزائر (البقية كانوا يتبرعون بثلاثة رواتب في السنة) وهو مبلغ جيد ومناسب. بعد حوار قصير بيننا اقتنع بصواب الرأي الذي أبديته له. وقد عاش الرفيق غانم طوال ثلاثة عقود تقريباً بعد ذلك الحوار. وما بخل على الحزب بأمواله وجهده أبداً.

لقد تميز الرفيق غانم حمدون بامتلاكه ثقافة واسعة وروحاً علمية وعقلانية وتواضعاً جماً، وهنا يصدق من يقول: «كلما ازداد علم الإنسان ازداد تواضعه، وكلما قل علم الإنسان قل تواضعه!»، وعمل على وفق الحكمة المندائية التي تقول: «لا خير في عالم لا ينفتح على غيره، ولا خير في جاهل منغلق على نفسه». لقد كان الرفيق غانم من المثقفين العضويين الذين تحدث عنهم غرامشي، والذين وضعوا أنفسهم بالكامل في خدمة قضية الشعب العراقي والفكر الاشتراكي الإنساني، الذي اقتنع به وناضل من أجله والذي حمل رايته بالعراق الحزب الشيوعي العراقي. كان دؤوباً في عمله ولا يمكن أن يؤجل عمل اليوم إلى غد. برز هذا بوضوح في اداء مهماته الحزبية المتنوعة وفي عمله في تحرير الثقافة الجديدة ودأبه على كتابة المقالات وعلى تصحيح ما يرد للمجلة من مقالات ايضاً ولسنوات كثيرة، إضافة إلى علاقاته الاجتماعية الممتازة مع الآخرين.

لقد كان الرفيق غانم صريحاً وهادئاً في نقده، وكثيراً ما كان يوجه النقد لسياسة الحزب في عقد السبعينيات من القرن الماضي، حين كان يعمل في لجنة المثقفين أو في اللجنة الاقتصادية المركزية للحزب (لقم)، ولكنه كان في الوقت ذاته صبوراً وملتزماً بشدة بما يقرره الحزب من سياسات ومواقف عبر اللجنة المركزية أو مكتبها السياسي.

من المحزن حقاً أن يموت رفيقنا العزيز غانم في المنفى بعيداً عن الوطن الذي أحبه وناضل من أجل تقدم شعبه، وأن يكون موته في فترة مظلمة من تاريخ العراق المستباح والجريح منذ عام 1963، وحيث يسود اليوم الحكم الطائفي المقيت والمحاصصة المذلة للهوية الوطنية، هوية المواطنة الحرة والمتساوية، وأن تسود الهويات الفرعية القاتلة، وأن يرى مدينة الموصل، مدينته العزيزة، تحت حكم الأوباش الدواعش الذين مرغوا كرامة مواطنيها من النساء والرجال بالتراب وقتلوا عشرات الآلاف من الناس الأبرياء من ايزيديين ومسيحيين وشبك وتركمان وكرد وعرب ومسلمين، دون أن يحاكم أولئك الذين تسببوا بهذه الكوارث المرعبة بحق شعبنا العراقي بكل قومياته وأتباع دياناته ومذاهبه واتجاهاته الفلسفية والفكرية، بل يراهم ما زالوا يهيمنون على الحكم ويأتمر الكثير منهم بأوامر أسيادهم في دول الجوار.

مات الصديق والرفيق غانم في الغربة، ولكن كان حوله من الرفاق والأصدقاء ما خفف من حجم الصدمة بموته، رغم معرفتنا جميعاً بأوضاعه الصحية الصعبة في السنوات الأخيرة من عيشه بلندن. فالذكر الطيب لغانم حمود والعزاء لكل رفاق دربه ومحبيه وأصدقائه الكثر. لقد مات غانم، ولكن الفكر الذي ناضل من أجله ما زال وسيبقى يعيش في سماء العراق والعالم.

الدكتور غانم حمدون خالدٌ في ضمائرنا

د. علي إبراهيم

تعرفت إليه في السنوات الأولى من التسعينيات بعد أن سمعت عنه وقرأت له وكانت مصادفة تاريخية لا يمكن أن تنسى حين أرسلت له موضوعا مستلا من أطروحتي عن الكاتب الكبير غائب طعمة فرمان، التي ما زالت قيد الدراسة في وقتها وطلب اللقاء بي للتداول وعندما زرت لندن في عام 1995 دعاني إلى بيته، ذهبت إليه فوجدته وحيدا قال: حديثنا سيكون على مائدة الغداء وبدأ يحضر ما لديه فقلت له: دعني أساعدك، قال: طبعا لا مانع لدي، أنجزنا كل التحضيرات المتواضعة بسرعة وجلسنا نأكل، وفي البداية فتحنا موضوع البحث، فأخبرني بما يعرفه عن الحركة الأدبية في العراق وعن غائب ودوره في الرواية وملاحظاته عن الموضوع المرسل إليه من قبلي وكانت قيمة، أفدت منها في تعديل البحث الذي تم نشره في الثقافة الجديدة، ثم تحدث عن معاناته في إصدار المجلة التي تكفل بإصدارها رئيسا لتحريرها، وعن انشغال الكثير من الكتاب بالعمل في الصحافة التي توفر لهم مردودا ماليا يعينهم على الغربة، لم يتحامل عليهم بل أشاد بمن يتواصل معه في رفد المجلة بكتاباته، وأتذكر في معرض حديثه أشاد بالكاتب الدكتور رشيد خيون الذي كان ينشر له في مجلة الثقافة الجديدة وتنبأ له بمستقبل في مجاله – يومها لم يكن معروفا – وقد تحققت نبوءته وها هي كتبه الكثيرة تملأ المكتبات. ثم عرض علي مجموعة من الكتب التي حصل عليها من كتّابها هدية. وقال لي خذ منها ما شئت، فرحت وشكرته على كرم الضيافة والكتب.

والتقيته في المؤتمر السادس للحزب الشيوعي العراقي في شقلاوة، صيف عام 1997، ووجدته حيويا بوجوده وبأطروحاته المفيدة. كان فرحا بهذه المناسبة التي كانت سببا في زيارته للعراق والتمتع بجزء مهم من الوطن، وهو يرنو نحو مدينته الموصل، بعد غربة طويلة متواصلة، منذ الهجمة الفاشية في عام 1978 التي شنها نظام صدام المقبور لتصفية أعضاء الحزب الشيوعي العراقي جسديا أو اعتقالهم وتعذيبهم، محاولا عبثا إجبارهم على تغيير قناعاتهم الفكرية والسياسية.

السيرة الطيبة خالدة وتصير مع الزمن نبراسا للقادمين، ها هو أنت أيها المناضل الصادق الوفي غانم حمدون في ضمائرنا تبقى.

د. غانم حمدون.. نجم آخر يهوي

د.احمد الربيعي

هل للكلمات أن ترثيك يا أبا ثابت، وهل للحزن عليك من وصف يليق. وهل من قرار للشعور بالفقدان برحيلك؟

معاتبا أتوجه اليك لأنك لم تبق لي هذه المرة ايها العزيز من فسحة للأمل فقد عاجلت الرحيل صوب المجد الذي بك يليق. بين الإيميل الذي ارسله العزيز ابو جواد ليخبرني بتدهور حالتك الصحية وبين رسالة الواتساب الصاعقة التي بعثها العزيز د رضوان الوكيل، ناعيا لي خبر رحيلك فجر الامس، لم يكن هناك سوى يومين لم تترك لي بعدها ان أمنّي النفس بأمل الاتصال بأطبائك والاطمئنان منهم عليك، كما اعتدت ان افعل من قبل في المرات التي انتهيت فيها الى دخول المستشفى.

محبوك الكثر وكل من عرفك مأخوذ بفجيعة هذا الرحيل السريع، لكن لفاجعتي بك طعم اليتم الذي شعرته مع رحيل ابي، تلك هي أبوة النبراس والمثال والحنو الممزوج بحرارة الحرص ودفء اللقاء. لم تكن فريضة او التزاما فقط ان أحج الى لندن كل عام بعد انتهاء المؤتمر الطبي (الذي احضره في احد البلدان الاوربية) لكي اقضي بضعة ايام معك وفي ضيافتك، بل هي المتعة ايضا التي انتظرها من هذا السفر. لم يكن لي من لندن غير تلك البناية التي كنت تسكن، ولم يكن فيها ادفأ من غرفة الضيوف في تلك البناية التي كنت تحجزها لي وتحرص ان تجهزها بكل حاجاتها والتي اعود لأنام فيها، بعد ان نقضي الليل سوية في صومعتك في سياحة بين ذكرياتك التي غطت العقود الست الاخيرة، وبين القائمة الطويلة من الاحبة الذين تطلب مني ان اعودهم هاتفيا للاطمئنان على صحة كل منهم.

لم ارك ايها العزيز طيلة عشرات السنين تلك، الا مسكونا بتلك القضية النبيلة التي كرست لها سنين عمرك وخدمتها بكل وعيك وجوارحك، وبذلت لها كل جهد لك، وقدمت لها كل ما ملكت وقدمتها على حياتك وعلى من تحب. لم ارك إلا زاهدا مترفعا على كل بريق أو وجاهة، صادقا لا تخشى في الحق لومة لائم، تمقت التلون والزيف وتمجد العطاء والالتزام. لا أتذكر منك إلا التفاؤل بانتصار القضية (وإن امتد الطريق) والترويج للتجديد، الابتعاد عن القوالب والجمود.

خسارتنا برحيلك لا تعوض لكن عزاءنا ان ما تركت من تنوير ومثال واثر سيظل حيا في نفوسنا جميعا.

غانم حمدون... يظل حيا!

ابراهيم الحريري

هل حقا رحل؟ لا أصدق ذلك. ذلك انه كان له من قوة الحضور، من تواضعه، من صدقه، من اخلاصه، من تفاؤله، من قدرته النادرة على السخرية الذكية حتى من نفسه، كان له من كل ذلك ومن كثير غيره، ما يمنحه قوة الحضور الدائم، حتى لو غاب، ذلك انه من القلائل الذين يصبحون، في غيابهم اشد حضورا.

تعرفت إليه منذ امد طويل، منذ اواخر الخمسينيات. كانت علاقتنا تتراوح، قوة وفتورا، بحسب تطور الأوضاع السياسية، أعني، ولا اخجل من قول ذلك، بل افهمه، لا اشكو منه، بل اعذره عليه، بسبب تقلب أوضاعي، حينا، ومزاجي حينا آخر، خصوصا في السنوات الأخيرة.

لكن اوائل التسعينيات، شهدت مراسلات كادت تكون يومية بيننا، أنا من تورونتو – كندا وهو من لندن – بريطانيا، حتى اني كتبت له مرة مازحا "ان بإمكانه ان يجني ثروة من نشر مراسلاتي له، بعد موتي! رد ساخرا: موت الأول! ونشوف!"

لكنه "فعلها" بي، رحل قبلي وترك لي ان الملم مراسلاتنا. وأرجو ممن سيجمع أوراقه، وألح في الرجاء، ان يحفظ لي مراسلاتي له – اعتقد انه احتفظ بها، كما احتفظت انا برسائله، ليس طمعا بثروة من نشرها، بل لأنها، اعني مراسلاتنا معا، رسائله خصوصا هي الثروة الحقيقية، بل هو الثروة الحقيقية التي لا تنفذ – لما تنطوي عليه من عمق في النظر، من غنى في الروح، ومن روح أبوية كانت تتجاوز نفاد صبري، (نزقي كما اسماه ذات مرة، لعله كان محقا).

يا للأب الحاني! يا للأخ العطوف! يا للصديق الصدوق! يا للرفيق الرفيق!

يا لغانم! يا لغانم! يا لغانم!

وداعاً "عمو حدون" !

عدنان عاكف

فجأة صاحت زوجتي: ومتى حدث هذا؟ قلت بدون ان التفت نحوها: حدث في مثل هذا اليوم..... ابتعدت عني وهي تردد "إنّا لله وإنّا إليه راجعون".

قبل ان أستوعب ما يدور حولي اقتربت ابنتي لتسأل عما حدث. وقبل ان تسمع الجواب كان ابني يقف بين امه وأخته وأعاد السؤال:

من الذي مات هذه المرة ؟ فقالت زوجتي:

عمو حدّون!! ألا زلت تذكر عمو حدّون؟.. و"عمو حدّون" هو اسم الدلع الذي اكتسبه د. غانم حمدون حين كنا نقيم في الجزائر.. وكان ابني الأصغر لم يبلغ الثالثة من عمره حين ابتدع هذا الاسم.

نزل عليّ إسم "عمو حدّون" كالصاعقة. سألت بصوت خافت:

– ومن أين جئت بهذا الخبر؟

– كيف من أين؟ من عندك طبعا. وقفت خلف ظهرك ورحت اختلس النظر.

– دليني على كلمة واحدة توحي باني كنت أكتب نعيا .

– كيف؟ المقالة عن غانم وتكتبها في مناسبة 31 آذار. وأنتم لا تكتبون في هذه المناسبة إلا عن السجون والشهداء.. فليس من المعقول انه مسجون في لندن!

.. تعرفت إليه عن قرب خلال دعوة عشاء عند صديق مشترك.. قبلها كنت التقيته في مقر "طريق الشعب"، وفي "الثقافة الجديدة". وفي جميع هذه اللقاءات كنت ضيف صدفة او زائر متطفل.. وعلي ان أعترف اني لم اكن اتخيل ان هذا الرجل هو غانم حمدون الذي أسمع عنه. كان بملابسه الأنيقة وبشرته البيضاء، وابتسامته الطيبة، وصلعته البهية أقرب إلى عميل في المخابرات، منه إلى مناضل شيوعي...

توطدت علاقتي به في الجزائر. التقينا في شقة أحد الرفاق. بعد أن تعانقنا سألني:

وكيف الحال هناك؟ فقلت أين: هناك؟ قال: ألم تكن في جهنم؟ لقد قرأت الفاتحة على روحك أكثر من مرة...

مد يده في حقيبته المصلاوية التي لا تختلف كثيرا عن حقيبة أي تلميذ في الإعدادية، وأخرج منها بيان، مع قائمة بأسماء العشرات من المعتقلين في سجون النظام الدكتاتوري، ونبأ عن فقداني.. يبدو انه قد حصل خلط بين اسمي واسم أخي د. حسان، الذي أعتقل في حينه.

في هذا الاجتماع بدأت أتعرف عن قرب الى بعض خصال أبي ثابت. أولها التواضع الذي يصل حد النرفزة. كان (كما أظن) أكبر الحاضرين سنا، وأكثرنا تجربة وأطولنا باعا في العمل الصحفي وفي المجال الثقافي السياسي، ولكنه كان صاحب اللسان الأقصر، والصوت الذي لا يكاد يسمع. وقد عرفت في ما بعد أن مبدأه في مثل هذه الفعاليات هو: "السكوت من ذهب". وبما انه مصلاوي قح ويقدس الذهب، فقد كان لا يتكلم إلا بأجزاء المثاقيل.

سألني ذات يوم عما يشغلني فأخبرته

اني انتهيت من ترجمة كتاب عن الطوفان العالمي. فسألني: وما قصة هذا الطوفان. وراح يمطرني بالأسئلة.
في الصباح عاد إلى قسطنطينة، وفي المساء اتصل بي المرحوم د. عبد اللطيف الراوي، وطلب معلومات عن الكتاب..
وبفضل جهود ومتابعة عمو حدّون صدر الكتاب في دمشق..
قبل ان يغادر الجزائر الى سوريا سألني عما يشغلني. قلت اني مشغول بترجمة كتاب عن "الحياة الروحية في بابل". فقال عز الطلب. فقلت:
– ولكن المشكلة انه مبني على شعر أهل بابل، وهذه مهمة صعبة بالنسبة لشخص مثلي.. فقال: قد تكون كذلك، ولكن فوت بيها وأنا معك. فقلت:
– لست أديبا كي أترجم الشعر، ولست من اهل التاريخ.. قاطعني وقال: أتفق مع كل هذا. ولكن: اذا كنا متفقين على أهمية الكتاب، فمن سوف يقوم بترجمته سواك؟ لا أحد.. لن أغادر الجزائر إلا والمسودة بيدي..
وصدر الكتاب، وما كان له ان يصدر لولا عمو حدّون. هل أبالغ بدوره؟ فقدت خمسة كتب شبه جاهزة ولم تنشر لأنه ابتعد عني..
ذات يوم طرح علي سؤاله التقليدي من لندن وأنا في حلب: ماذا تفعل الآن؟ فأجبته: ابتليت بكتاب قديم ممل مزعج باللغة الروسية عن بلاد الرافدين عنوانه: "العبودية في بابل"..
في نفس اليوم يتصل ليخبرني بأنه تحدث مع علي الشوك، فأخبره بان مثل هذه الدراسات تكاد ان تكون معدومة باللغة العربية..
الكتاب من الحجم الكبير – 495 صفحة – ، ما زالت ترجمته تقبع في أحد الأدراج، لكن مقالتين قد نشرتا في "الثقافة الجديدة".. لم اجد جهة داعمة لنشر مثل هذا الكتاب إلا المفلس غانم حمدون!..
في نهاية صيف عام 2003 التقيته في مقر "طريق الشعب"، بعد غياب دام نحو 15 سنة... وتكررت اللقاءات.... وقبل أن أسأل قال بنبرة حزينة وهو ينظر الي بعينين رطبتين:
ـ أنت تعرف، ليس لي عائلة ولست مسؤولا عن أطفال في الخارج. وقد جئت لأبقى. ولكن قل لي كيف يمكن لمن ابتلى بمثل ما أنا فيه، أن يعيش هنا لوحده؟
كان ذلك لقاءنا الأخير.. آخر مكالمة بيننا كانت قبل اسبوعين. اتصل بي بمساعدة صديق.. كان صوته متقطعا وذاكرته مشوشة..
انهض يا أبا ثابت والق نظرة عابرة على هؤلاء الذين اجتمعوا ليودعوك وستجد ان عائلتك الحقيقية هي الأكبر!!
ملاحظة: تحدثت عن المواقف الصغيرة التي يفتقر اليها الكثير منا ولا يعيرها في حياته اهتماما ما.

وداعاً د. غانم حمدون

فيصل عبد الله

في بداية ثمانينيات القرن الماضي، اصطحبني الصديق سعدي عبد اللطيف الى بيت د. غانم حمدون في منطقة بولوغين في العاصمة الجزائرية. وقتها لم أكن قد التقيت د. غانم بعد، سوى تردد اسمه من خلال مجلة "الثقافة الجديدة"، وقبلها عبر ترجمة رواية "الدون الهادئ" الرائعة ضمن فريق مكون من الأستاذ علي الشوك والأستاذ أمجد حسين. ما استوقفني خلال تلك الزيارة القصيرة برنامج د. غانم اليومي، حيث يبدأ المشي صباحاً، فطور متواضع، وشقة مؤثثة بتقشف واضح. ولربما كان جهاز التسجيل الصغير أغلى مقتنياته الشخصية وأكثرها إستعمالاً. ولفرط حبه لهذا الجهاز إستمعنا من خلاله لقصائد محمد مهدي الجواهري، خصوصاً قصيدته "يا دجلة الخير" والتي أهداني نسخة منها.

مر الزمن سريعاً، حتى التقيته مرة ثانية في لندن بعد ان أصبحت عاصمة الإمبراطورية وجهة العراقيين وبوصلة لشتاتهم غداة غزو الكويت في آب 1990 وما تبعها من تعقيدات طرحت نفسها على المشتغلين في السياسة. تكررت اللقاءات وتوطدت، خصوصاً عبر الندوات الثقافية والمناسبات الإجتماعية والوطنية، من دون ان يفقد د. غانم أمله بعراق حر، كامل السيادة، عادلاً ورحيماً بأبنائه.

وزاد من استمرار العلاقة وتعزيزها عبر حرص الغالي كامل شياع على زيارته حالما يأتي الى لندن، إن في سكنه أو حين دخل المشفى مرة. وللأمانة لم أعرف سر تعلق د. غانم بشقيقي كامل لغاية غيابه صباح هذا اليوم. كنت أحسب ان سر تلك العلاقة يعود الى التفاهم العميق بين الرجلين، وإلتقاء أفكارهما حول أكثر من موضوع، والثقة المتبادلة بينهما، ولربما شكل كامل وشخصه نوع من محتويات خميرة جديدة للعمل الثقافي والسياسي في آن. لذا استجرت به مرة للتحدث مع كامل، لقوة العلاقة بينها، والطلب منه ترك العمل والعودة الى مكان إقامته.

ولئن كان الزهد أحد سمات د. غانم الشخصية المهمة والتي رافقت حياته، فان الدقة، في المواعيد والكتابة وتقييماته لما يكتب، هي السمة الثانية التي ظلت ملازمة له. بفقدانه فقد العراق أحد أعلامه في العلوم التربوية، وسياسياً ظل ثابتاً على موقفه طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن. مؤلم حقاً ان ترحل قامات العراق العلمية والوطنية، وتدفن في أرض بعيدة، فيما يجول على أرض الرافدين زواحف المحاصصة الطائفية والمذهبية والإثنية.

لا أعرف من أين ابدأ؟

ابراهيم الوكيل

قالوا في فقيدنا الكبير
كان صديقي وصديق العائلة.
لا أعرف من أين ابدأ؟
هل يكفي ان اقول انني تألمت؟
انه إنسان رائع لا تستطيع الكلمات والجمل حتى ولو كانت من ابلغ الكتاب ان تصفه.
كرس حياته من اجل قضية المحرومين، من اجل العدالة والتقدم. متواضعا مع الصغير والكبير لكنه قامة شامخة.
في ذاكرة الطيبين ولن تغيب ذكراك أبدا.
وداعا

اغتربت وهاجرت لا بحثا عن متع الدنيا

جميل نصيف

بغيابك فقدنا مكافحا صلبا من اجل عالم جميل خال من الظلم والقهر، فقدنا صديقا تجسدت في سلوكه اروع ايات الوفاء والصدق ونكران الذات والثبات على المبدأ والاستعداد للبذل والعمل الدؤوب بصمت.
في الجانب الشخصي من حياتك كنت متقشفا، زاهدا حد النسك. وفي الجانب العام من حياتك كنت باذخا في عطائك مهما كلفك ذلك من جهد ومشقة وألم.
اغتربت وهاجرت لا بحثا عن متع الدنيا كما هو حال الكثيرين، بل عن فسحة مهما كانت ضئيلة لمواصلة العمل من اجل الهدف الذي نذرت نفسك لتحقيقه.
لقد كنت انسانا!

الذكرى الطيبة لك يا فقيدنا الغالي

د.حسام رشيد

كان الفقيد الغالي د. غانم حمدون من الوجوه البارزة للثقافة التقدمية والوطنية في مدينة الموصل.
ساهم بشكل فاعل في بناء حركتها التقدمية وتنظيماتها الثورية ومؤسساتها الديمقراطية والمدنية كحركة أنصار السلام ونقابة المعلمين، معبرا عن الوجه الديمقراطي والمدني المشرق لمدينة الموصل الذي حاولت مسخه قوى الظلام والتخلف.
بعد إكماله تقديم رسالة الدكتوراه في مدينة (لايبزك) بألمانيا الديمقراطية في السبعينيات من القرن الماضي، انتقل الى بغداد بطاقاته التي اختزنها ليساهم بصورة فعالة على مساحة الوطن كله في بناء الحركة التقدمية، من خلال فكره الثوري والتزامه الحزبي، الذي تبناه، ودوره الفاعل في مجال الصحافة والنشر في مجلة الثقافة الجديدة والصحافة التقدمية الأخرى.
لتكن العناية بما حقق وأنتج سبيلنا لنحفظ ذكراه بما يستحق.
الذكرى الطيبة لك يا فقيدنا الغالي، ولعائلتك ولنا جميعا العزاء.

رحل رفيق الدرب وصديق العمر

دكتور فاروق ناصر حمادي الراوي
أستاذ اللغات القديمة والآثار

ببالغ الحزن والأسى تلقينا خبر رحيل رفيق الدرب وصديق العمر طيب الذكر دكتور غانم حمدون. لقد كان في مسيرته المتميزة مشعلاً أنار الدرب الطويل الذي كان يعززه عبر السنين من عمره المديد. وكما يقال في عالم التاريخ والآداب القديمة وجلجامش هو الذي رأى كل شيء فغنى بذكره يا بلادي. أما بالنسبة لي فلقد كان الملك النور الذي بهاؤه العظمة بخبرته العلمية، وشغفه بالشعر والأدب. نعم، كان العارف بكل شيء.
سنبقي ذكره الطيب ما حيينا ونحمل ذلك المشعل الذي رفعه، مسترشدين بنجمه الساطع في سماء هذا الكون. نفتقده في هذه الظروف الصعبة، لكنه وكسائر من فقدناهم سيبقى المنار المتوهّج.
الصبر لرفاقه وذويه ومحبيه والأصدقاء، وكل المواساة لقيادة الحزب الشيوعي العراقي.

هل يسافر الربيع الى غير عودة؟

باسم مشتاق

هل يسافر الربيع الى غير عودة؟
وهل تجف الأمطار إلى غير رجعة؟
وهل تنقطع الشمس عن تحيتنا كل صباح؟
وهل تكل الأرض فتقرر التوقف عن الدوران؟
بل هل يظل الناس، أكثر الناس، يموتون جياعا وأعين أطفالهم ترمق من حولها مظاهر القصور والسيارات الفارهة؟!
كما للطبيعة قوانينها التي تحفظ وتطور هذا الواقع الطبيعي.
فإن مجتمعنا يظل يعمل بصورة إرادية أو لا إرادية للحفاظ على ما هو موجود بل ويتقدم به الى ما هو غير موجود.
ان هذه العملية المعقدة في المجتمع تتم بفعل قوانين معينة، ولكن عبر الإنسان وبواسطة الانسان!
الإنسان الذي مثل رفيقنا الراحل "غانم".
الذي آمن حتى أعماق نفسه بحقائق العدل والحرية والتقدم ومن أجل ذلك تهون التضحيات بل أهلا بها فهي وحدها: مفاتيح مستقبل زاهر!

تلقيت نبأ وفاة المرحوم الاقتصادي والمناضل غانم حمدون ببالغ الحزن والأسى وانه كان مثال الاقتصادي النشط وإنسانا طيبا وذا اخلاق عالية وداعما لدور الاقتصاديين في بناء الاقتصاد العراقي.

د. فلاح العامري

تعزية منظمة بريطانيا برحيل الرفيق الدكتور غانم حمدون
رفيقنا الدكتور غانم حمدون.. وداعاً

بأسف وحزن عميقين تلقينا نبأ وفاة الشخصية الوطنية والشيوعية البارزة ومربي الأجيال، الرفيق د. غانم حمدون (ابو ثابت)، صباح يوم الجمعة 24 /2 /2017 في لندن، عن عمر يناهز 88 عاماً، إثر التهاب رئوي حاد لم يمهله طويلاً.

وبرحيله عنّا خسرنا مربياً ومثالاً ملهماً، ومناضلاً شيوعياً مقداماً، وأحد أعمدة الثقافة الوطنية العراقية.

لقد عُرف الفقيد بطيبة ورفعة أخلاقه، متميزاً بتكريس كل امكاناته لخدمة الحزب، وبعلاقاته الاجتماعية الواسعة وحبه لحزبه ورفاقه، وإخلاصه اللامتناهي لشعب العراق وكادحيه.

نتقدم باسم رفاق منظمتنا وأصدقائها بأحر التعازي القلبية وخالص المواساة الى كل أفراد عائلته ورفاقه وأصدقائه ومحبيه.

الذكر الطيب لفقيدنا الغالي، والصبر والسلوان لعائلته ورفاقه ومحبيه الكثر.

منظمة الحزب الشيوعي العراقي في بريطانيا
2017/ 2/ 24

رابطة الأكاديميين العراقيين في المملكة المتحدة تنعى الدكتور غانم حمدون

بمزيد من الألم والحزن تنعى رابطة الأكاديميين العراقيين في المملكة المتحدة الاكاديمي الدكتور غانم حمدون، الذي وافاه الأجل فجر يوم الجمعة 24 شباط 2017 عن عمر يناهز 88 عاماً.

أنهى الفقيد دراسته الثانويةٌ – الفرع العلمي في مدينة الموصل عام 1946، تقدم إلى مديريةٌ البعثات في بغداد، فحصل على بعثة دراسية إلى الجامعة الأمريكية في لبنان عام 1947 ، حاز شهادة البكالوريوس في مادة الاقتصاد عام 1953. وعندما عاد إلى بغداد بعد تخرجه لم يحصل على وظيفة في مجال تخصصه، فأضطر إلى العمل مدرسا لمادة اللغة الانكليزية في ثانوية الأعظمية في بغداد.

ونتيجة الظروف الصعبة التي مرّ بها العراق بعد عام 1963، غادر العراق بصعوبة إلى الشام ومنها استقر في بيروت، والتقى بالكثير من المثقفين العراقيين. ساهم في ترجمة أجزاء من رواية "الدون الهادئ" للكاتب الروسي ميخائيل شولوخوف، مع علي الشوك وأمجد حسين ومراجعة غائب طعمة فرمان. وبعدها تمكن من الوصول إلى ألمانيا الديمقراطية، عمل في إذاعة برلين – القسم العربي – وتوفرت له فرصة الدراسة حيث أكمل دراسته العليا في الاقتصاد وحصل على الدكتوراه عام 1968، وعاد لخدمة العراق في بداية سبعينيات القرن الماضي، ولم يتمكن من الحصول على عمل في جامعة بغداد – كلية الادارة والاقتصاد – فاضطر إلى العمل في مركز البحوث النفسية والتربوية في جامعة بغداد، فقدم العديد من البحوث والدراسات في المجال الاكاديمي والتعليمي. وشارك في الكثير من الندوات والسيمنارات الرسمية ممثلاً لمركز البحوث والجامعة. وفي أواخر السبعينيات هاجر إلى اليمن وعمل في جامعة عدن استاذاً، وهناك بدأ ترجمة كتاب "اقتصاديات العمل" من الالمانية الى العربية، وأكمله في الجزائر العاصمة حيث عمل استاذاً في جامعتها. وانتقل إلى التدريس في جامعة قسنطينة، بعدها سافر إلى سورية واستقر في دمشق. كتب العديد من المقالات والترجمات ومراجعة أعمال من ضمنها ترجمة كتاب "الاشتراكية لعصر شكاك" لمؤلفه رالف ميليباند. وتفرغ للعمل الصحفي في تحرير مجلة "الثقافة الجديدة" العراقية، ثم اسندت إليه سكرتارية تحريرها، وواصل مهمته حتى بلوغه السبعين حيث طلب إعفاءه من هذه المهمة، ليكون عضواً في المجلس الاستشاري للمجلة.

كان الفقيد مثالاً للخلق الرفيع، مدرسة في التواضع والعطاء، حاز احترام وتقدير كل من عرفه. تميز بحسن الامانة والاستقامة وحب الناس والوطن. كرس معظم حياته لخدمة العراق في المجالات التعليمية والفكرية والثقافية. كان عضواً نشطاً في نقابة المعلمين وجمعية الاقتصاديين العراقيين ورابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين التي كانت تعمل

في بلدان الشتات. وبعد ان وصل الى محطته الاخيرة بريطانيا عام 1992، شارك في كل المؤتمرات السنوية لرابطة الاكاديميين العراقيين في المملكة المتحدة، منذ تأسيس الرابطة عام 1994.

حقا غيب الموت قامة عراقية اكاديمية تربوية شامخة. رحل عنا وهو يحمل حلمه الكبير بان يكون العراق متطورا في المجالات كافة، في مصاف الدول المتقدمة.

خالص العزاء لعائلة الفقيد وذويه ومعارفه واصدقائه.

للراحل الذكر الطيب والصبر والسلوان لكل محبيه.

رابطة الاكاديميين العراقيين في المملكة المتحدة

عنهم د. سعدي النجار/ رئيس الرابطة

التيار الديمقراطي العراقي في المملكة المتحدة

الأعزاء جميعا

نتوقف اليوم لننعى قامة باسقة من قامات الحركة الوطنية والديمقراطية؛ اذ تلقينا ببالغ الأسى خبر وفاة الشخصية الوطنية والديمقراطية الدكتور غانم حمدون والذي توفي في لندن يوم 24 شباط 2017.

ان حياة الدكتور غانم حمدون ومسيرته الطويلة في العمل الوطني والثقافي حافلة بالمحطات المضيئة ومطبوعة بالحب للوطن والقيم الوطنية والإنسانية. كان الفقيد من أوائل المساندين للتيار الديمقراطي عند تشكيله في 2011 وبالذات اللجنة التنسيقية للتيار في المملكة المتحدة.

نعزي أنفسنا وكل رفاق وأصدقاء ومحبي الراحل العزيز، ولتكن ذكراه الطيبة دافعا للمزيد من الجهود لتحقيق القيم الوطنية والإنسانية التي شغلت فكر وقلب غانم حمدون طيلة حياته.

التيار الديمقراطي العراقي

في المملكة المتحدة

اللجنة التنسيقية للتيار الديمقراطي العراقي في أستراليا

تنعى اللجنة التنسيقية للتيار الديمقراطي العراقي في أستراليا، الشخصية الوطنية والديمقراطية، المناضل الشيوعي الكبير الدكتور غانم حمدون.
الخلود للراحل الدكتور غانم حمدون، الوفي لشعبه الذي حمل همومه، والصبر والسلوان لرفاقه وأصدقائه وعائلته الكبيرة الإنسانية.

اللجنة التنسيقية للتيار الديمقراطي العراقي
في أستراليا

اللجنة التنسيقية للتيار الديمقراطي العراقي في نيوزيلاند

تنعى اللجنة التنسيقية للتيار الديمقراطي العراقي في نيوزيلاند، الشخصية الوطنية والديمقراطية، المناضل الكبير الدكتور غانم حمدون، الذي رحل عنا بتأريخ ٢٠١٧/٢/٢٤ في مكان غربته في لندن عن عمر ناهز ٨٨ عاماً.
لقد كان الفقيد مربي الأجيال، يتميز بدماثة الخلق والوفاء والإخلاص، والزهد في الحياة والتواضع، ومثالاً ونموذجاً لنكران الذات، وكان شخصية معروفة في الوسط الثقافي والسياسي، وناشطاً سياسياً مؤمناً بمبادئه التي تهدف إلى سعادة الشعب والحرية لوطنه العراق.
وكان حريصاً على تقديم الثقافة التقدمية وقد تربت على يديه العديد من الأجيال التي تأثرت به، كان يعمل بنشاط ولكن بصمت لا يتطلع إلى مديح أو أن يميز بشيء، كان نزيهاً ومحباً لرفاقه وأصدقائه، مساعداً لهم في تجاوز الصعاب والمحن.
لقد فقدنا برحيل هذه الشخصية البارزة، قامة من القامات الثقافية العراقية ومناضلاً دؤوباً، مخلصاً إلى آخر يوم من حياته وملتزما بأفكاره.

اللجنة التنسيقية للتيار الديمقراطي العراقي
في نيوزيلاند

وداعاً، د. غانم حمدون

د. حسن عبد الله بدر

وداعاً د. غانم، أبو ثابت. ما أحزنني وأنا أسمع خبر رحيلك، وما أصعب أن يكتب المرء كلمات رثاء بحق إنسان بوزنك. نم قرير العين، فقد خلّفتَ وراءك حصاداً غزيراً ومشرِّفاً من أرقى القيم وأنبلها وأكثرها قرباً من عواطف واهتمامات الكادحين وعموم الناس.

لقد كنتُ قريباً منك طيلة شهور ثمانية متواصلة عام 1979 في بلاد الغربة، في غرفتين متجاورتين في فندق وفي موقع العمل، تعلمتُ فيها منك الكثير الذي تسلحتُ به في باقي عمري وحتى الآن: وحينذاك لم أسمعك تشتكِ أو تتبرم من شيء، ولم يرتفع صوتك على أحد.

وكنتَ أنت بين صحبتنا الخيرة، الراحلين طيبّي الذكر: د. توفيق رشدي، د. محمد محمد الديب (من مصر)، ود. جيلي عبد الرحمن (السودان)، ود. محمد الزعبي (سوريا)، وعلماء ومناضلين آخرين كثر، الإنسانَ المناضل، المتواضع، الكريم، الزاهد، الذي لا يلتفت لغير نداء الحق والحقيقة، كما كانوا هم يقولون ذلك ولا يملّون من ذكره وتكراره.

خسارتك كبيرة ولا تعوض. وداعاً.

عن الراحل الكبير د. غانم حمدون

مصطفى كاظم

كنت بالكاد أفكّ الحروف وأجمعها عندما قرأت اسمه ضمن هيئة تحرير مجلة كانت في البيت اسمها "المثقف". وذات يوم دخل بيتنا الحرس القومي أو "داسه" بالتعبير السائد في بلدتنا الهادئة في عمق الجنوب، فصادر عدد تلك المجلة الوحيد الذي فلت من بين الكتب التي ألقيت في نهر الفرات، في ليلة من ليالي شباط 63 المظلمة. لكن الاسم ظل عالقا ببالي.

رأيته، للمرة الأولى، سريعا في الجزائر، كما رأيت غيره ممن لم التق بهم من قبل. كانت مرة واحدة لم تتكرر هناك، فهو مقيم في العاصمة وأنا في الجنوب، لكن الانطباع عن شخصه المتواضع الهادئ كان مختلفاً.

في دمشق، تعرفت أكثر إلى د. غانم وتعلمت منه الكثير. استقبلني بكل محبة في واحته الغنّاء حيث يشعر المرء بالألفة تحت ظلال "الثقافة الجديدة" وشقيقاتها. وكم بدا سعيداً حين رويت له كيف كنّا – نحن الشبيبة – نعتز بالمجلة ونتداول أعدادها حتى يهترئ ورقها،

في تلك الأيام العجاف، عندما كانت تصدر في أحلك الأزمنة ظلمة، وعليها أسماء كبيرة مثل صفاء الحافظ وصلاح خالص ومن ثم مكرم الطالباني.
في لندن، نهاية المطاف، عرفت د. غانم عن قرب وتعلمت منه أكثر. وما أثار إعجابي جمعه بين اللطف والجدية بثنائية مذهلة التوازن، فهو الإنسان المحب صاحب الملاحظة الثاقبة الذي لا يفوته ما ينبغي أن ينبه عنه.
وطوال معرفتي به وأنا في حيرة كيف أخاطبه مع أن صفاته كثيرة؛ فهو الدكتور، الأستاذ، المربي الجليل، الأخ الكبير، الأب الحنون... إلا أنه لم يكن يحبذ الصفات والألقاب، وأنا لا يطاوعني لساني على مخاطبته باسمه المجرد!
كم كان نبأ رحيل د. غانم حمدون قاسياً على كل من عرفه. له الذكر الطيب أبداً.

تعزية الشاعر المغترب عبد الستار نور علي برحيل د.غانم

الرفاق الأعزاء
أتقدم بخالص التعازي بوفاة المناضل والمفكر الكبير الدكتور غانم حمدون. وإنها لخسارة كبيرة لشخصية وطنية. ناضل بدأب خدمةً للوطن والجماهير الكادحة والثقافة الوطنية والإنسانية النيرة. وسيبقى اسمه لامعاً رمزاً للتضحية ونكران الذات.

عبد الستار نورعلي
1/ 3/ 2017

الثمانيني (88 سنة)
الاستاذ الدكتور غانم حمدون

أ.د. ابراهيم خليل العلاف
استاذ التاريخ الحديث المتمرس - جامعة الموصل - العراق

ورحل المناضل السياسي والكاتب التقدمي والإنسان النبيل والمربي الفاضل.. الرجل الثمانيني (88 سنة) الاستاذ الدكتور غانم حمدون يوم أول أمس 24 شباط – فبراير سنة 2017.

كنت طالبا قبل 50 سنة، وكنتُ عروبيا لكني اعترف بأنني تتلمذت على كتاباته وكتابات غيره من الكتاب اليساريين. كان رئيسا لتحرير مجلة (الثقافة الجديدة) وكنت احرص على اقتنائها وقراءتها حرفا حرفا وسطرا سطرا حتى انني قبل سنوات نشرت مقالة عنها متوفرة في النت، وفي موقع الحوار المتمدن.

تابعته وهو يقضي ايامه الاخيرة في دار المسنين، بعد ان تنازل عن داره لحزبه (الشيوعي).

علمت برحيله وحزنت فهو بعيد عن مدينته الموصل الحبيبة وعراقه العظيم.

توفي في لندن، ومع انه لاقى الكثير من العنت والاضطهاد والنفي، لكنه ظل محافظا على مبادئه الوطنية التقدمية.

كان مكثرا في كتابته وكان يتقن اللغتين الانكليزية والألمانية، فضلا عن لغته الام العربية وكان يحب دراسة الاقتصاد. وقد اكمل دراسة الدكتوراه في (لايبزك) بألمانيا الديمقراطية انذاك وعاد الى العراق ليواصل تأدية رسالته العلمية والتربوية والسياسية، بكل جد وإخلاص وتفان.

ومما قرأته عنه في احدى مقالاته التي يستذكر فيها بعض احداث حياته قوله :"في أواخر 1964 كنت في مدينة (لايبزغ) حيث تعلّمت اللغة الألمانية في معهد مختص بتعليمها، وسمعت عن رفيق لنا في برلين، كنيته أبو عدنان، له قصة فريدة مع الرفيق فهد. فكان طبيعياً ان أتلهّف الى سماع تفاصيلها منه مباشرة.

بعد ستة شهور مرهقة الكثافة، تعلّمت هذه اللغة بمستوى يؤهلني للإلتحاق بكلية الإقتصاد في برلين. وهكذا عدت الى إختصاصي، بعد أن هجرته 13 سنة من نيل البكالوريس في الجامعة الأميركية في بيروت بفرع الإقتصاد، الذي فضّلته تهرّبا من مهنة التعليم التي لا تروق لي. لكن عقد البعثة ألزمني بالعمل في وزارة التربية التي إبتلتني بتدريس اللغة الإنكليزية لتلبية حاجة ثانويات في بغداد الى مدرسي هذه اللغة..."".

كتب عنه رفيقه الاستاذ فخري كريم فقال :"ولادة غانم حمدون في منتصف عشرينيات القرن الماضي، رافقت التمهيد لذلك الحراك الذي أضفى عبر ثمانين سنة نضالية، طابع الديمومة والنشاط المتعدد الجوانب على الحركة الوطنية، واشاع مناخاً من المناعة عليها،

بما أُحيطت به من نهضة في الوعي الجماهيري، والجسارة في التصدي للمهام الكبرى، التي تضع في الأولويات السياسية التحرر من ربقة الاستعمار، والعمل من اجل اطلاق الحريات، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية".

"درّس في عدة جامعات؛ منها جامعتا بغداد والجزائر".

"لا يختلف اثنان في تقييم نبل هذا الإنسان المطبوع على التواضع والخلق الرفيع، والاستعداد لبذل ما يستطيع لإعلاء قيم الحرية والمساواة، وتكريس المبادئ التي تجعل من الإنسان، بغض النظر عن اي توصيف ديني او مذهبي او عرقي مركز الاهتمام الذي تدور حوله، وتخضع له محاور الحياة وخيراتها"، وأضاف "غانم حمدون، صوتٌ من ذلك الزمن الذي كان الواحد فيه، ممّن رأى ان إنسانيته لا تتكامل، إلا اذا اندمج في الكينونة الجمعية، وكرامته لن تصان، إلا اذا صارت جزءاً من كرامة المجتمع، وحريته لن تتفتح إلا اذا جسدت إرادة الآخرين". كما نعاه رئيس الجمهورية الدكتور فؤاد معصوم وقال: "واذ ننظر باعتزاز الى مسيرته المديدة في العمل السياسي والتربوي، وإلى انجازاته القيمة متجسدة في كتاباته التربوية الوطنية خلال فترة هامة من تاريخ العراق المعاصر، ودأبه على نشر وترجمة العديد من النصوص والدراسات النقدية".

له كم كبير من الدراسات والبحوث التربوية والسياسية، ومنها ما كان يقدمه الى مركز البحوث التربوية والنفسية بجامعة بغداد في السبعينيات، وهي كثيرة، وبحاجة الى رصد وجمع ودراسة. واقترح ان ينبري احد طلبة الدراسات العليا لتقديم اطروحة دكتوراه عنه، وعن سيرته ونشاطاته السياسية والتربوية والصحفية.

ظل يُحب العراق ويسعى من أجل استقراره ورفاهيته ووحدته.

لك المجد أيّها الانسان النبيل... (اتحاد كتاب الانترنت العراقيين) يعزي بوفاته، والذكر المستمر له، وما قدمه حياة ثانية له.

الرفيق الحنون غانم حمدون

شعر: أ.د. حسن البياتي

أيها الراحلُ، وهّابَ البنان،
وملاكاً قد تجلى بين آلافِ الرفاق

طاهرَ المهجةِ، معصومَ اللسان
شامخاً فكراً وعلماً عبر آفاق العراق...))

نحو آلافِ القلوبْ،
إيهِ يا شعرُ، أعنّي !

ألتي تشدو بوجدٍ واشتياقٍ وحنانٍ وامتنان:
أ غريبٌ أن أغني:

((طبتَ مأوى، أيها الغالي الحبيبْ !
يا حبيباً غابَ عني،

غابت الشمسُ، ومازال النهارْ
نبَضاتُ القلبِ من بعدكَ فيضٌ من تمنٍّ

مشرقَ الجبهةِ، يا غانمُ، بسّامَ الجِنان
ليتني كنتُ معَكْ !

والدجى، كلُّ الدجى، زاهي الفنارْ...
فانتظرني !

نَمْ هنيئاً بين أحضان الخلود
إنني ألوي الخطى كي أتبعَكْ

وليكنْ مثواكَ للحب مزارْ،
إنتظرني !...

يا جمالاً وجلالاً كلّلا هامَ الوجود

لندن في 25 /02/ 2017

أنا لا أرثيك ياغانم حمدون ...

خلدون جاويد

انا لا ارثيك لو غادرت دنيا من خرابْ فلا قبرٌ لنسمةْ!

انما اكتب فوق الافق اسمَكْ ثق أبا ثابت ما زال الطريق

غانم الحمدون يا أسنى شِهابْ قزحا، عقدا على الأوطان، ناقوساً جميلْ

لست ارثي الياسمينْ سوف نمضي لندق المستحيلْ

فهو في كل النوافذ! وسنشدو باسم بغداد على أحلى رنينْ

لست أبكي النجمَ شباكَ حنينْ انه الناقوسُ لحنُ الانتصارْ

للغد الآتي السعيدْ انه تموز آتٍ بالنهار

لست أبكي وطنا في راحتيكْ لصبايانا، لتاريخٍ جديدٍ، للسلام،

فهو آمالٌ وأحلامٌ وحلوى للصغارْ من ترى غير يديك النابضاتْ

لست أشكو من جراحات ودمعٍ وانكسارْ بتصاميم الحياةْ

فثرى حبك باقٍ تقرع الصنجَ اذا غنى العراق؟

وخطى فكرك مجدٌ وازدهارْ فغدا يرجع بالبسمة أحلى رافدين

لست منهاراً على قبرك بالدمع وغدا شعب العراق

بك، بالأبطال، بالجرح الشهيدْ
لست أرثيك وهل ترثى البراعمْ

سوف يمضي
لا ولا ترثى الغصونْ

للغد الزاهي السعيدْ
والأغاني

لست ارثيك وهل يرثى وليد؟!
والأهلةْ.

وهو في مهد الحياة
وابتسامات العيونْ

قادمٌ يطفو على النهر وفرعون المغادرْ
أنت أطفال العراق القادمونْ.

الدكتور غانم حمدون.. الرفيق والصديق الذي رحل عنّا

وداد عبد الزهرة فاخر

لا أريد أن استشهد بفقدان العزيز الدكتور غانم حمدون، ببيت الشعر الذي انشده عمرو بن معد يكرب الزبيري، وهو من شعراء صدر الإسلام، الذي يقول فيه:

ذَهَبَ الذينَ أُحِبُّهُمْ وبَقِيتُ مَثْلَ السّيْفِ فَرْدا

فالاستسلام للألم، والانسياق مع المصيبة، هي مصيبة أخرى، وإحباط لا حد له، في زمن كثرت فيه المصائب، وندرت فيه السعادة النسبية.

ويوم تعرفت شخصيا إلى الفقيد كنت قد كتبت عن الأديب والروائي ذنون أيوب، بعد أن جرى الحديث عنه وعن تراثه الأدبي، ووجود بعض المخطوطات العائدة له التي لم تنشر والتي كانت، في عهدة أحد اطباء الاسنان العراقيين في العاصمة النمساوية حيث أقيم. وكتبت انذاك وفي العام 1998، وفي جريدة المؤتمر المعارضة التي كانت تصدر في لندن، عن الراحل ذنون أيوب وخاصة روايته "كوجكا" كما كان يطلق هذا الاسم على زوجته اليوغسلافية، أي "القطة"، وعن تراثه الموجود بفيينا.

وبعد أيام من نشر مادتي جاءني اتصال تلفوني من لندن ليقول لي المتصل: أنا الدكتور غانم حمدون، وكنت اعرف أن غانم حمدون كان رئيس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، وكنت اشارك بالكتابة في "ادب وفن" التي يحررها صديقي ورفيقي السابق الشاعر المرحوم مهدي محمد علي، وكنت ايضا مراسل "رسالة العراق" التي كانت تصدر عن حزبنا الشيوعي العراقي في لندن. وجرى بيننا حديث طويل ابتدأه الراحل حمدون بعبارة "هل تعرف ان ذنون أيوب هو خالي؟"، ولأنني لا اعرف هذه الحقيقة فقد رحبت باتصاله، وطلبت منه ان يصحح لي بعض ما ورد من معلومات استقيتها ممن عايشه بفيينا.

هكذا بدأت علاقة الصداقة التي استمرت في ما بيننا بواسطة الهاتف.

وكنت أجد بساطة وأناقة ألفاظ، وأدب جم في كل حديث يجرى بيننا، حيث التواضع ودماثة الخلق، والهدوء في تناول الموضوع.

ويوم كتبت في "المؤتمر" أيضا بعد جدال حول مكان دفن الفقيد ذنون إن كان كما ادعى البعض بمقبرة فيينا المركزية، أو في العراق، كما ادعى البعض الآخر، ثم اخبرني احد الأصدقاء وهو المرحوم وابن البصرة يعقوب ارشاك بان هناك شخصا كان اقرب الناس للراحل ذنون أيوب، وهو الفنان الرسام محمود شاكر، مترجم السفارة العراقية بفيينا سابقا، واتصل به لمواجهتي بغية سؤاله عن مكان دفن ذنون ايوب، فاخبرني بأن هناك

قرارا صدر عن الحكومة العراقية بنقل جثمان المتوفين من العراقيين لأرض الوطن، وكان ذنون أيوب أحد المستفيدين من ذلك القرار، وتم نقله للعراق حيث دفن هناك. وجاءني بعد يومين من ذلك التاريخ اتصال من الفقيد الدكتور غانم يؤكد هذه الحقيقة لننشرها كتصحيح للخبر السابق.

وهكذا تعمقت وتيرة علاقتنا، مع دوام السؤال عن الحال، وأمور الدنيا، والنشر والأدب، وما يحصل داخل الوطن في زمن الدكتاتورية، وما يلاقيه شعبنا جراء تعسفها.

وبعد فترة من الحديث عن تراث ذنون ايوب وما تركه من مخطوطات لم يتم نشرها اتصل بي الفقيد ليخبرني بان نجل ذنون البكر الموجود في روسيا تحدث معه عن أحقية العائلة بما تركه والده من تراث لم يتم نشره، وطلب رأيي بذلك فأيدت ما طرحه ابن خاله ذنون ايوب وأخبرته بأنني سأتفاهم مع صديقي الدكتور والصحفي زهير المخ الذي اخذ ما تبقى من تراث خاله ذنون أيوب، واحتفظ به في بيته في فيننا لكي نعيده لعائلته بموجب الأحقية.

وفعلا اتصلت به بعد موافقة صديقي الدكتور زهير، وجرت بعد ذلك اتصالات بالمعني إليه بيني وبينه وهو نجل الروائي ذنون أيوب، وجاء لفيينا وتسلم ما تبقى من تراث والده.

ويوم توفيت زوجة ذنون أيوب "الكوجكا" في يوغسلافيا، نشرت خبر وفاتها، وأرسلت تعزية بوفاتها للفقيد العزيز الدكتور غانم.

لكن ظلت علاقتي ممتدة مع الفقيد العزيز الصديق والرفيق الدكتور غانم حمدون، الرفيق والإنسان الرائع الذي يفيض أدبا، وحسن خلق، ودعة، ووداعة.

الذكر الطيب للرفيق والصديق العزيز الدكتور غانم حمدون الذي نفقده، وهو العزيز في زمن الجدب، والصبر والسلوان لكل أهله وأحبته، وأصدقائه ومريديه.

نم يا غانم حمدون، لم يعد ثمة من تسهر لأجله

رياض رمزي

"هذا هو العالم يا صديقي/ ألمٌ وعذاب/ والموتى يتفسّخون تحت ساعة المدينة/ والحرب تعبر باكية/ صحبة مليون من الفئران الرمادية/ والأغنياء يهبون عشيقاتهم/ أطفالا متألقين/ الحياة ليست نبيلة ولا خيّرة/ ولا مقدسة كما يزعمون/... لهذا أيها العجوز وايتمان/ لا أرفع الصوت/ ضد الطفل الذي يكتب اسم صبية على مخدته... ولكني أرفع صوتي ضدكم/ يا مخنثي المدينة ذوي اللحم المتورم/ والأفكار القذرة/ يا منجمي الوحل الجشعين/ أيها الأعداء المؤرقون/ المناوئون للحب الذي يمنح أكاليل البهجة/ ضدكم يا من تهبون للصبيان/ قطرات الموت القذر والسم المرير".

لوركا من قصيدة إلى والت وايتمان.

نعم يا غانم انتهى بك المطاف إلى قبر بارد في لندن، راضيا بوحدتك، بعيدا عن رفاقك في البلاء. ليس لك أن تقلق؛ ففي بلادنا لا توجد مدافن لعظماء الأمة.

الموت حدث يستمر قليلا لكن تأثيره يظل طويلا. ما قيمة عمر الفرد إن كان عمر الأرض 4567 مليون سنة؟ فعمر من يقارب التسعين عاما، مقيسا بعمر الأرض، لن يتجاوز كسور الثانية الواحدة. في هذا العمر المديد للأرض غابت مخلوقات وحيوات وحلّت محلها أخرى، حلّت محلها أخرى وأخرى ثم أخرى... حتى الديناصورات التي عاشت حقبة جيولوجية كاملة عاشت، قياسا إلى عمر الأرض، أسبوعين فقط. الكوارث كفعل مطوّر للنوعيات البائدة أنتجت، بعد انقراض ما سبقها، أنواعا جديدة محسّنة. عندما أهلك طوفان نوح الجيل الأول على هذه الأرض، أنتج جيلا جديدا وذكيا قام ببناء حضارات عظيمة. لماذا؟. لأن نوح كان ذكيا وألمعيا احتاط للكارثة فجلب بشرا قام باختيارهم بنفسه، حتى أنه – كما يقال – جلب في قوارير من ثلج حيوانات منوية للتخصيب، إن تعاور النخبة المصطفاة من رجال السفينة هلاك طارئ. لماذا؟. لأن الله ائتمنه على هذه البلاد التي أسرّ نوح للمقربين منه: أن الله قال له أنها خميرة الأمم. وناشدهم بضراعة قائلا إن هذا التكليف الإلهي عبء لا يطاق، فالأرض التي تتحداها كارثة، كزلزال أو فيضان أو احتلال تحتاج إلى سلالات محسنة من البشر تحمي نفسها، فنحن – كما قال نوح – عذيقها المرجّب ولوح خلاصها المجرّب، وكل ما تبقى لها بعد الطوفان. كلام تنقصه الأمانة القول، عندما حطّت الحمامة التي أطلقها

نوح على جبل قريب، أن الدنيا وقتئذ كانت فقط صباحا مشمسا وسماء زرقاء وسكونا يشي بحجم الكارثة. كلا لأن نوح خاطب الإله وهو يشير إلى رجاله "وما هو موقع هؤلاء الرجال؟". كلمات غمرتهم بهبّة من شجاعة وأجابوه كفرقة في كورس "سنتحول إلى شامات تنغرز في أديم هذه الأرض". وضعوا مناديل تحت قبة قمصانهم وبدأوا العمل، غير مدركين أن أسماء أحفاد أحفاد أحفادهم ستوضع في قائمة القتل بعد آلاف من السنين في الثامن من شباط، وأن بلادهم ستتحول إلى عنبر لا يسمع فيه غير أنين جرحى ومهزومين، وعلى رأس البلاد تجار قاموا بذبح طيور الحمام النادر وصنعوا من رياشها وسائد علقوها في بلاد الغرب، مفاخرين بأنهم أزهقوا أرواح جوقات من نسل تلك الحمامة التي أعلنت انتهاء الطوفان وبدء الحياة. قاموا ببناء مساجد وحسينيات منتظرين تعويضات إلهية مضاعفة لقاء ما أنفقوه، لأنهم يعرفون أن لا شيء ينفق بالمجان وفق قوانين دينهم.

أما غانم فقد كان يبشر بإسلام آخر فحواه أن هناك عدالة ربانية مطلقة. وعندما أنتمى إلى اليسار أقتنع أنها تتحقق على يد نخبة مصطفاة من البشر. هكذا باتت همومه: انشغالات فكرية بتكليف قدسي. فالحب –على سبيل المثال – حفظ عهد والتزام، مثل حبيب يثبت ولاءه لمعبوده بالذهاب إلى مزاره كل صباح وعشية. ولأن المزار مقيم فيه فأنه يزيده تضرّما ولا يسمح بعلاقة شهوانية يتراخى تأثيرها عليه عقب الوصال.

هذا هو الفرق بين دينهم ودين غانم. الأولون يحوّلون رغباتهم الخاصة إلى ضرورة، وغانم يجعل الضرورات العامة والوطنية هماً شخصياً. سعادته في تأجيل متعه حتى يأتي الغد الموعود، متمثلا بقول شوقي: "وإذا أخذت العهد أو أعطيته/ فجميع عهدك ذمة ووفاء". هل الرغبات يقين أم متعة؟ إن كانت يقينا فهي عبء، وإن كانت متعة فهي مغْنم. هناك ثلاثة ملايين ونصف يستلمون رواتب كسجناء سياسيين كلهم ينتمون لحزب الدعوة الحاكم، لأن البلاد بالنسبة لهم مثل أسواق الضواحي يتعين الذهاب إليها باكرا للحصول على أفضل السلال. البلاد سوق يعج بذوي الملامح الريفية المسرعين لممارسة البيع والشراء واختطاف أفضل الصفقات.

أين هؤلاء من غانم الذي أهرت آلام البلاد روحه قبل البدن، الذي خسر من وزنه كثيرا ونتأت عظام كتفيه؟ غانم الذي ما أن يلحق سوء بالبلاد حتى تنتصب حواسه مثل حمامة تحذر صويحباتها من كواسر في الجو تلوح من بعيد، وهي تهز رأسها نحو الجهتين أسفا عندما تفترسهم. أليس هذا هو الجنون بحذافيره؟

عاش غانم وقبل بقدره كشيوعي وراح يعيش تبعا له بروح رواقية، مؤمنا بذلك القدر من خلال روماتيكيته وليست حقائقه. كان مغمورا بشعور سابح يناحر الموج والتيار وعينه على تلك الجزيرة التي سيسعد ببلوغها. كان وهو يقاوم الموج يتذكر، كي يبعد التعب عنه، مآثر سبارتاكوس، جان دارك، فهد، سلام عادل...

توصّل غانم مستخدما أيمانه الديني إلى النتيجة الآتية "الشر لا يعزى إلى الله بل لإستغلال البشر للبشر". ضمن هذا

الحيز الذي تركه الله لعباده، قرر أن يستنطق وقائع الحياة مثل ربان سفينة قرر لها أن تلقي مرساتها في ميناء اسمه الحزب الشيوعي العراقي. قام بترجمة رواية الدون الهادئ لشولوخوف مع آخرين، كما ترجم مع آخرين رأس المال لماركس....

ألتقيته في الجزائر حين كان يعمل أستاذا. ثم التقيته مصادفة هنا في لندن في مترو الأنفاق. حينما شاهدني بادرني بالقول: "ابن صاحبي طيب الذكر أبو عصام". كان والدي قد توفي قبل زمن.

عندما سمعتُ بخبر موته رددتُ مع نفسي بيت شعر لوركا وهو يرثي المصارع الذي انتصر على أشجع الثيران، ولكن ثورا واحدا اسمه موت هو الذي صرعه "قفة جير جاهزة/ الباقي موت ولا شيء غير الموت". أقول لك يا غانم يا أبن حمدون "عدْ إلى غمدك فقد مات الذين تحبهم وأصبحت كالسيف فردا". كلا هذا بيت شعر أوردته بتهوّر، لأنك، يا غانم، تشذ عن قانون الموت. فما ينطبق على موتك ما قاله أبو تمام:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر/ فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة/ غداة ثوى إلا أشتهت أنها قبر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى/ ويغمر صرفُ الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفا فأنني/ رأيت الكريم الحر ليس له عمر

ابا ثابت... ارقد بسلام في نومتك الابدية... العزاء لنا نحن من تركتنا ايتاما في زمن الغفلة

في لندن .. تشييع مهيب للرفيق الراحل غانم حمدون

رياض رمزي

شهدت لندن يوم الخميس 2 آذار 2017 تشييعاً مهيباً للرفيق الراحل الدكتور غانم حمدون (ابو ثابت)، الذي توفي يوم 24 شباط الماضي عن عمر يناهز الـ 88 عاماً. وجرى التشييع بحضور حشد كبير من رفاقه وأصدقائه ومحبيه.

وبعد أن ووري جثمان الفقيد الثرى في مقبرة غرينفورد غرب لندن، نثر المشيعون وروداً حمراء على قبره وزينوه بباقات الزهور.

ووضع الرفيق سلم علي عضو اللجنة المركزية للحزب، إكليل ورد باسم قيادة الحزب الشيوعي العراقي. وقال مخاطباً جمهور المشيعين "نودع اليوم بألم وأسى عميقين المناضل الشيوعي الكبير والشخصية الوطنية العراقية البارزة، فقيدنا الغالي (أبا ثابت)، الذي توقف قلبه عن الخفقان فجر يوم الجمعة الماضي، الرابع والعشرين من شباط".

بعدها ألقى بيان المكتب السياسي للحزب الذي نعى الرفيق الراحل، وجاء فيه "طوالَ عمره المديد ظلّ غانم حمدون مثالاً في أخلاقه الشيوعية، وروحه الثورية، وثقافته العميقة، وانجازه الإبداعي وحميمية علاقاته مع الناس، وقدرته على العطاء، وتواضعه وزهده، وتمسكه بالقيم السامية. وقدمت سيرة حياته الغنية بالأحداث والخبر نموذجاً ألهم أجيالاً من المناضلين الشيوعيين ومن المثقفين الثوريين. إن رحيل الرفيقَ غانم حمدون خسارة

فادحة لنا نحن الشيوعيين، ولكل التقدميين والوطنيين، ولقضية شعبنا التي منحها الراحل الغالي كل ما يملك من طاقات ابداعية. غانم حمدون.. لك المجدُ عاطراً بسجاياك.. لك الذكر الطيب على الدوام. مثالك سيظل منيراً يُرشد المناضلين الى الغد الوضاء".

وألقى الدكتور صادق البلادي كلمة باسم مجلة "الثقافة الجديدة" التي كان الدكتور غانم حمدون رئيسا أسبق لهيئة تحريرها. وألقت الأخت فائزة المشاط كلمة فرع رابطة المرأة العراقية. كما قدمت كلمة تعزية من رابطة الأكاديميين العراقيين ألقاها الدكتور سعدي النجار، أعقبتها كلمة الهيئة الادارية للمنتدى العراقي، ألقاها الاستاذ هاشم علي، وكلمة منظمة بريطانيا للحزب الشيوعي العراقي ألقاها الرفيق فاضل محمد، وكلمة المقهى الثقافي العراقي ألقاها الاستاذ فلاح هاشم. كذلك ألقت الرفيقة بشرى برتو كلمة مؤثرة، استذكرت فيها الرفيق الراحل ومآثره وإخلاصه اللامتناهي للحزب ولقضية الشعب والوطن.

وفي الختام، عبّر الرفيق سلم علي عن الشكر والامتنان العميق للمشاعر الصادقة والنبيلة التي عبّر عنها جمهور المشيعين، من رفاق الفقيد د.غانم حمدون وأصدقائه ومحبيه، ومن تجشم منهم عناء السفر من السويد والدنمارك والمانيا لتوديع الرفيق الراحل.

مجلس عزاء في بغداد
بوفاة الرفيق غانم حمدون

طريق الشعب: احتضنت قاعة منتدى "بيتنا الثقافي" في ساحة الاندلس ببغداد، عصر الخميس 2 آذار الجاري، مجلس عزاء بوفاة الفقيد الاكاديمي والمربي الرفيق د. غانم حمدون، أقامته قيادة الحزب الشيوعي العراقي.

وتدفق المعزون على القاعة منذ الساعة الرابعة بعد الظهر، حيث كان في استقبالهم اعضاء قيادة الحزب يتقدمهم سكرتير اللجنة المركزية الرفيق رائد فهمي، كذلك السكرتير السابق الرفيق حميد مجيد موسى.

وحفلت القاعة بالمعزين من الوجوه المعروفة في الاوساط السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعامة الأخرى، الرسمية والشعبية، لا سيما من ممثلي التيار الديمقراطي العراقي والأوساط المدنية الديمقراطية، اضافة الى رفاق الفقيد الراحل وأصدقائه ومحبيه الكثيرين.

وكان بين الشخصيات الرسمية الحاضرة وزير الموارد المائية د. حسن الجنابي.

وضمّخت اجواءَ مجلس العزاء استذكاراتُ الحاضرين للراحل أبي ثابت، وأحاديثهم الجانبية عن علاقاتهم به وذكرياتهم معه، وعما تميز به هو من نبل ولطف وتواضع وثبات وسخاء وغير ذلك من الصفات السامية، وكون رحيله خسارة كبيرة يصعب تعويضها.

جلسة استذكار الراحل غانم حمدون في العاصمة الأردنية عمّان

في مساء الأول من آذار الجاري اجتمع شمل عدد من العراقيين والأردنيين (منهم الأساتذة نصير الجادرجي وهاشم الشبلي وعبدالله الماشطة ود.منير حمارنة) في دار د.حمدي التكمجي، تلبية لدعوته، لعقد جلسة استذكار لرمز باسق من رموز النضال والثقافة والسمو الخلقي، رحل عنا قبل بضعة أيام .

افتتح الجلسة د.التكمجي، فسرد وقائع تعرفه عن بعد أولاً، ثم عن قرب بالراحل في أوائل خمسينيات القرن الماضي في مقر (جمعية المهندسين) ثم (جمعية الخريجين) ثم مجلة (المثقف)، وغيرها. فكانت السمة التي اجتذبته إليه الهدوء والاتزان والتواضع والالتزام المفرط بالتوجهات والتعليمات الحزبية وسموه الثقافي .

ولعل خلقه العالي هو الذي جعل أمجد حسين، المتحدث الثاني، يستجيب لدعوته (وهما مدرسان في ثانوية الأعظمية للبنين في 1956 – 1957) للقاء مجموعة من أصدقاء الفقيد أبدت رغبتها في التعرف إلى كاتب عمود "ينابيع الأحرف الزرقاء" الأسبوعي في جريدة (البلاد). فإذا بالمجموعة تضم نخبة من خيرة مثقفي العراق يومذاك، تلتقي مرة في الشهر لسماع الموسيقى الكلاسيكية (من جهاز الحاكي) ومناقشة شؤون ثقافية، منهم علي الشوك ود.نوري السعدي وخالد السلام وجميل لويس وطبعاً، غانم حمدون. وبعد عودته – أي أمجد حسين – من الدراسة العليا في أمريكا، ضمته المجموعة الى هيئة تحرير (المثقف)، وكانت أفضل مجلة ثقافية عراقية بعد 14 تموز 1958. كما شارك أمجد حسين غانماً (وخيرة الأساتذة والمعلمين) في (القائمة المهنية) التي نجحت في انتخابات نقابة المعلمين لدورتين متتاليتين. وفي أوائل الستينيات شرع ثلاثي (علي الشوك وأمجد حسين وغانم حمدون) بترجمة الرواية العملاقة (الدون الهادئ) للروائي السوفييتي (ميخائيل شولوخوف) التي حاز بها جائزة (نوبل) للأدب في 1965. وما إن أكملوا ترجمة الجزء الثالث حتى وقع انقلاب 8 شباط 1963 الدموي، فكان نصيب أمجد وعلي الاعتقال ثم الفصل من الوظيفة في حين تمكن غانم من الهرب بمشقة بالغة الى خارج العراق عن طريق (الموصل) مدينته الأصلية. ونظراً لتشتت ثلاثي (الدون الهادئ) فقد كلف غانم وعلي أمجد بترجمة الجزء الرابع لوحده. وبالفعل تم ذلك وظهرت الطبعة الأولى في بيروت ثم توالت الطبعات ومنها طبعة (دار المدى للثقافة والنشر) في 1998. واستمر أمجد حسين في سرده الحافل بمعاني الصداقة والوفاء والالتزام والتقشف التي وسمت الفقيد طيلة حياته حتى غيبه الردى... غيب جسمه ولن يغيب ذكراه الحافلة بكل سمات الملائكة... ولهذا أطلق المتحدث عليه اسم (الملاك).

ثم جاء دور الأستاذ نجيب محي الدين

(نقيب المعلمين في أول نقابة للمعلمين في تاريخ العراق، علاوة على كونه من أبرز الشخصيات الديمقراطية في العراق)، فسرد نضال المدرسين والمعلمين (ومنهم الراحل غانم والشهيدان د. صفاء الحافظ و متي الشيخ) لتشكيل (نقابة) بدلاً من (جمعية) للمعلمين، ونجاحهم في ذلك، وركز على سلوك الراحل غانم المثالي في النقابة وخارجها، بل حتى في علاقاته الاجتماعية الزاخرة بالنبل والتواضع والعفة .

وكانت مساهمة السيدة خولة السعدي (أرملة الراحل فتاح حمدون) حافلة بما يدمي القلب ويسره في آن واحد، وهي تروي وقائع من سلوكه المثالي معها وكرمه في تخصيص جزء كبير مما ورثه لها بعد أن غدت أرملة، علاوة على حرصه على مكالمتها من لندن يومياً للاطمئنان على أوضاعها بعد الترمل رغم ما كان يعانيه هو من شتى المشاكل الصحية .

ثم تلا خالص محي الدين ما كتبه الرفيق باسم مشتاق من القاهرة في رثاء الفقيد من كلمات نابعة من القلب والعقل معاً.

ثم قرأ أمجد حسين فقرات من الكلمة الرائعة التي دبجتها يراع الأستاذ فخري كريم ونشرها في (المدى) في 25 شباط 2017، وهي مقالة تتميز بسمتين: كونها نتاج عشرة جمعتهما في ديار الغربة (علاوة على معرفته السابقة به في العراق)، وثانيهما النظرة (المجهرية) التي قيم بها فخري كريم سمات غانم حمدون، ومنها قيام غانم بتسليمه "رسالة" هي عبارة عن "وصية لتسليم حزبه رصيده الذي أدخره طوال سنوات العمر". وهذا ما جرى .

ثم تحدثت د.سلوى زكو فركزت على عملهما معاً في جريدة (طريق الشعب) وبالأخص على هدوئه واتزانه وسعة صدره .

ثم جاء دور د. منير حمارنة (سكرتير الحزب الشيوعي الأردني السابق) فسرد قصة لقائه به في (أثينا) في مؤتمر الأحزاب الشيوعية، وأعرب عن اعجابه بشخصيته المتميزة بالمنطق والذكاء والهدوء... وهي مزايا يفتقر إليها الكثيرون من سياسيي ومثقفي هذا الزمان .

كما لم يبخل أي من الحاضرين والحاضرات في الإسهام بذكر تقييمهم لمزايا الملاك غانم حمدون.

مقـــــالات

الميّزات الحيوية
Biometrics

أ.د. خالد سعيد

الاستاذ الدكتور خالد سعيد حاصل على بكالوريوس في الهندسة الكهربائية والالكترونية من جامعة بغداد عام 1976، ثم على درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة فروتسواف التكنولوجية في بولندا عام 1978 و1981 على التوالي. في عام 2007 حصل الاستاذ سعيد على درجة الهابيل DSc في علوم الحاسوب من اكاديمية العلوم البولندية. وفي عام 2014 حصل على لقب بوفسور Professor Title. نشر الاستاذ د.خالد سعيد اكثر من 220 بحثا في المجلات والمؤتمرات العلمية، وألّف 29 كتابا ومرجعا. كما اشرف على اكثر من 130 رسالة ماجستير و12 اطروحة دكتوراه. قدم أكثر من 40 محاضرة في مؤتمرات علمية مختلفة وجامعات متعددة في اوربا والصين والهند وكوريا الجنوبية واليابان، حول أعماله ونتائج أبحاثه حول الميّزات الحيوية وتحليل ومعالجة الصور. تسلم المؤلف أكثر من 20 جائزة اكاديمية.

أولا: مقدمة Introdction

تعود عبارة الميّزات الحيوية biometrics الى مصطلح مشتق من كلمات يونانية bios الحياة/ الحيوية و metricos قياس، أي قياس الحياة أو القياسات الحيوية.

والميّزات الحيوية biometrics هي تقنية دراسة الميّزات الحيوية لدى الانسان للوصول لسمات فريدة تميّز البشر عن بعضها البعض بهدف تحديد هوية الشخص وتمييزها آلياً. تتم دراسة هذه الميّزات من وجهتيْ نظر مختلفتين؛ الأولى Physiological والثانية Behavioral السلوكية. الميّزات البشرية التي نالت الاهتمام والدراسة من قبل الباحثين في هذا الاتجاه هي بصمات الأصابع والوجه مع الاهتمام بهندسة الاصبع واليد والوجه 3D والعين (الشبكية والقزحية) وكذلك الاذن والتوقيع وخط اليد، آخذين بنظر الاعتبار دراسة أسلوب الكتابة. كما عملوا على دراسة الصوت وأسلوب الكلام مضافا الى ذلك المشي وحاسة الشم والحمض النووي DNA. تعتمد تقنية التعرف إلى الميّزات الحيوية على وجود قواعد البيانات وحساس الإشارة والمطابقة واتخاذ القرار.

تم استخدام الميّزات الحيوية في الحماية وأمن قواعد البيانات في التجارة الالكترونية

وشركات الطيران والبنوك وفي نظم مراقبة الدخول والدوام في معظم الشركات وفي إدارة السجلات الطبية والعمل الطبي وكشف الجريمة وفي حماية الممتلكات وفي تطبيقات الحكومة كالرخص والضمان الاجتماعي وأنظمة الدفاع والأمن القومي والجيش.

ثانيا: تاريخ الميزات الحيوية Biometrics history

تعود فكرة التعرف إلى الهوية الشخصية، الى الفترة الزمنية 1885 – 1913 قبل الميلاد لبلاد الرافدين Mesopotamia، حيث شوُهدت بصمات الابهام Thumbprints على الفخار البابلي Babylonian clay، الأجهزة اللوحية tablets، الاختام seals، والفخار potter، وتميزت بتوقيعها على اللوح الطيني باستخدام بصمات اصابعها عند كتابة العقود التجارية والمعاملات القانونية كنوع من الحماية ضد التزوير.
أما انتشارها بشكل واضح في عصرنا، فقد بدأت في القرن التاسع عشر (بصمات الأصابع في الهند من قبل البريطانيين الذين حكموهم آنذاك). ومع نهاية القرن التاسع عشر عُرفت أنواع للمّيزات الحيوية والتي تم استخدامها في بريطانيا بهدف كشف الجريمة. عُرف هذا النوع من خلال أبحاث Francis Galton ودراسته لأنماط مميزة من بصمات الأصابع البشرية المنشورة في كتابه "بصمات الأصابع Finger Prints ". اعُتبرت التفاصيل التي وضعها Ga-ton أساساً لما يسمى اليوم " minutiae ".
ومع نهاية القرن العشرين تركز الاهتمام بإيجاد تطبيقات للميّزات الحيوية في مجال الصناعة. ومن ثم اُستخدمت بنجاح في المساعدات الرقمية الشخصية personal digital assistants والحواسيب الشخصية laptops، والموبايلات mobile phones.

ثالثا: رؤية المؤلف Author's Scope

ضمن هذا الاطار، أجرينا العديد من الدراسات حول المميّزات الحيوية لدى الانسان كالوجه والقزحية والبصمة، بالإضافة الى دراسة إشارة تخطيط القلب ECG وصور الاشعة السينية X-ray .
وفي الآونة الأخيرة طرح موضوع دراسة اهليل الظفر (والذي هو عبارة عن المساحة البيضاء المتموضعة في اسفل ظفر الاصبع منه) كبصمة مميزة للإنسان لا تتشابه مع انسان آخر.
وقد لوحظ وجود بعض الأخطاء تتعلق بدقة النتائج التي يمكن الحصول عليها من استخدام التقنيات الموضوعة للتعرف إلى هذه المميزات، عند استخدامها في المجال الأمني والقضائي والطب الشرعي، وفي المطارات ما دعت الحاجة الى استمرار التدخل البشري للوصول الى القرار النهائي في التعرف والتمييز.
أؤكد انه "ليس هناك نظام يمكنه التعرف الى البشر في كل الحالات الممكنة وفي كل الظروف الممكنة مهما بلغ معدل نجاحها وبشكل خاص في الظروف الحرجة". حتى ان تقنيات التعرف في الزمن الحقيقي بالرغم من اعتمادها على مستلزمات محددة للعمل، إلا انها تفشل في التعرف مرات عديدة لكونها تعمل تحت قيود محددة. وبالتالي من الصعب استخدام تقنيات المميزات الحيوية بمعزل عن تدخل الإنسان، ويعود السبب في ذلك لمجموعة من العوامل وهي:
1 – تتعرض البيانات المُمثلة للمميّزة الحيوية للإنسان، الى التغير عبر الزمن عند

الكثير من الناس وبالتالي لن تحدث المطابقة عند تزويد نظام التعرف المصمم بالبيانات الجديدة وكمثال على ذلك تغير وجوه البشر مع التقدم بالعمر.

2 – تتأثر حساسات الكاميرا بتغير الظروف المحيطة لالتقاط الصورة، وبالتالي لن تحدث المطابقة لتغير نوعية البيانات المزودة لنظام التعرف بسبب العوامل الخارجية (أي لا توجد ظروف مثالية دائمة لالتقاط الصورة).

3 – بالرغم من اعتبار بصمات أصابع الانسان فريدة، إلا ان هذه البصمات تتغير عند تعرضها للمواد الكيماوية أو تعرضها للعمليات الجراحية أو المعالجة الطبية، وبالتالي لن تحدث المطابقة عند تزويد نظام التعرف بالبيانات الجديدة الممثلة لبصمة الاصبع.

4 – إمكانية التلاعب والاحتيال على تقنيات التعرف Spoofing.

5 – إن تقنيات التعرف الى المميّزات الحيوية من ناحية السلوك Behavioral biometrics تكون صعبة الاختراق او التعرض للتلاعب، إلا انها من ناحية اخرى ضعيفة الأداء ومنخفضة الدقة، بسبب انخفاض درجة التكرار Repeatability. يخص ذلك بالتحديد المشي Gait وأسلوب الكتابة والنطق.

6 – وجود العديد من البشر الذين لا يقبلون استخدام هذا النوع من التقنيات بسبب عدم الاقتناع بها، أو من ناحية دينية أو لاعتبارات او مخاوف أمنية Security Concerns.

ان دمج بيانات المميّزات الحيوية المبنية الفسيولوجية physiological - based biometric مع السلوكية behavioral يمكن ان يساعد في الوصول لنظام متكامل متميز بمزايا كلا النوعين، مع إمكانية إنجاز المطلوب بمعدل عالٍ من النجاح مع التغلب على مسألة التلاعب بمثل هذا النوع من الأنظمة تسمى Fusion System .

ونعود لنؤكد ان هناك مميّزات هامة وجديرة بالدراسة مثل:

1 – اهليل ظفر الاصبع بشكله القمري والذي يملك نمطاً مميزاً في الشكل وتوزيعاً غريباً في بنيته تجعل منه سمة هامة لا يمكن ان تتكرر من انسان لآخر وجديرة بالدراسة للوصول لنظام متكامل في التعرف، وللعلم فان الأهليل قد يكون غير مرئي في بعض الاظافر ولكنه موجود تحت الجلد في nail bed.

2 – المُميّزات غير المرئية بالعين المجردة والتي يتم تحصيلها من إشارة تخطيط القلب والتي تعطي خصائص فريدة تختلف من شخص لآخر.

3 – المميّزات غير المرئية بالعين المجردة والتي يتم تحصيلها من صورة اشعة X تعتبر مفردات فريدة، لا يمكن تكرارها من صورة شخص لآخر ولذلك تعتبر اتجاهاً واعداً جداً.

رابعا: الخاتمة Conclusion

وفي النهاية نحن نسعى لنظام ناجح، يعمل تحت شروط مختلفة، وبأقل قيود ممكنة او بدونها على الاطلاق. والسؤال هل سنملك مثل هذه الأنظمة في المستقبل القريب؟ من يدري!...

ان ذلك يعتمد على إيجاد حل جيد للمشاكل التي ذكرتها أعلاه ومن أهمها تغيير طريقة تعاطي البشر مع تقنيات التعرف الى المميّزات الحيوية واستخدامهم اليومي لها، والتي تتطلب تذكر كلمات السر او الأكواد

PINs واستبدالها بتعريف انفسهم بطريقة آلية عبر احدى مميّزاتهم الفريدة. ان هذه المميّزات الحيوية وُجدت لتكون موجودة ومتطورة عبر الزمن بهدف إفادة البشر. ولهذا يجب العمل على تعزيز المميّزات الموجودة والمتناولة حالياً (الأكثر انتشاراً عموماً هي بصمات الأصابع، القزحية والوجه) وكذلك العمل على البحث عن مميّزات حيوية جديدة كإهليل اصبع الظفر والمميّزات الحيوية الطبية كإشارة تخطيط القلب وأشعة X لتدعم فكرة الوصول لنظام متكامل.

تُرجمت المادة الى العربية بمساعدة د. ماجدة البكور من جامعة دمشق – سوريا.

Further Readings

1) Saeed K. (2016) Biometrics and Human Care. Amity University، Kolkata، India.
(Invited Lecture)

2) Saeed K. (2016) Behaviometrics: A Solution to Biometrics Spoofing Problems. 20th International Conference on Advanced Computer Systems – ACS-AIBITS، Miedzyzdroje، Poland. (Keynote Lecture)

3) Saeed K. (2012) Biometrics and Human Care – The Impact on Education. IEEE Education Society Germany Chapter، VDE، Frankfurt، 20.01.2012.
(Invited Lecture)

4) Saeed K.، Nagashima T. (2012) Biometrics and Kansei Engineering. Springer، NY.

5) Saeed K. (2011) Biometrics in People Automatic Authentication. ISIS – International Symposium on Advanced Intelligent Systems، Suwon، Sep. 30-Oct. 1. South Korea. (Keynote Lecture)

6) Saeed K. (2011) A Note on Problems with Biometrics Methodologies. IEEE-ICBAKE 2011 International Conference on Biometrics and Kansei Engineering، Takamatsu City، Kagawa، Japan، Sept. 19-22. (Keynote Lecture)

مفهوم "الانسان الكامل" لدى ماركس

د.ثامر الصفار

باحث ايكولوجي، صدر له مؤخرا كتاب الماركسية والايكولوجيا: المفهوم المادي عن الطبيعة والتاريخ، دار الرواد المزدهرة، 2016.

او اذا شئنا الدقة: الحلم بالانسان الكامل؛ كلمات ثلاث كانت دافعا لماركس كي يكرس سنوات عمره لتحقيقه؛ الحلم بكائن بشري متكامل – اساس الانسانية المتكاملة – حيث تتحقق الانسانية الكامنة داخل كل فرد. هذه الامكانية الداخلية للبشر، كانت تعدل في عيون ماركس، تطور الحرية الانسانية، ولتحقيقها ينبغي تجاوز حالة اغتراب الناس عن بعضهم البعض وعن انفسهم. ينبغي تحرير الانسانية من الجري وراء الغايات الاقتصادية الضيقة والانفتاح على عوالم اخرى للخلق والابداع.

مرّ فكر ماركس بالعديد من المراحل في مسار حياته، بيد ان الموضوع الذي مثل نقطة البداية بالنسبة له لم يتغير مطلقا: امكانية الانسان الكامل.

فمنذ انطلاق نفير الثورة الصناعية ونمط الانتاج الرأسمالي مع بداية القرن التاسع عشر، غدت عملية تهشيم الانسان عبر تقسيم العمل، المكننة، الاستغلال، والتجارة، هي الممارسة الاوروبية الاساسية. وغدا التوق لوحدة الانسان مع نفسه، ومع جنسه، ومع الطبيعة، بعد اغترابه عنها جميعا، هاجسا مشتركا بين محبي المشاعر والافكار الانسانية.

رومانسيو القرن التاسع عشر اعلنوا رفضهم لعالم حوّل كل شيء الى بضاعة، وأحط من قيمة الانسان الى مجرد شيء، وأكدوا أن الانسان غدا شظية من نفسه، مقهورا بواسطة عمله هو، مبتعدا عن ذاته.

وتحول عصر التطور السريع للتكنولوجيا والصناعة، الى عصر الروح الجشعة والتجارة للرأسمالي، وتعاسة البروليتاري، عصر للآمال الثورية وخيبتها في واقع ما بعد الثورات، عصر الاحتجاجات الرومانسية ضد البورجوازية الراضية عن نفسها. فاشترك فيها الارستقراطي والعامي؛ ودان كلاهما الحط من قيمة الانسان من خلال تقسيم العمل الجائر الذي كان من نتائجه الحادة زيادة ثروة أحد قطبي المجتمع وزيادة بؤس وتعاسة القطب الاخر ماديا ومعنويا. ومع مرور الزمن، انقسمت الحركة الرومانسية الى قسمين؛ نظر الأول منهما الى الماضي باعتباره زمنا لوحدة وكرامة الانسان ودعوا الى العودة إليه؛ ونظر القسم الثاني الى المستقبل حالمين بظهور جديد

للانسان الكامل في عالم قادم تسوده الحرية والوفرة والانسانية.
قامت الثورات السياسية في اميركا وفرنسا، ونادت بحق الانسان بالحرية – "الشخصية الحرة". وكان التناقض بين هذه الادعاءات وبين الواقع الذي تلاها مؤلما للكثيرين. اجل، اصبح الانسان في المجتمع البورجوازي فردا – لا يشترك مع الآخرين من المجتمع، بل هو في منافسة شرسة معهم. يكتب ماركس الشاب في "حول المسألة اليهودية":
"لم تتأسس الحرية باعتبارها حقا للانسان على العلاقات بين انسان وآخر، بل على انعزال انسان عن آخر". "ليس ثمة، اذن اي حق مما يسمى حقوق الانسان يتخطى الانسان الاناني، الانسان كعضو في المجتمع المدني، فرد منعزل عن المجموع، منطويا على ذاته، مشغول كليا بمصالحه الخاصة ونزواته الشخصية".
القضية إذن، تتمثل في كيفية إبعاد الانسان، المختزل لفردانية فارغة، عن المصالح والنزوات الخاصة، وفي توحيده كفرد مع المجموع اعتمادا على حرية الجميع بدلا من هيمنة القلة.
في دفاتر ملاحظاته التي كتبها استعدادا لاطروحة الدكتوراه في جامعة برلين، وكان لا يزال في الحادي والعشرين من عمره، لا نجد أية اشارة، من قبل ماركس، حول الصراع الطبقي، أو البروليتاريا والثورة، او عن "عالم الحرية" في مجتمع خال من الطبقات ومن الحكام. لكننا نجد مع ذلك، في الدفتر السادس، الجملة التالية حول الذاتانية، اي المذهب الفلسفي الذي يقيم كل المعرفة على الخبرة الذاتية:
"وهكذا، عندما تغيب الشمس العامة، تبدأ الحشرات بالبحث عن ضوء المصباح الخاص!".

وقبل ذلك في الدفتر الثالث:
"الذي لا يجد متعة في انشاء كل العالم بقواه، في ان يكون خالقا للعالم بدلا من الدوران الى الابد داخل جلده، ستحل عليه لعنة الروح".
وأخيرا في الدفتر السابع:
"على الاقل يحق لنا ان نفترض، اعتمادا على قوة السلطة وحسن النية، ان الفلسفة هي فلسفة، حتى لو كانت السلطة هي سلطة امة باكملها، وحسن النية والايمان قائم منذ قرون".
ان التزام الفرد بهدف عام هو ما كان يمثل بالنسبة لماركس "الشمس العامة"، مشاركة الفرد في قضية عامة، حقيقة ان افعاله وافكاره يمكن لها ان تتجاوز المصلحة الخاصة. لقد رفض ماركس فكرة "الدوران الى الابد داخل جلده"، واراد ان يكون "خالقا للعالم"، اراد ان يصنع عالمه فكريا، وان يساهم في الاخير في عملية تحويله ماديا. ان الرغبة في فجر اجتماعي جديد، في شمس "عامة" تجعل من ضوء المصباح الخاص باهتا، هي رغبة صحيحة لا تقبل الخطأ. ولكن بنفس القدر من المساواة، ثمة حماسة وفورة العقل النقاد غير المستعد لقبول السلطة والايمان كبرهان على حقيقة أية فلسفة، أو عقيدة، او نظام. ان ماركس وهو في الحادي والعشرين من عمره كان تواقا للسير صوب عالم جديد – اي انه لم يكن مستعدا للتخلي عن حقه في اخضاع كل ما هو كائن او ما سيكون للمعاينة النقدية.
في برلين، عندما كان ماركس يدرس القانون والفلسفة والتاريخ، كانت الروح السائدة هي الهيغيلية التي جذبت لها الكثير من الباحثين والمفكرين الشباب. لقد رأى هيغل، في مؤلفاته الفلسفية الضخمة، التي كانت، في ذات الوقت، نقطة الذروة ونفي للرومانسية،

روح العالم وهي تجتاز اشكالا متعاقبة من الاغتراب في تاريخ العالم – من السقوط بعيدا عن الذات – وايضا العودة الى الذات، المصالحة، وهكذا، التقدم من وحدة لا واعية مع الذات الى وحدة واعية. وكانت صعوبة الفلسفة الهيغيلية بمثابة تجسيد لحيوية التناقضات والاختلافات السائدة في عصره – فكرة التطور، الحلم بعالم الحرية والوفرة، الواقع الذي يصبح واعيا لذاته.

في بداية الأمر كان ماركس الشاب رافضا لهيغل، لكنه سرعان ما انجذب اليه والى ديالكتيكه – التناقض الداخلي ضمن طبيعة الفكر وكل الاشياء، ادراك ان لا شيء يمكن فهمه بشكل معزول، أو كتسلسل خطي للسبب والنتيجة، بل يتوجب فهمه كتفاعل متعدد المستويات لكل العوامل وباعتبارها في صراع مع نفسه: اي ان كل شيء، وهو ينبثق الى الوجود، ينتج نقيضه او نفيه ويميل الى السير نحو نفي النفي. إلا ان ماركس تخطى هيغل في الخلاصات التي توصل لها.

كمحرر في الجريدة الليبرالية Rheinische Zeitung من عام 1842 حتى عام 1843، اصبح ماركس، بافكاره الراديكالية الديمقراطية شوكة مغروزة في جسد المانيا خلال 1840ت*، وكان عليه الانتقال الى باريس. في عام 1844 كتب في "مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل"، واصفا ومنتقدا الظروف في المانيا التي اضطر بسببها للانتقال الى فرنسا:

"اجل، ان التاريخ الالماني يتفاخر بتطور لم يقم به أي شعب من قبل، ولن يعمد أي شعب الى تقليده في ميدان التاريخ. لقد شاركنا في تراجع الشعوب المعاصرة دون ان نشارك في ثوراتها. لقد تراجعنا أولا لأن الشعوب الأخرى تجرأت على القيام بالثورات وثانيا لان الشعوب الأخرى عانت من الثورات المضادة؛ في الحالة الاولى لأن اسيادنا كانوا خائفين وفي الحالة الثانية لانهم لم يكونوا خائفين. وبقيادة رعاتنا، حظينا مرة واحدة بصحبة الحرية وكان ذلك يوم دفنها".

في باريس التقى ماركس بالشاب (فردريك انجلز)، ابن صاحب مصنع من منطقة راينلاند، ثم انتقل للعمل في لندن. ولم يكتسب منه المعرفة بالظروف الاجتماعية السائدة في البلد الاكثر تطورا من الناحية الصناعية في ذلك الوقت وحسب، بل اكتسب صداقة لم يشهد التاريخ مثلها إلا القليل. ومن خلال سنوات العمل المشترك بينهما ادرك انجلز عبقرية صديقه ذي المراس الصعب احيانا، فجند نفسه لمساعدته في القضايا الفكرية والعلمية والسياسية وفي حياته الخاصة ايضا.

في باريس ايضا عرف ماركس البروليتاريا؛ إذ رأى صورة البروليتاري البائسة وهي تمثل حالة من نزع الصفة الانسانية عن الانسان، وتطرف في كل ما اعتبره الرومانسيون نفيا وسخرية من طبيعة الانسان. وللدقة نقول بان ماركس رأى في هذا النفي المتطرف املا في التغلب عليه. لقد آمن بان البروليتاريا كانت مجبرة بسبب فقرها وبؤسها على تحرير نفسها من الظروف اللاانسانية من خلال قلب هذه الظروف من الأساس، وانها بتحرير نفسها ستغدو محررة للانسانية.

في المقطع التالي، المخطوطات الاقتصادية والفلسفية 1844، نجد ثمة انفعالا غير عادي في الاسلوب الذي يصف به ماركس حالة نفي الانسان المتمثل بشخصية البروليتاري في ذلك الزمن:

"من المؤكد ان العمل يصنع المعجزات

للغني، لكنه يولد العوز والفاقة للعامل، يبني القصور للغني والاكواخ للعامل. يخلق الجمال للغني والتشويه للعامل. انه يستبدل العمل بالآلات، لكنه يلقي ببعض العمال الى حالة من العمل الهمجي ويحول الاخرين الى مكائن. انه ينتج الذكاء، لكنه ينتج ايضا الجهل والقماءة للعمال".

وإن البروليتاري لا يفي نفسه في عمله بل ينفيها، "لديه شعور بالتعاسة بدلا من السعادة، لا يطور بحرية طاقاته الذهنية والجسدية بل هو مجهد جسديا ومستنفد ذهنيا. لهذا لا يشعر العامل بانه في البيت الا في اوقات راحته، ويشعر بالتشرد عندما يكون في العمل".

كان ماركس بارعا في تعليقاته الحادة، لكن الكثير من سجلات الاحداث في زمانه كانت تثبت بانه لم يكن يبالغ عند حديثه عن تعاسة البروليتاري. الهيغليون الشباب، تلامذة الفيلسوف العظيم، تبنوا فكرة الالحاد ظنا منهم بانها الطريقة التي يتم من خلالها اعادة الروح من عالم الغيب الى العالم الحقيقي. اما ماركس فقد تبنى نظرة اعمق.

كان نقد الدين بالنسبة له "مقدمة لكل نقد آخر"، لكنه كان واعيا للحاجة الى التحرر من الروابط المادية والروحية معا، ورأى الدين باعتباره "تعبير عن التعاسة الحقيقية" وهو ايضا "احتجاج ضد التعاسة الحقيقية".

"ان الدين انما هو زفرة المخلوق المضطهد، رقة عالم لا قلب له، وروح ظروف عديمة الروح. الدين هو افيون الشعب" (مخطوطات 1844).

وكالعادة لم يع الكثير من الناس ما الذي عناه ماركس في قولته هذه: فجرى لوي القول واختصاره ليكون ان الدين افيون الشعب، مخدر يعطى الى الناس من قوى خارجية، ويجري طبعا اغفال ما قاله عن الالحاد:

"والإلحاد كإنكار لهذا الوهم او الخيال (وهم الانسان والطبيعة) لم يعد له معنى، لأن الإلحاد هو نفي الله، وهو يسعى من خلال هذا النفي الى تأكيد وجود الانسان. لكن الاشتراكية ليست بحاجة إلى مثل هذه الطريقة الملتوية؛ إنها تبدأ من الادراك الحسي النظري والعملي للانسان والطبيعة باعتبارها كائنات اساسية. انها وعي ذاتي انساني مؤكد وليس وعيا ذاتيا يحضر من خلال نفي الدين؛ مثلما ان الحياة الحقيقية للانسان هي مؤكدة ولا تحضر من خلال نفي الملكية الخاصة، من خلال الشيوعية.... ان الشيوعية هي الشكل الضروري والمبدأ الديناميكي للمستقبل القريب، لكنها ليست، بحد ذاتها، هدفا للتطور الانساني، او شكلا للمجتمع الانساني". مخطوطات 1844.

يتضح هنا، ان الدين والالحاد والشيوعية لم تكن بالنسبة لماركس سوى مراحل او سمات تطور، اي انها لم تكن اهدافا. فالهدف هو انسانية مؤكدة، الحياة الحقيقية للانسان. وكان واقع حال البروليتاريا يمثل تناقضا صارخا لمثل هذه الحياة؛ لكن "الواقع الممزق للصناعة" لم يُظهر نفسه في البروليتاريا فقط. فقد اكد التحليل العلمي للصناعة الرأسمالية، مرارا وتكرارا، حقيقة انفصال المتعة عن العمل، والوسائل عن الغايات، والجهد عن المكافأة. وبأن البروليتاريا كانت فقط التعبير الاكثر فظاظة لهذا التشظي، والانفصال، لعالم المكائن والارباح والفقر. وكلما غدا النفي أكثر وضوحا وعلانية، كلما اتضح اكثر الشيء الذي يجري نفيه: الصورة غير الحقيقية للانسان.

ان نقطة انطلاق الدين هي الله، ونقطة انطلاق هيغل هي الدولة، وهي الانسان بالنسبة لماركس. يكتب ماركس في نقد عقيدة هيغل عن الدولة:

"ينطلق هيغل من الدولة ويتصور الانسان كدولة متشيئة؛ وتنطلق الديمقراطية من الانسان وتتصور الدولة انسانا متموضعا...".
"في الديمقراطية، لا يوجد الانسان من اجل القانون، بل يوجد القانون من اجل الانسان؛ انه الوجود الانساني، في حين ان الانسان بالنسبة للانظمة السياسية الاخرى هو الوجود القانوني، هذه هي السمة الاساسية المميزة للديمقراطية".
لم يكن الامر الحاسم بالنسبة لماركس قيام نظام "شامل"، يمثل النهاية بحد ذاته، بل الانسان – الملموس، الحقيقي. ان موضوع تفكيره وكل جهوده هو قيام الانسان الكامل وواقع الانسان وانسانية مؤكدة.
يحتاج الانسان الى الجماعة لكي يتطور الى فرد حر.
"ففي البدائل السابقة عن الجماعة، في الدولة، الخ، لم تكن الحرية الشخصية موجودة إلا لأجل الافراد المرتبطين بعلاقات قربى مع الطبقة الحاكمة، وإلا لمن ظل منهم منتميا الى هذه الطبقة".
ان الافراد الذين يتصرفون كما لو انهم مستقلون كانوا في واقع الحال مشروطين ليس فقط بكامل التطور الاجتماعي – اللغة، التقاليد، التربية، الخ – بل ايضا بطبقتهم، نخبتهم، او مهنتهم. كانت شخصيتهم مشروطة ومحددة بعلاقات طبقية واضحة جدا. وعلى الرغم من ان العلاقة المتبادلة في ما بينهم هي علاقة بين اشخاص، إلا انها قبل كل شيء علاقة بين "اقنعة الطابع الاجتماعي" – اي، ليست علاقة بين افراد معينين ومحددين، بل "كافراد عاديين". وكان ماركس يأمل ويؤمن ان هذه العلاقة ستكون معكوسة في "جماعة البروليتاريين الثوريين" :يشترك الافراد فيها كافراد.
لقد رأى ماركس الشيوعية، بمثابة تحكم عام ومشترك بالظروف التي "كانت سابقا متروكة للصدفة واكتسبت وجودا مستقلا ومتحكمة بالافراد المنعزلين فقط بسبب انعزالهم كافراد" (الايديولوجيا الالمانية)، ليس كنظام من الطبقات والطوائف – من "اقنعة الطابع الاجتماعي" – بل كمشاركة حرة بين افراد الناس.

ثمة تفاعل بين الفرد والمجتمع

"فتماما كما أن المجتمع ذاته ينتج الإنسان كإنسان فهو ايضا منتوج بواسطة الإنسان... واهمية الطبيعة للانسان لا توجد إلا للانسان الاجتماعي، لأنه في هذه الحالة فقط تكون الطبيعة بمثابة رابط مع الناس الاخرين، اساس وجوده بالنسبة للاخرين واساس وجودهم بالنسبة له. عندذاك فقط تكون الطبيعة اساسا لتجربته الانسانية وعنصرا هاما لواقع الانسان". مخطوطات 1844.
"وعلى الرغم من ان زمننا، زمن الثورة العلمية والتكنولوجية، يدعو الى زيادة العمل الجماعي، فان عمل الباحث، والكاتب، او الفنان، لا يرتبط مباشرة بالآخرين، بل انه قد يعاني، في الحقيقة، من التدخلات الاجتماعية المباشرة. ومع ذلك فان هذا العمل يفترض الاشتراك مع الاخرين؛ فهو يعتمد على خبرة الاخرين، وهو من حيث الجوهر شكل من اشكال النشاط الاجتماعي برغم كل استقلاليته الذاتية.
انها ليست مادة نشاطي وحسب – كاللغة التي يستخدمها المفكر – التي تقدم لي باعتبارها منتجا اجتماعيا. فخبرتي الذاتية هي نشاط اجتماعي. لهذا السبب، فان ما انتجه بنفسي فاني انتجه للمجتمع، ووعيا

بقيامي بدور كائن اجتماعي". مخطوطات 1844.

ان هذا ليس بمنفعة سطحية، وليس مجرد نشاط فردي يستفيد منه المجتمع. المسألة هنا هي الطبيعة الاجتماعية للفرد – الشخصية كنتيجة ومبرر للمجتمع.

"وبرغم ان الانسان هو فرد متميز – وخصوصيته هي فقط ما تجعله فردا، كائن فردي اجتماعي حقيقي – الا انه كل بنفس القدر، كل مثالي، الوجود الذاتي للمجتمع كفكر وممارسة. انه يوجد في الواقع كممثل وكعقل حقيقي للوجود الاجتماعي، وكمجموع للتجسيدات الانسانية للحياة". مخطوطات 1844.

كلّية الانسان هذه التي اعلنها ماركس، هذه "الطبيعة الانسانية للانسان" كما وصفها فردريك شيلر (1759 – 1805)، كانت في البداية مجرد فكرة (مع بعض الاستثناءات) مجرد احتمال يتوجب تحقيقه. ان الانسان المهشم، الناقص، المشوه، غير قادر على تحويل نفسه الى انسان كامل؛ لكنه قادر فقط من خلال المجتمع في سياق تطوره. وكلما زادت قدرة الانسان على استحواذ العالم الخارجي – من خلال حواسه، روحه، وذكائه – وكلما تكاملت وتعددت اوجه هذا الاستحواذ، هذا "الاستيلاء" كلما زادت فرصته بالتحول الى انسان كامل.

"فالإنسان يتملك كيانه المتعدد الاوجه بطريقة كلية، أي كإنسان كلي. فكل علاقاته الإنسانية بالعالم – الرؤية والسمع والشم والتذوق واللمس والتفكير والمراقبة والشعور والرغبة والفعل والحب – باختصار كل اعضاء وجوده الفردي – كتلك الأعضاء التي تشترك بالشكل مع المجموع، هي في فعلها الموضوعي (فعلها ارتباطا بالموضوع)، تملك لهذا الموضوع، تملك للواقع الإنساني. والطريقة التي تستجيب هذه الاعضاء للموضوع هي تأكيد للواقع الانساني. إنها الفاعلية الإنسانية والمعاناة الإنسانية، لأن المعاناة – المدركة انسانيا – هي متعة للذات بالنسبة للانسان". مخطوطات 1844.

بكلمات اخرى، نحن بحاجة الى أنسنة الاحاسيس وتهذيبها لكي تصبح احاسيس انسانية. لقد اغفل الكثير من الباحثين حقيقة أن ماركس وهو يتحدث عن التملك "الشامل" و"الانسان المتمتع بكل احاسيسه" فانه يتحدث عن الفعل الابداعي، الخلاق، باوسع معاني الكلمة: فالحب كان بالنسبة الى ماركس شكلا جوهريا لهذا "التملك". وفي عالم الحيازة والتجارة والارباح، ذبل هذا الفعل وصار مجرد حيازة للشيء. يتحدث ماركس بانفعال حقيقي ضد عقلية الحيازة هذه، التي تنظر الى الحيازة المادية الآنية بمثابة "الهدف الوحيد للحياة والوجود" (مخطوطات1844). وقد افسدت هذا العقلية الحب نفسه، حيث حولت العلاقة بين الرجل والمرأة الى علاقة ملكية وهيمنة؛ ان الزواج بشكله الحالي – "شكل من اشكال الملكية الخاصة الكلية" – وطلب "مشاعية فظة وسيئة" من اجل ملكية مشتركة للمرأة، يمثلان سوية تملكا من خلال الحيازة ولهذا فانهما يعنيان مهانة الانسان وتصغيره الى مجرد شيء.

"في العلاقة مع المراة، باعتبارها غنيمة وخادمة للشهوة الجماعية، يجري التعبير عن حالة الانحطاط اللانهائي الذي يوجد الانسان فيها لذاته... ومن هذه العلاقة يمكن تقييم كامل مستوى التطور للانسان. ومن طابع هذه العلاقة يمكن ان ندرك المديات التي وصل اليها الانسان، والتي فهم نفسه بانه من جنس الانسان، كائن انساني. ان

العلاقة بين رجل وامرأة هي اكثر العلاقات طبيعية بين كائن انساني وآخر. ولهذا فانها تشير الى اي مدى اصبح السلوك الطبيعي للانسان انسانيا، والى اي مدى اصبح جوهره الانساني جوهرا طبيعيا بالنسبة له، الى اي مدى اصبحت طبيعته الانسانية طبيعة بالنسبة له. كما انها تظهر ايضا الى اي مدى اصبحت احتياجات الانسان احتياجات انسانية، وبالتالي الى اي مدى اصبح الشخص الاخر، باعتباره شخصا، واحدا من احتياجاته، والى اي مدى يكون فيه الانسان ضمن وجوده الفردي كائنا اجتماعيا ايضا". مخطوطات 1844.

وهكذا تصبح اكثر العلاقات الطبيعية مقياسا للانسنة: التطور من جنسية مجهولة الهوية الى "وحدة جنسية ارقى" (كما يسميها غوته)، جمع من الاحاسيس والروح والعقل، وان ادراك الآخر بصفته انسانا، لا يدمر الطبيعة بل يعززها حتى تصبح طبيعة انسانية حقيقية. لقد تزوج ماركس عام 1843 من حبيبته جيني فون ويستفالن، وفي 21 حزيران عام 1856 كتب لها رسالة من لندن قال فيها:

".... يبدو ان الغياب المؤقت جيد، فالتعود على الاشياء من حولنا يجعلها تتشابه ويصعب التفريق بينها. فالبعد يقزم حتى الابراج، بينما توافه الامور والمألوف منها اذا ما نظرنا لها عن قرب تبدو كبيرة وهامة. والعادات السيئة التي قد تزعجنا جسديا وتتحول الى عاطفة، تختفي عندما تزول مسبباتها من أمام اعيننا. اما العواطف العظيمة، تلك التي تأخذ من خلال القرب شكل الأمور الصغيرة الروتينية، فانها تكبر وتنمو وتأخذ بعدها الطبيعي على حساب المسافة السحرية بينها وبين الاشياء. هكذا هو الحال مع حبي الخاص، لقد خطفتِ مني فيما يشبه الحلم، وها انا اعرف بان الوقت يقوم بما تقوم به الشمس والمطر للنباتات: انها تنمو. ففي لحظات غيابك، يظهر حبي لك على حقيقته، كعملاق تركزت فيه كل طاقتي الروحية وكل سمات قلبي. اشعر باني انسان مرة أخرى لأني اشعر بهذه العاطفة الجمة. وذلك الافتراق الروحي الذي يوقعنا في شباكه البحث العلمي المعاصر، وهذه الشكوكية التي تجبرنا على ايجاد العيوب في كل انطباعاتنا الذاتية والموضوعية، كل هذا مصمم ليجعلنا صغارا خائري القوى كثيري الأنين. لكنه الحب، ليس حب انسان فيورباخ، ولا ايضية موليشوت، بل ولا حب البروليتاريا، انه حب الحبيب وتحديدا حبكِ انتِ هو الذي يجعل الانسان انسانا مرة اخرَى...."

وهكذا بالتملك من خلال الحب تصبح الطبيعة طبيعة انسانية.

يربي الانسان نفسه لكي يصبح انسانا عبر انسنة طبيعته، عبر رفضه الحط من قدر الناس الى مجرد مواضيع، ولكن عبر جعله مواضيع الطبيعة مواضيع له – المواضيع المشكلة والمدركة انسانيا بوسائل تملك انساني، فانه يطور ثروة امكانياته، ويتمم نفسه. ان التملك من خلال الحصول على الشيء، وتشظية حالة الكمال الى كشكول للملكية الخاصة، يجعل الانسان "احمق وجزئيا". والتملك من خلال الحيازة كان وسيظل خطوة لا بد منها نحو مجتمع منتج، تنمو الاحتياجات فيه بنفس مقدار نمو الطاقات، ولا ينحدر الانسان فيه الى موضوع – بتعبير اخر، مجتمع انساني حقيقي.

لم يكن ماركس واعظا أخلاقيا، فعندما كشف وحشية التملك من خلال الحصول

على الشيء، وكشف دور الملكية الخاصة والحط من قدر الانسان بفعل نمط الانتاج الراسمالي، كان يدرك ان ذلك سيكون مرحلة ضرورية ضمن التطور التاريخي ورأى المجتمع الجديد وهو ينضج داخله.

"لقد جعلتنا الملكية الخاصة اغبياء وجزئيين الى درجة أن موضوعا ما لا يعد موضوعنا إلا حين نمتلكه، حين يوجد بالنسبة لنا كرأسمال، أو حين نحوزه بشكل مباشر، أو حين نأكله أو نشربه أو نرتديه أو نقطنه الخ... باختصار حين نستخدمه بطريقة ما..."

"وهكذا ففي مكان كل هذه الحواس الجسدية والذهنية جاء الإغتراب الخالص لكل هذه الحواس؛ حاسة التملك. وكان لا بد من الهبوط بالكائن الإنساني إلى هذا الفقر المطلق لكي يتمكن من توليد ثروته الداخلية". مخطوطات 1844.

ان الحاسة التي جرى تضييقها بالضرورة العملية الفظة لا بد لها ان تكون حاسة محدودة بشكل محزن. اذ ليس من المهم، بالنسبة للجائع، اذا ما قدم الطعام اليه بشكل لا يناسب الاستهلاك الانساني: فما يعنيه هو الوجود المجرد للطعام كطعام. "اذ يمكن أن يكون في أكثر أشكاله فجاجة، ويكون من المستحيل أن نقول كيف يختلف هذا النشاط الغذائي عن نشاط الحيوانات" مخطوطات 1844.

ماذا يعني هذا؟ انه يعني ضرورة عدم وجود جائعين، ان على المجتمع ان لا يصبح فقط قادرا على تلبية اكثر الاحتياجات الأولية، بل عليه ان يلبي حاجات أرقى وأكثر تمايزا – حاجات انسانية وليست حيوانية. ومادة مستقبل كهذا تتراكم في مجتمع الملكية الخاصة.

"وكما يجد المجتمع الناشئ، خلال تطور الملكية الخاصة، بكل ثروتها وفقرها (المادي والذهني) تحت يده كل المواد اللازمة لهذا التطور الحضاري، فإن المجتمع الراسخ ينتج الإنسان بكل ثراء وجوده، الإنسان الثري بكل الحواس، كواقع مستديم". مخطوطات 1844.

رأى ماركس المجتمع البرجوازي بكل تناقضاته كمجتمع في عملية صيرورة. وحلم بالشيوعية كمجتمع انهى هذه العملية. ولم يتوقع ان تكون الشيوعية مجرد نفي للملكية الخاصة بل الغاء مؤكد لها ضمن عالم الوفرة، عالم الانسانية والفكر المتكاملين: "تملك حقيقي لطبيعة الانسان من خلاله ولاجله" مخطوطات 1844.

ان الشيوعية كما تنبأ بها ماركس كانت الحل الحاسم والنهائي لحالة العداء بين الانسان والطبيعة، وبين الانسان والانسان". وكان يأمل ان تعني الشيوعية تحويلا "للطبيعياتية" (اي المقدمات التي توفرها لنا الطبيعة) الى "انسانية" (اي ازهار كامل للانسان الواعي، الكلي، غير المقسم). ان هدف ماركس، سواء في شبابه او شيخوخته، لم يكن إماتة الاحاسيس بل انسنتها؛ ولم يكن استبدال الجسد بالعقل او العكس، بل تطوير كل الامكانات من اجل الانتاج او المتعة؛ لم يكن الافقار المادي والروحي بل امتلاك العالم وكل امكانياته؛ لم يكن وضع مقاييس للشخصية ومسخها بل طبيعة متعددة الاوجه للفردانية التي تعيش مع الاخرين في مجتمع حر.

وعليه، هل كان ماركس يرى في الشيوعية مرحلة نهائية، هل هي الجنة؟

على العكس: اذ لم تكن تعني له سوى بداية لتطور حقيقي للانسان. احلام تسبق الواقع.

فكر يسبق الفعل.

"لكي نبطل فكرة الملكية الخاصة فإن الافكار الشيوعية كافية تماما. بيد أن الأمر يتطلب نشاطاً شيوعيا حقيقيا لإبطال الملكية الخاصة الحقيقية. فالتاريخ سينتجها، وسيتضمن التطور الذي ندركه الآن فكريا، باعتباره تجاوزا ذاتيا، في الواقع عملية قاسية وطويلة. ولكن علينا ان نعتبره تقدما على اساس أننا اكتسبنا سلفا وعيا بالطبيعة المحدودة للتطور التاريخي وبهدفه، ويمكن لنا ان نرى ما وراءه". مخطوطات 1844.

اذن هو الوعي الذي يذهب الى ابعد من الهدف وابعد من تحديدات التقدم التاريخي؛ الوعي الذي لا يرى الشيوعية كمرحلة نهائية بل طورا فقط من اطوار التطور اللامحدود من حيث المبدأ؛ وعيا لديه الجرأة للايمان باليوتيبيا.

في سنواته الاخيرة رأى ماركس أنوار حلمه اليوتيبي وهي لا تزال بعيدة لكنه لم يفقد ايمانه بالوصول إليها. وظل حتى انطفاء آخر شرارة حياة في جسده مقتنعا بان الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، والطابع العلمي للعمل، واستبدال الناس بالآلات سيؤدي الى قيام الانسان الكامل ويمكنه من كسر الاغلال التي تقيد امكانياته الداخلية.

---

* 1840 ت هي اختصار للأربعينيات من القرن التاسع عشر.

قراءة في المقاربات النظرية الحديثة للأمة والنزعة القومية

د. سوران قحطان

طبيب اسنان من مواليد (هيت) 1978، مهتم بالقضايا الفكرية. وهو يناقش هنا بعض المقاربات النظرية الحديثة للأمة والنزعة القومية التي سعت لتفسير جملة من الظواهر التي برزت في العقدين الأخيرين.

المقدمة

منذ ثمانينيات القرن العشرين عاد النقاش والجدل الاكاديمي حول الأمة والنزعة القومية ليرتقي الى مستوى اعلى، ودشنت الادبيات العلمية حولها مرحلة اكثر نضجا. وجاء ذلك كله في محاولة لتفسير جملة من الظواهر برزت في العقدين الاخيرين من القرن المنصرم وبدت متناقضة؛ ففي ذات اللحظة الفارقة التي بدأت بها منظمات بالغة القدرة، جامعة وعابرة للقوميات بل وحتى للقارات ومعها شركات ضخمة متعدية للقومية وتساندها شبكة واسعة الانتشار للتواصل ولتكنولوجيا الاتصالات بالتعدي على سيادة الدول والثقافات؛ وفي ذات الفترة التي اعلنت فيها الليبرالية الجديدة الاولوية المطلقة للسوق الممتلكة قدرة اختزال كل الصراعات ومنها القومية الى مجرد منافسة اقتصادية. في هذه الفترة بالذات بدأت اقاليم وإثنيات وأمم كانت قد استقرت في اطار دول قائمة منذ فترة طويلة تطالب باستقلال ذاتي او استقلال كامل. وفي ذات الوقت امتلكت حركات قومية كانت تعاني من الانكماش والتراجع زخما جديدا بل ورفعت سقف مطالبها القومية. وفي البلدان التابعة التي انجزت فيها النزعة القومية العمل التحرري ومن ثم بدا انها غادرت التاريخ، انفجرت فيها وفي ما بينها مع بداية التسعينيات – وما قبلها قليلا – صراعات قومية وإثنية تعود الى بقايا موروثة من الحقبة الاستعمارية وما قبلها.

اذا كانت الدراسات الاكاديمية لموضوعة الأمة والنزعة القومية قد انطلقت فعليا في القرن العشرين. لكن القومية بوصفها ايديولوجيا وتنظيرا لحركات سياسية واجتماعية، كانت حاضرة وينظر لها منذ القرن الثامن عشر تقريبا. وقد تناولها الكثير من الفلاسفة والمفكرين والمؤرخين وقد خلقت افكارهم الكثير من النظريات

والمجادلات والخطابات للأجيال اللاحقة من المفكرين. لكن ما تتميز به الدراسات الاكاديمية والنظرية الحديثة لموضوعة الأمة والنزعة القومية خصوصا في العشرين سنة الاخيرة، انها لا تبدأ من اسئلة بسيطة كسؤال رينان المباشر "ما الأمة؟" والذي يتضمن وجودا مفروغا منه للأمة سواء كان موضوعيا او ذاتيا، وانما منطلق هذه المقاربات أبستيمولوجي تحليلي او وظيفي. فهي تثير سلسلة من التساؤلات المركبة والمترابطة: هل الأمة والنزعة القومية قضايا بديهية مسلم بها؟ وهل هي كينونات موضوعية أم زائفة متخيلة؟ كيف نشأت المفاهيم والمقولات وكيف تطورت؟ وكيف تشكل حقلها العلمي او العلموي/ الايديولوجي؟ وهل اصبحت مفاهيم مفروغا منها، وتم تحديد اطارها ونطاق عملها؟

اكاديميا لا توجد تعاريف متفق عليها للمفاهيم الاساسية؛ فلا توافق حول ما هي الأمة وما هي النزعة القومية او الانتماء القومي. ثم ان الاختلاف لا ينعكس في المفاهيم فقط وانما في المنطلقات ايضا. فبينما ينطلق بعض المفكرين من الأمة لتفسير النزعة القومية، يبدأ آخرون من النزعة القومية. كما أننا نجد بعض المفكرين يعتقدون انه وبسبب طبيعتها، لا يمكن اصلا الوصول الى اتفاق حول الأمة، النزعة القومية وما يرتبط بها من مفاهيم. وبالنسبة الى مفكرين آخرين فإن هذه المفاهيم تتأصل على المستوى النظري وفق المنهج المحدد الخاص بالباحث فقط ولا علاقة لها بالواقع وانما هي نماذج Models تستخدم للتحليل. وأخيرا فإن بعض الباحثين يعتقدون أن (الأمة والنزعة القومية) تمثل مصطلحات للممارسة والتطبيق، بل وأكثر هي مجرد مفردات للخطاب المستخدم في خضم السياسة ولا تستخدم من اجل تحليل ودراسة الظواهر الاجتماعية.

ان ظواهر مثل الأمة والنزعة القومية لا يمكن ان تدرس بمعزل عن علاقتها بالدولة. بل ان هناك الكثير من المعاناة وخلط وعدم تمييز حقيقي ومصطنع بين الدولة القومية national state والدولة – الأمة State – nation. وعند بعض المفكرين هناك نوع من انواع التضايف بل وحتى الترادف بين الدولة والأمة، سواء كانت الدولة واقعة و/ او دولة ممكنة. وما القومية – كحركة سياسية اجتماعية ايديولوجية – إلا وسيلة او أداة من اجل تدعيم أو إعادة انشاء دولة قائمة بالفعل أو لإقامة الدولة الحلم. وبالنسبة للبعض الآخر لا وجود للأمة إلا حين يكون للدولة سلطان اداري فعلي وواقعي، موحد على الاقليم الذي تدعي عليه السيادة. وهذا الرأي يتضمن تلازما وتمازجا بل وحتى تجانس "الثقافي" بـ "السياسي". فتعبيرا الدولة القومية والدولة – الأمة يتضمنان الى حد ما تماهيا لثقافة الشعب مع سلطة الدولة التي تحكمه ومؤسساتها. والتجانس يكون بحيازته هوية لغوية، دينية ورمزية مشتركة او على الاقل متقاربة.

وكذلك لا يمكن انجاز فهم علمي للأمة والنزعة القومية دون انجاز مهمة تدقيق عدد من المفاهيم والمصطلحات، بالأخص منها: العرق والاثنية. فالمصطلحان يستخدمان ايديولوجيا وحتى نظريا في محاولة لإيجاد تفسير نظري لقضايا قومية. وهناك خلط في الاستخدام المترادف، نظريا وعمليا، للمصطلحين كمفاهيم لتوصيف التنوع. لن ندخل في نقاش حول المفهوم العلمي للعرق او الاثنية ولا حول الفرق

بينهما، فهذا خارج نطاق هذا البحث، لكن يجب التأكيد على ضرورة تحديد العلاقة وآليات الارتباط – إن وجدت – بين العرق والاثنية من جهة، وبينهما وبين الأمة ونشوئها من جهة أخرى، وكيف تستعمل هذه المفاهيم في المقاربات النظرية لموضوعة الأمة والنزعة القومية. بمعنى آخر هل يرتبط بتكوين الأمة البايولوجي أو الاجتماعي الثقافي؟

وعند دراسة وتحليل الأمة والنزعة القومية يجب ان لا يتم التعامل مع المفاهيم والأفكار والنظريات كأنها ناجزة ومطلقة. فخطاب القومية الايديولوجي المسيطر بمقولاته السائدة غالبا ما يؤطر فهمنا ويقولب افكارنا، بل ويسعى الى تشويش رؤيتنا وتعمية بصرنا. فالقومية تشكل مثل أفق الخطاب السائد محليا ودوليا، بل وتمثل اطارا طبيعيا للتفاعل السياسي، وهي ايضا تبني الحياة اليومية للسكان وطريقة ادراكهم للواقع المحيط بهم وكيف يفسرونه. بل هي تشكل المنظور التحليلي للتقاليد الاكاديمية المتبعة. فهناك نزعة سائدة كما يلاحظ اوموت اوزكيرملي لمساواة او حتى مماهاة المجتمع بالأمة تفرض انها شكل طبيعي وضروري، بل ونضيف انه وحيد للمجتمع في العصر الحديث.

إن التجليات الرئيسية للحركات القومية وما ترابط معها من تنظيرات ايديولوجية يمكن ان توجز بالتصنيف الآتي:

اولا، الشكل التقليدي في عملية بناء الدول الحديثة في ما يسمى "الغرب" اي الدول الرأسمالية الأولى، وهذه العملية استمرت وصولا الى فترة طويلة من القرن التاسع عشر. والعلاقة التفاعلية حول الأولوية التاريخية بين الظواهر الثلاث (الدولة، الأمة، النزعة القومية) كانت معقدة وجرى عدد من محاولات تنميطها/ نمذجتها.

ثانيا، حركات التحرر الوطني التي استهدفت تدمير الامبراطوريات الاستعمارية في القرن العشرين و/ أو كانت وسيلة مهمة في بناء الدولة الحديثة والتخلص من التبعية في المرحلة ما بعد الاستعمارية.

ثالثا، مرحلة التمجيد المشوه للعرق والقومية من خلال نظم الفاشية والنازية في القرن العشرين.

رابعا، النزعة القومية مع بداية انهيار النظام الاشتراكي وما بعدها (الحل السلمي جيك – سلوفاكيا، الحل الدموي – يوغسلافيا وتفككها، مشكلة ناكورني غارباغ والقرم وغيرها).

وخامسا واخيرا، النزعة القومية الحديثة في الدول الرأسمالية المتقدمة في القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين: ويلز، اسكتلاندا، الحركات الكونفدرالية في الولايات المتحدة... الخ.

واذا كنا الى حد كبير نستطيع من خلال التصنيف السابق ان نشمل الى حد كبير في التصنيف السباق على كل الحركات القومية السياسية والاجتماعية منذ القرن الثامن عشر ولحد الان، فإننا بحاجة ايضا الى تصنيف جديد لأبرز المقاربات النظرية وبالأخص الاكاديمية منها. وهناك العديد من محولات التصنيف هذه، لكن من اشهرها التصنيف الثلاثي بتلاوينه الداخلية على معيار: قِدم أم حداثة ظاهرتي الأمة والنزعة القومَية. ان هذا التصنيف وإن عدّه بعض المنظرين اعتباطيا وغير متفق عليه، يعتبر اشهر تصنيف. وابرز من ساعد على نشر هذا التصنيف هو (انتوني سمث) وربما يكون من ابتكاره حسب (اوزكيرملي).

اولا: الأصلية أو البدائية (Primordial)

تعبير البدائية او الاصلية شامل، ويستخدم لوصف كل النظريات والمقاربات التي تعتقد ان الأمة والصفات القومية مكون اصلي من المكونات الطبيعية للبشر أو على الاقل الاعتقاد انها قديمة ومتواترة. وانها شكل من اشكال الروابط البشرية، معروف ومحدد تاريخيا وأنثروبولوجيا، ويمكن العثور عليه في كل مكان وعلى مدى التاريخ. وهي تنطلق ايضا من كون العلاقات القومية روابط أصيلة جوهرية غير مستمدة من مصدر آخر، وهي تسبق التفاعلات الاجتماعية الأخرى وان تأثرت بها. وهذه الروابط تنتقل من جيل الى آخر دون ان تغير من سماتها الاساسية وصفاتها الجوهرية.

وبالنسبة للبدائية، الأمة خالدة ولم تتغير ولن تتغير، وجدت منذ الازل وفي كل العصور. وهي قد تختفي مؤقتا لأي ظرف كان، لكن الأمة نفسها كلية الوجود ومتكررة بوصفها شكلا من اشكال الهوية. الأمة والقومية صفتان متأصلتان في الحالة البشرية: فللإنسان أمة وقومية كما له عين واذن وللإنسان أمة وقومية كما له أم وأب وعائلة. والبشر ليسوا بشرا إلا بانتمائهم الى أمة ما. وهم مقسمون الى امم، تتميز بسمات وخصائص ويمكن تحديدها – اي الأمة – موضوعيا.

والامة مستودع السيادة والكرامة ومصدر السلطة والشرعية والواجب تجاهها يجب كل واجب. وهي قديمة وذات تاريخ فريد ومصير متفرد وثقافة عليا. ولها عصر ذهبي وحقب تراجع وسبات مقدر لها ان تستيقظ منها. ولكل امة بطل فحل وقائد مغوار، ينبعث لإيقاظها ويقضي على اعدائها وينهي حقب الانحطاط.

وعموما فإن هذه المقاربة تمثل رأي السياسيين القوميين وأيديولوجيي القومية. وعلى اساسها تقوم كل السرديات القومية الكبرى التي وضعها منظرو الفكر القومي السياسي. وهي تمثل ايضا رأي الناس العاديين انفسهم. وقد ظلت نسقا مهيمنا في اوساط علماء الاجتماع والمؤرخين والمفكرين. والى الآن يظهر العديد من الاكاديميين مبشرين بها. وعلى الرغم من الاختلاف والتباين في رؤاهم، يجمعهم قاسم مشترك واحد هو الايمان بقدم الأمة أو كونها جزءا طبيعيا مكونا للبشر. بل ان عددا غير قليل منهم يعتقد ان النزعة القومية نفسها طبيعية وقديمة، قِدم الأمة. ينطلق عدد من الاكاديميين مِن اسس بايولوجية و/أو اجتماعية لتفسير الترابط بين العرق والإثنية من جهة، وبين الأمة والقومية. فهذه الجماعات ومنها الأمة ليست سوى شكل موسع لقرابة الدم. وكلها تتميز بالانحدار من أصل مشترك ونسل وحد ويحافظ عليها بالتناسل ضمن نفس الزمرة. فالأعراق والإثنيات والأمم هي عائلات كبرى من الافراد الحقيقيين والمفترضين الذين يميلون الى التزاوج في ما بينهم. والأمة لدى البعض ليست إلا اثنية وعت نفسها سياسيا. فالأمة مجتمع اكثر وعيا بالذات، وتمتلك أو تدعي امتلاك الحق: في هوية سياسية وفي الاستقلال وفي ارض محددة. والبعض الاخر من المنظرين من يحدد الروابط الطبيعية لتكوين الأمة بكونها روحية وليست اجتماعية أو بايولوجية. وهي تتعلق بالعواطف والشعور، وهي عواطف ومشاعر تنأى عن الوصف وهي قاهرة واكراهية وغير قابلة للتحليل.

ثانيا/ الحداثة

القاسم المشترك في هذه المقاربة هو الاعتقاد بحداثة (الأمة والنزعة القومية). فهي تعد ظواهر فتية لا يزيد عمرها على عدة قرون. وقد اصبحت ضرورة اجتماعيا في العالم الحديث فقط. ولم يكن لها مكان في الحقبة ما قبل الحديثة؛ فالأمة والقومية نشأت في القرنين الاخيرين وهما نتاج انساق حديثة مثل: الرأسمالية، التصنيع، التمدن، العلمانية والدولة البيروقراطية الحديثة. والامم حديثة ليس بمعنى جدتها فقط وانما بكونها اصبحت ضرورة اجتماعية في العالم الحديث، وانه لم يكن ثمة مكان للأمة والقومية في الحقبة ما قبل الحديثة. فالأمم والقومية ظاهرتان متأصلتان جوهريا في العالم الحديث. وعموما يتخذ الحداثيون منحى نقديا تهكميا لاذعا بل وحتى عدائي تجاه الخطابات القومية السياسية الايديولوجية، وأيضا تجاه المقاربة البدائية لتفسير الأمة والنزعة القومية.
من ابرز ممثلي هذه المقاربة:

ارنست غيلنر (1929 - 1995)

تعتبر مساهمته اهم محاولة لدراسة موضوعة الأمة والنزعة القومية وأقر بأصالتها حتى اشد منتقديه حماسة، مع ملاحظة انه طوّر وغيّر من افكاره عبر كتبه المختلفة وبالأخص منها: الأفكار والتغيير، الأمة والنزعة القومية.
الأمم بوصفها سمة طبيعية وربانية لتصنيف البشر، ومصيرا سياسيا متأصلا في حياة الجماعة السكانية مع انه متأخر مجرد اسطورة؛ بينما النزعة القومية التي تأخذ ثقافات موجودة مسبقا وتحولها الى أمم وتخترع وتلغي ثقافات من اجل هذا، لذلك فهي حقيقية ويتعذر النجاة من أسارها. باختصار، الامم لا تصنع الدول والقوميات بل العكس هو الصحيح. وعرف (غيلنر) النزعة القومية بانها: "مبدأ يؤمن بأن الوحدة السياسية والقومية يجب ان تكون منسجمة ومتطابقة". وباختصار تعد القومية عند (غيلنر) نتاجا للتصنيع ولتنظيمه الاجتماعي.
يفسر (غيلنر) غياب الأمم والنزعة القومية عن المجتمعات قبل الحديثة (المجتمعات الزراعية) عبر تحديد العلاقة بين السلطة والثقافة. فهما لا ينزعان الى الاجتماع معا. ففي هذه المجتمعات الزراعية لا وجود لتجانس ثقافي. ولا تعد الثقافة ضرورية للحفاظ على النظام الاجتماعي. وهي لا تؤثر على العلاقات القائمة وان عملت ثقافة الطبقات الحاكمة على تأبيد النظام. بينما المجتمعات الصناعية الحديثة فان العلاقة مختلفة تماما؛ ففيها تنتشر ثقافة عليا مشتركة تحدده وتعرفه، فتكون بحاجة الى الدوام عبر كيان سياسي. وفي هذه تصبح الثقافة مهمة بحد ذاتها، فهي لا تؤكد البنية الاجتماعية بل تحل محلها. ان الطريقة الوحيدة التي يمكن عبرها لثقافة معينة ان تحمي نفسها من أخريات وبالأخص تلك التي تملك دولا هي اقامة و/او تقوية دولتها الخاصة.

بندكت اندرسن (1936 - 2015)

نشر (اندرسن) كتابه "الجماعات المتخيلة" سنة 1983 وأثار هذا الكتاب، وما يزال، العديد من النقاشات. واعتبر فيه الأمة والقومية منتجات طبيعية ثقافية من نوع خاص. فقد عرف الأمة بأنها: "جماعة

سياسية متخيلة، متخيلة بوصفها محددة ومستقلة جوهريا". والتخيل عن (اندرسن) لا يتضمن في دلالته التزييف. وهو يوضح هذا عندما يتهم (غيلنر) بعدم التفريق ما بين الابتكار والتلفيق والتزوير وبين التخيل والابداع.

والأمة جماعة متخيلة: لأن افراد حتى اصغر الأمم لن يعرفوا أبدا اخوانهم ولن يقابلوهم أو حتى يسمعوا بهم لكن تعيش في اذهانهم صورة وحدتهم وتعاطفهم وعلاقتهم الوثيقة. وهذا بعكس الجماعات التقليدية (القرية، الحي، العشيرة... الخ). وكذلك لأنها بوصفها جماعة متساوية دوما لأنه وبغض النظر عن حجم اللامساواة والاستغلال فيها تعبر دوما عن العلاقات الرفاقية الأفقية العميقة. وهذا الشعور بالأخوة والمساواة هو الذي يجعل الملايين من البشر يضحون بحياتهم في سبيل أمتهم. وايضا بوصفها محددا، لان لكل أمة حدودا ثابتة ومعينة ودائمة تفصلها عن أمم اخرى.

عند اندرسن لا ترصف القومية مع الأيديولوجيات السياسية المصنفة بصورة واعية، وانما مع الانظمة الثقافية الكثيرة السابقة عليها، والتي خرجت من رحمها وكانت ردا عليها مثل الجماعات الدينية او الجماعات القرابية.

بالنسبة لاندرسن فإن اللغات المطبوعة وضعت الاسس اللازمة للوعي القومي عبر: اولا/ اوجدت مجالات للتواصل والاتصال فوق مستوى اللغات المحلية المحكية؛ ثانيا/ منحت الطباعة ثباتا للغة ساعد في بناء صور ذهنية للقدماء ادت دورا محوريا في بناء الأمة؛ ثالثا/ اوجدت الطباعة الرأسمالية لغات سلطة من نوع مختلف عن اللغات المحلية الادارية السابقة.

وباختصار، ان ما جعل الأمة قابلة للتخيل هو: "تفاعل شبه اعتباطي لكن متفجر بين نظام انتاج وعلاقات (رأسمالية) وتقانة اتصالات (طباعة)، وحتمية التنوع الانساني".

ميروسلاف روش (1932)

يعتبر (روش) أول من استخدم المناهج المقارنة في دراسة وفي التنظير للحركات القومية، محاولا اظهار أهميتها في وقت لم يكن من الشائع استخدامها. وركز في مؤلفاته ايضا على ذكر امثلة توضيحية تفصيلية عن كل ما يقدمه من افكار كتبها حول الموضوع:

(1) الشروط الاجتماعية للانبعاث القومي في اوربا.

(2) انبعاث الامم الاوربية الصغيرة: امم شمال اوربا وغربها.

وقد ربط (روش) تشكيل الامم الحديثة بعمليات التحولات الاجتماعية الكبرى بدون التشديد على جانب واحد. من ابرز هذه التحولات: الرأسمالية وانتشارها، الحراك الاجتماعي والجغرافي، تطور وسائل الاتصالات وانتشار التعليم.

الحركة الوطنية عند (روش) تترادف الى حد بعيد مع مسيرة تشكل الأمة. وهو يعرّف الحركة الوطنية بكونها: "المساعي المنظمة لتحقيق كل السمات والملامح لأمة كاملة النضج". والميل لإطلاق مصطلح "القومية" عليها يؤدي الى تشوش خطير. فالقومية شيء آخر: "هي النظرة التي تعطي اولوية مطلقة لقيم الأمة على القيم والمصالح الاخرى كلها فهي ليست سوى شكل من الاشكال الكثيرة للوعي الوطني، والتي تظهر في مسار هذه الحركات".

هناك ثلاثة مصادر مهمة عند (روش) من إرث الماضي، يمكن ان تسهل ظهور الحركة الوطنية، اي مسيرة تشكل الأمة:

1 – الآثار الباقية من استقلال سياسي ذاتي أو كامل سابق.

2 – ذكرى استقلال سابق او دولة من الماضي.

3 – الاثر الحاسم لوجود لغة مكتوبة قديمة.

وابرز مساهمات روش هي نظرية المراحل الثلاث. فقد ميّز بين ثلاث مراحل بنيوية خلال عملية تكون الأمة:

المرحلة (أ) : نخبة من الاكاديميين والعلماء والمفكرين يلتزمون بالتقصي العلمي عن السمات والخصائص القومية والتاريخية والثقافية لجماعة اثنية محددة، بدون اللجوء الى صياغة اهداف سياسية او اللجوء الى التهييج السياسي.

المرحلة (ب): بروز مجموعة جديدة من الناشطين، سياسيين غالبا من الذين عزموا على التأثير بأكبر عدد ممكن من الانصار من اجل ضمهم الى جماعتهم للشروع في تكوين أمة.

المرحلة (ج): تتشكل فيها حركة اجتماعية واسعة وفي نفس الوقت يصبح الوعي الوطني اهتماما يشغل اغلبية السكان. وفي هذه المرحلة وحسب الممكن يتم تشكيل بنية اجتماعية متكاملة. ويمكن الوصول الى هذه المرحلة بسرعة اذا اتصلت اجراءات الناشطين والمحرضين بالحاجات الملحة والتطلعات المباشرة لأغلبية افراد الاثنية. بالنسبة لروش فإن اهم معيار للمقارنة بين الحركات الوطنية هو الانتقال الى المرحلة (ب) وثم الانتقال الى المرحلة (ج). وحدد من خلالها اربعة انماط رئيسية للحركات الوطنية (لن ندخل في التفاصيل).

ايريك هوبزباوبم (1917 - 2012)

كان تفسير الأمة والنزعة القومية جزءا من المشروع الكبير لهوبزباوم في دراسة التاريخ. وقد تناول الموضوع في كتاباته: اختراع التراث الذي حرره مع رينجر واطلق عنوان مقالته في على كل الكتاب: الأمة والنزعة القومية منذ 1780: البرنامج والاسطورة والواقع. كما انه تطرق للموضوع في رباعيته الشهيرة: عصر الثورة، عصر رأس المال، عصر الإمبراطورية، وعصر التطرفات. ودخل في جدال كبير مع عدد من ممثلي المقاربة البدائية التي تدعي قدم واصالة الأمة والنزعة القومية.

يؤكد (هوبزباوم) ان الأمم تنتمي الى حقبة خاصة وحديثة تاريخيا. وقبل نهوض الدول الحديثة لا معنى للكلام عن أمم. فلا يمكن ان توجد الأمم إلا في سياق مرحلة معينة من التطور الثقافي والاقتصادي. ويتفق هوبزباوم مع تعريفات (غيلنر) للامة والقومية. فالأمم لا تصنع القوميات والدول بل العكس هو الصحيح. والنزعة القومية هي التي تأخذ ارهاصات ثقافية موجودة مسبقا وتخترع او تلغي اخرى في سبيل تحويلها الى امم. وهو يقدم تفسيرا لما يسمى ارهاصات ظهور القومية: اللغة، الثقافة، التقاليد... الخ. فالأمة ترسخ الاستمرارية مع ماض مناسب وكانت هذه الاستمرارية متخيلة في الغالب. ومن ثم هي تستخدم التاريخ لشرعنة العمل والنشاط ولدعم اللحمة الجامعة.

سلط (هوبزباوم) الضوء على الدور الكبير للتحولات السياسية في فهم الأمة والقومية. واعتبر الأمة والقومية نتاجا للهندسة الاجتماعية. وأهم عنصر في

عملية تشكيل الأمم والقوميات هو حالة اختراع التراث والتقاليد. والأمة هي الظاهرة الاكثر شيوعا من هذه التقاليد المخترعة. والمقصود باختراع التراث "جملة من الممارسات المحكومة علنيا او ضمنيا بقواعد وقوانين مقبولة ومن طبيعة شعائرية أو رمزية تسعى الى غرس قيم ومعايير سلوكية معينة عبر التكرار الذي يتضمن آليا الاستمرارية مع الماضي". هناك عمليتان من اختراع التراث: تعديل التقاليد والمؤسسات القديمة لتلائم المؤسسات، والوضع الجديد والابتكار المتعمد لتقاليد تراثية جديدة، ولأغراض جديدة تماما.

بالنسبة لهوبزباوم فإن اختراع التراث يعتبر بمثابة الاستراتيجية التي لجأت اليها النخب الحاكمة لمواجهة التهديد القادم من الديمقراطية الجماهيرية. وخصّ في الاهمية الاختراعات الثلاث: التعليم، ابتكار المراسم الشعائرية، انتاج النصب التذكارية العامة. ولان ما يكوّن الأمة الحديثة دائما ما يكون مكونا من مثل هذه البنى الذهنية المركبة والمرتبطة بالرموز الملائمة، فانه لا يمكن للظاهرة القومية والأمة ان تحظى بما يكفي من البحث دون التركيز على ظاهرة اختراع التراث.

ثالثا/ الإثنية – الرمزية

اذا كانت الحداثة كمقاربة نظرية لموضوعة الأمة والقومية انبثقت من النقد الحداثي للبدائية فإن الإثنية – الرمزية كمقاربة انطلقت من نقدها المنظور الحداثي للامة والقومية. ويعد انتوني سمث (1939) ابرز ممثلي هذه المقاربة. ويعتبر ايضا أبرز من ساعد على نشر التصنيف الثلاثي للمقاربات ان لم يكن قد ابتكره. هناك تعريف يبسط هذه المقاربة الى حد ما: الأمم بهذا الشكل أو ذاك وجدت على مر العصور، بينما النزعة القومية باعتبارها ايديولوجيا تمثل حركة سياسية واجتماعية حديثة، وإن وجدت بعض اشكال الفكر القومي في العصور ما قبل الحديثة. وبهذا فإن المقاربة الإثنية – الرمزية لا توافق على الاستمرارية المطلقة لبعض دعاة المقاربة البدائية وتعطي مساحة للتحولات، فإنها ترفض من جهة أخرى المنطلق الحداثي حول الانقطاع بين الحقب التقليدية الزراعية والحديثة الصناعية.

بالنسبة لسمث فإن المشكلة الرئيسية هي عدم وجود تعاريف واضحة للمفاهيم المفتاحية وبالأخص الأمة والنزعة القومية. فمثلا بعض مفكري المقاربة القومية يقدمون تعريفا لنوع محدد من الامم وهي الامم الحديثة لا تعريفا عاما للأمة بحد ذاتها. بينما الأولوية هي لتعريف شامل ونمطي للأمة يطبق في جميع الازمنة ولجميع المناطق الجغرافية يمكن ان يستخدم لأغراض التحليل.

يعرف سمث الأمة بأنه: "مجموعة من السكان لهم اسم ويتقاسمون منطقة تاريخية واساطير مشتركة وذكريات تاريخية وثقافة جماهيرية عمومية واقتصادا مشتركا وحقوقا وواجبات للأعضاء جميعا". ونلاحظ ان هذا التعريف شبيه الى حد كبير بالتعاريف التقليدية التي يستخدمها السياسيون القوميون. ويحب ان نلاحظ انه عدل افكاره وتعديله للأمة لتكون اكثر عملية واجرائية ولتكون مرتكزة بصورة اكبر على الجانب الذاتي للأساطير والرموز المقدسة على حساب العوامل الموضوعية مثل الاقتصاد. أما القومية فقد عرفها بكونها: "حركة ايديولوجية للحصول على الاستقلال

الذاتي والوحدة والهوية والحفاظ عليها كلها باسم السكان الذين يعتقد بعض افرادهم انهم يكونون أمة فعلية او محتملة".

ويركز سمث كثيرا على دراسة الاثنيات وعلى كيفية وما هي الآليات التي تحولها الى أمم حديثة. ويلاحظ سمث ان معظم الأمم المتأخرة اقيمت حول إثنية مهيمنة ضمت او جذبت إثنيات صغيرة او مجتمعات محلية الى الدولة التي اسستها واعطتها اسما وشخصية ثقافية. وايضا حسب ما يلاحظ سمث هناك حالات من أمم حديثة لم تتشكل من قبل سوابق اثنية وضمنت البقاء والوحدة والتلاحم عبر تلفيق اسطورة متماسكة ورمزية ومهيمنة.

يقول سمث عن المقاربة الاثنية الرمزية: "انها تختلف عن المقاربات الاخرى في التشديد على اهمية العوامل الذاتية في فهمنا للجماعات الاثنية والامم وذلك عبر الثقل الذي تعطيه للثقافات والممارسات الشعبية وكيف تضع الحدود لإفهام استراتيجياتها". فهذه المقاربة تشدد على دور الاساطير والرموز والذكريات والقيم والتقاليد في تشكيل الإثنية وبالتالي الأمة والقومية. وهي تركز على الدور المهم للإثنيات في تشكيل الامم الحديثة. فلا يمكن فهم الأمة إلا من خلال اسلافهم الاثنيين ونهوض الاولى لا يمكن فهمه إلا من خلال السياق الاوسع للاثنية بل ان الاختلاف بين الأمم والإثنيات هو اختلاف في الدرجة لا في النوع. وهي من خلال تركيزها على دور ذكريات العصور الذهبية واساطير الاصول وإجلال الابطال والأسلاف واحترامهم تؤكد على أهمية عوامل الاستمرار والتكرار والضم والنماذج المختلفة لربط الحاضر بالماضي ووصله بالمستقبل.

المصادر:

باللغة العربية :

• اندرسن، بندكت؛ الجماعات المتخيلة – تأملات في اصل القومية وانتشارها؛ ت: ثائر ديب؛ المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات؛ بيروت ؛ ط1 ؛ 2014.

• اوزكيرملي، اوموت؛ نظريات القومية مقدمة نقدية؛ ت: معين الامام؛ المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات؛ بيروت ؛ ط1؛ 2013.

• عبد الجبار ، فالح (اعده للنشر)؛ القومية: مرض العصر ام خلاصه؟؛ دار الساقي؛ بيروت؛ ط1؛ 1995.

• غيلنر، ارنست؛ الامم والقومية؛ ت: مجيد راضي؛ دار المدى للثقافة والنشر؛ دمشق؛ ط1؛ 1999.

• كرون، ماك كرون ؛ علم اجتماع القومية؛ ت: سامي خشبة؛ المركز القومي للترجمة؛ القاهرة؛ ط1؛ 2007.

• هوبزباوم ، اريك؛ الامم والنزعة القومية منذ 1870؛ ت: عدنان حسن؛ دار المدى للثقافة والنشر؛ دمشق؛ ط1؛ 1999.

باللغة الانكليزية:

• Benner، Erica; Really Existing nationalism: a post-communist views from Marx and Engels; Clarendon Press Publication; Oxford;1995.

• Hroch، Miroslav; Social preconditions of National Revival in Europe; translate to English: Ben Fowkes; Cambridge university press; 1 ed. ، 1985.

• Munck، Ronaldo; The Difficult Dialogue: Marxism and Nationalism; Zed Books Ltd; UK;1986.

• Munck، Ronaldo; Marxism @ 2000: Late Marxist Perspectives; Macmillan Press Ltd; GB; 2000.
• Rosdolsky، Roman; Engels and the `Nonhistoric' Peoples: the National Que – tion in the Revolution of 1848. Glasgow: Critique books، 1987.
• Smith، Anthony D.:Nationalism and Modernism; Routledge; London; 1ed. ; 1998.
• Smith، Anthony D.:Ethno–symbolism and Nationalism; Routledge; London; 1ed. ; 2009.
• Spencer، Philip & Wollman، Howard; Nation and nationalism a reader ; Ru – gers University press; New Jersey; 1 ed.; 2005.

ملاحظات حول مشروع الدولة الاتحادية في العراق

فرحان قاسم

فرحان قاسم، عضو مجلس محافظة بغداد، بكالوريوس لغة عربية، بكالوريوس لغة إنجليزية، عمل في التدريس، والإشراف الاختصاصي، عضو نقابة الصحفيين العراقيين، عضو الجمعية الوطنية للدفاع عن حقوق الانسان في العراق. نشر مقالات عديدة في العديد من الصحف العراقية.

مقدمة

من بين (198) دولة في العالم، يقطن اليوم ما يقارب 40% من السكان في أكثر من 25 جمهورية فدرالية، غالبية هذه البلدان تجاوزت الكثير من ازماتها الاقتصادية والسياسية بفضل هذا النظام. ورغم الجعجعة التي تثار في بلدنا من بعض الاصوات بدوافع مسبقة أو نتيجة الجهل بطبيعة النظام الفدرالي فان الممارسة على المستوى العالمي اثبتت جدوى مثل هذا النظام سواء على المستوى الاقتصادي؛ حيث تجاوزت تلك الدول التخلف الاقتصادي والاجتماعي وان بدرجات متفاوتة، أو على المستوى السياسي، بمغادرة القمع والتعسف واعتماد آليات الديمقراطية في تبادل السلطة. واذا استثنينا عددا من البلدان ذات الحكم الدكتاتوري أو النظم الملكية المطلقة، فان الغالبية العظمى من البلدان التي لم تعتمد الفدرالية، لجأت الى النظام اللامركزي في الحكم كوسيلة لتحقيق اهدافها الاقتصادية في التنمية.

إن النظام الفدرالي لم يؤسس لحل المشكلة القومية فقط، كما يظن بعض المحللين بل هو نظام يعتمد تعدد او ثنائية السلطة وتوزيع الصلاحيات واستقلال السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية النسبي سواء كانت هناك تعددية اثنية أو لم تكن؛ فالكثير من الفدراليات القائمة ليس فيها مشكلة قومية أو مشكلة تعددية مكونات، ولكنها وجدت في النظام الفدرالي أداة فاعلة لتحقيق التقدم والازدهار والأمن مثل المانيا، الولايات المتحدة الامريكية، الامارات العربية الخ. ومع هذا تبقى الفدرالية وسيلة ناجعة لحل المسألة القومية في البلدان التي تتعدد فيها المكونات.

ويعد الحزب الشيوعي العراقي اول من تناول مفهوم الفدرالية في ادبياته سواء على المستوى النظري او البرنامجي العملي، ويعود استخدام هذا المفهوم منذ بداية

الخمسينيات من القرن العشرين حينما استخدمه الراحل عزيز شريف في احدى مقالاته آنذاك.

بعد فشل تجربة قانون الحكم الذاتي في 11 اذار 1970 بسبب سياسة الدكتاتورية الشوفينية البغيضة وبسبب ضيق الافق القومي لدى بعض الاحزاب القومية الكردية، تبنى الحزب شعار الديمقراطية للعراق والفدرالية لكردستان في بداية التسعينيات من القرن العشرين، كحل ليس فقط للقضية القومية الكردية، وانما كحل للقضية العراقية ككل. جرى هذا في وقت رأت فيه بعض الاحزاب القومية الكردية هذا الشعار سابقا لاوانه.

ما طرحه الراحل د. رحيم عجينة حول الفدرالية وما تبناه الحزب آنذاك، يرتبط بمفهوم الفدرالية القومية، بسبب متطلبات تلك اللحظة التاريخية التي اصبحت فيها القضية الكردية وحلها لا يتعلق بالجوانب الانسانية لمأساة الشعب الكردي التي سببتها له الدكتاتورية البغيضة وإنما اصبحت قضية سياسية من الدرجة الاولى، واصبح حل القضية العراقية عموما يمر من خلال حل القضية القومية الكردية.

ما اريد قوله هنا هو ان فكرة الفدرالية التي تبناها الحزب أولا والحركة القومية الكردية لاحقا انطلقت من عوامل موضوعية فرضتها متغيرات الواقع الموضوعية سواء الدكتاتورية وسياساتها القمعية الشوفينية الرعناء تجاه العراقيين عامة والكرد بشكل خاص، أو تطورات القضية الكردية خلال التسعينيات بعد قرارات مجلس الامن الدولي حينذاك. ولم يطرح الحزب اي اشارة الى فدرالية خارج اطار الحقوق القومية للكرد وضمان حقوق المكونات الاخرى. كما لم يطرح الحزب مخططا جاهزا لهذه الفدرالية وانما اعتمدها شعارا نضاليا ضمن مجموعة شعارات اخرى تتعلق بالديمقراطية السياسية والاجتماعية.

مشروع متعدد الأذرع

بعد ازاحة الدكتاتورية عن طريق احتلال اجنبي وشرعنته عن طريق الامم المتحدة بموجب قرار مجلس الامني الدولي المرقم 1483، اصبح العامل الخارجي عاملا داخليا مقررا لعب دورا حاسما في تشكيل البناء الفوقي عن طريق سلسلة من القوانين والتعليمات التي اصدرها (بول بريمر)، وعن طريق المستشارين الذي تولوا تنظيم وإدارة مؤسسات الدولة، اضافة الى تحطيم القاعدة الانتاجية الصناعية والزراعية العراقية، تمهيدا لخلق علاقات انتاجية مشوهة جديدة تنسجم وتوجهات اللبرالية الجديدة التي تسعى الى ابقاء العراق ذي الاحتياطي النفطي الهائل، بلدا تابعا ضعيفا تسوده الفوضى من خلال مشروع متعدد الاذرع:

- الذراع الاجتماعي: اعتمد المشروع الامريكي اسلوبين في المشهد الاجتماعي:

الاسلوب الاول وتمثل في:

1 – خلق فئات وطبقات اجتماعية جديدة داعمة لهذا المشروع عن طريق تنصيب قوى واحزاب وشخصيات رافقت الاحتلال تقوم بابتلاع المال العام عن طريق الفساد المالي والاداري، وتتحول من شرائح بيروقراطية الى مالكة لرأس مال مالي ضخم يتحكم بمصارف عديدة ومؤسسات اخرى ويساهم مع شركات عالمية.

2 – فتح مؤسسات وبنوك الدولة للحواسم، لخلق فئة اجتماعية من حطام المجتمع تلتحق بالفئات الطفيلية القديمة والمستحدثة.

3 – كما جلب الاحتلال عناصر دربها في جيكوسلفاكيا والولايات المتحدة الامريكية ليقوموا بمهمات متعددة، اهمها ان يكونوا فئة اجتماعية تتحكم بمقدرات الاقتصاد العراقي.

4 – كما استخدموا قسما من الكفاءات العراقية في زمن الدكتاتورية من سجناء عاديين في ابو غريب بجرائم فساد مالي وما الى ذلك، وعناصر اخرى لتحويلهم الى مقاولين واصحاب شركات تجارية وعقارية ووكالات مختلفة. وهكذا نجح المشروع الامريكي في خلق القواعد الاجتماعية التي تتيح له الوصول الى سلطة القرار السياسي والتشريعي والتنفيذي والقضائي لاحقا، بعد الاحتلال المباشر من خلال تلك العناصر الفاعلة والمؤثرة سواء في البرلمان او مجلس الوزراء او القضاء.

5 – اصبح لهذه القاعدة الاجتماعية الخطيرة امتداد عمودي مؤثر وامتداد افقي مؤثر واسع. بالنسبة للعمودي نجد لهذه القاعدة كتلا مهيمنة وشخصيات في موقع القرار السياسي والاقتصادي وهي تتوزع على الاحزاب الاسلامية الشيعية والسنية وبعض الاحزاب والشخصيات "العلمانية" حيث تتوحد المصالح تحت ظل المشروع الامريكي رغم اختلاف الايديولوجيات والمذاهب. وبالنسبة للأفقي نجد هذه القاعدة الاجتماعية تشمل تحالفا واندماجا احيانا بين كيانات اجتماعية وشخصيات ومؤسسات الدولة ومؤسسات القطاع المالي؛ حيث تحول شيوخ قبائل وعشائر وشخصيات من محامين وأطباء... الخ الى مقاولين وأصحاب شركات وأسهم في البورصة وبذلك انتقل الشيخ من علاقات قربى حميمية تجمعه مع وسطه الاجتماعي الى علاقة تمايز اجتماعي واضحة وجلية حولت أولاد العمومة الى عمال وحراس تابعين اقتصاديا له.

الاسلوب الثاني في الذراع الاجتماعي اعتمد على تشويه المشهد الطبقي الذي كان قائما في عهد الدكتاتورية البغيضة عن طريق:

1. تحطيم القاعدة الانتاجية الصناعية والزراعية ادى الى خلخلة في توزيع القوى الاجتماعية على خارطة المشهد الطبقي؛ فالطبقة العاملة الصناعية في القطاعين العام والخاص تعرضت الى انتكاسة كبيرة، سواء في مستوى معيشتها او في موقعها السياسي والاجتماعي ودورها في الصراعات بعد 2003. ونفس الانتكاسة واجهها الفلاحون الذين اضطر الكثيرون منهم الى هجر اراضيهم والانتقال الى مواقع طبقية أخرى، اغلبها هامشية في التسلسل الاجتماعي.

2. انتشار فئات جديدة واسعة جدا في المشهد الطبقي جاءت نتيجة اتساع فجوة التمايز الاجتماعي والذي انعكس على نسبة الفقر والبطالة، فظهر تسرب الطلاب وهجرة الفلاحين واتساع حجم الارامل والأيتام وبروز فئات "العتاكة" وباعة "الجنابر" والباعة من الاطفال في الطرقات وساحات المرور، والشحاذون والشحاذات وما الى ذلك.

3. اعادة دور الفئة الوسطى (شغيلة الفكر) ورفع شأنها من جديد بعد تعرضها لحملة تدميرية منظمة من قبل الحكومات المتعاقبة، عدا السنوات الاولى من ثورة الرابع عشر من تموز، ولكن ارتفاع ورفع دور هذه الفئة بعد 2003 جاء مقلوبا على رأسه لان التطور فيها حصل على رفع مستواها الاقتصادي، اما دورها التاريخي التنويري فقد تحول الى العكس لدى الغالبية العظمى من افراد هذه الفئة، وتحولت الى

جزء من ماكنة الاعلام التضليلي لدعم العودة الى الماضي والتمسك بالخزعبلات والطقوس البالية أو دعم التوجه اللبرالي المنفلت الداعي الى دعم توجهات اللبرالية الجديدة. ولم يبق من هذه الفئة الا الاقلية التي حافظت على دورها التنويري وهي تعاني التهميش والهديد والقمع والتعسف.

4. تحول المؤسسة الدينية، على الجانبين، الشيعية والسنية، الى قوة اقتصادية ضخمة تضم مشاريع صناعية وتجارية وزراعية، يعمل فيها عشرات الالاف من العراقيين فقراء ومثقفين، وقوة ايديولوجية كبرى تضم عددا من الفضائيات والبرامج ودور النشر والطباعة ويرتبط بهذه المؤسسة آلاف الدعاة و"الرواديد" وشيوخ المساجد والحسينيات كما ترتبط بها الكثير من المدارس والمعاهد والجامعات، وبهذا اصبحت هذه المؤسسة جزءا اساسيا من التحالف المهيمن بغض النظر عما يقال من وقوفها على الحياد.

• الذراع الايديولوجي: اعتمد المشروع على التعمية والتضليل لتمرير هدفه البعيد بتحويل العراق الى دولة ضعيفة تابعة للرأسمال العالمي من خلال الترويج لمشروع العولمة والرأسمالية المنفلتة مستخدما الكثير من الفضائيات والمؤسسات والمنظمات والشخصيات لتحقيق هذا الهدف.

• الذراع السياسي: الاحتلال الامريكي والقوى التي لهثت وراءه هيأت المستلزمات السياسية لنجاح مشروع الاحتلال وادامة زخمه وتأبيده وجعله واقعا معاشا باعتماد ما يأتي:

1 – الترويج لفكرة ان امريكا جاءت للقضاء على الدكتاتورية وإقامة الديمقراطية في العراق لغرض بناء نظام يحقق للعراق العدل والتقدم والازدهار والحرية والمساواة.

2 – بناء النظام السياسي على اساس المحاصصة الطائفية – الاثنية وهذه هي المفارقة الاولى والمضحكة والمبكية في نفس الوقت، لان المحاصصة تتقاطع من حيث الجوهر مع الاهداف المعلنة للمشروع في ادعاء بناء الديمقراطية والعدل والازدهار والتقدم؛ فالمحاصصة لا تحقق سوى عكس تلك الاهداف تماما.

3 – يستند هذا النظام السياسي – اي نظام المحاصصة – على الفدرالية في ادارة شؤونه، وهذه هي المفارقة الثانية في المشروع الامريكي واللاهثين حوله، اذ كيف يتحقق النظام الفدرالي وهو من حيث الجوهر يتقاطع مع المحاصصة تماما في الاهداف والآليات.

الدولة الاتحادية بين الواقع والآفاق

اولا: الجانب النظري وجذور اعداد النظام الاتحادي

بيّنت نظرية المعرفة الماركسية ان أي نظرية او مشروع يبقى نظرية ومشروعا الى ان تزكيه الممارسة والتطبيق، حين ذاك يتحول من مجرد نظرية ومشروع الى حقيقة ماثلة معاشة. أما إذا واجهت هذه النظرية أو المشروع صعوبات وصلت حد استحالة التطبيق فانه يعني امرين:

– ان يكون هناك خلل في التحليل اصلا، وان النظرية والمشروع يفتقر الى الواقعية وان قاعدة المعلومات التي استند اليها المشروع او النظرية لم تكن دقيقة، ما اوصل الى استنتاجات خاطئة تتقاطع مع امكانية تنفيذه، وهذا الأمر يتطلب اعادة النظر بالمشروع والنظرية كلها من جديد وإعادة

البحث لإنتاج معرفة جديدة ومشروع آخر يتطابق مع الواقع لكي يمكن تنفيذه.
– ان تكون النظرية أو المشروع مستندا الى قاعدة معلومات دقيقة، اي انه كان مستندا الى دراسة الواقع في حركته وعلاقاته المتشابكة وآفاقه، لكن الامكانات الذاتية حالت دون تطبيقه اي لا تتوفر امكانية لتحويله الى ممارسة.
هناك مجموعة اسئلة وملاحظات تواجهنا لغرض الوصول الى الاسباب الكامنة وراء الاستعصاء الذي واجهه مشروع الدولة الاتحادية في العراق ومنها:
• منذ التسعينيات كانت كردستان تتمتع بوضع سياسي واقتصادي خاص، بناء على قرارات الأمم المتحدة؛ اذ انها كانت تتصرف كحكومة مستقلة عن الدولة المركزية.
• استمر حكم بريمر من 21 نيسان 2003 الى 28 حزيران عام 2004.
• استمر (مجلس الحكم الانتقالي) من 12 تموز 2003 الى 21 حزيران 2004.
• صدر (قانون ادارة الدولة للمرحلة الانتقالية) التي بدأت في 30 حزيران 2004 وانتهت في 21 تموز 2005. ورد في المادة 4 من هذا القانون ما يأتي "نظام الحكم في العراق جمهوري اتحادي (فيدرالي)، ديمقراطي، تعددي، ويجري تقاسم السلطات فيه بين الحكومة الاتحادية والحكومات الاقليمية والمحافظات والبلديات والادارات المحلية. ويقوم النظام الاتحادي على أساس الحقائق الجغرافية والتاريخية والفصل بين السلطات وليس على أساس الاصل او العرق او الاثنية او القومية او المذهب"، وورد في المادة (32) من القانون ما يأتي: "يؤسس تصميم النظام الاتحادي في العراق بشكل يمنع تركيز السلطة في الحكومة الاتحادية. ذلك التركيز الذي جعل من الممكن استمرار عقود الاستبداد والاضطهاد في ظلم النظام السابق. ان هذا النظام سيشجع على ممارسة السلطة المحلية من قبل المسؤولين المحليين في كل اقليم ومحافظة. ما يخلق عراقا موحدا يشارك فيه المواطن مشاركة فاعلة في شؤون الحكم ويضمن له حقوقه ويجعله متحررا من التسلط."

المادة الثالثة والخمسون:

(أ) ـ يعترف بحكومة اقليم كردستان بصفتها الحكومة الرسمية للاراضي التي كانت تدار من قبل الحكومة المذكورة في 19 آذار 2003 الواقعة في محافظات دهوك وأربيل والسليمانية وكركوك وديالى ونينوى. ان مصطلح "حكومة اقليم كردستان" الوارد في هذا القانون يعني المجلس الوطني الكردستاني، ومجلس وزراء كردستان والسلطة الاقليمية في اقليم كردستان.
(ب) ـ تبقى حدود المحافظات الثمانية عشر بدون تبديل خلال المرحلة الانتقالية.
(ج) ـ يحق للمحافظات خارج اقليم كردستان، فيما عدا بغداد وكركوك، تشكيل اقاليم في ما بينها، وللحكومة العراقية المؤقتة ان تقترح آليات لتشكيل هذه الاقاليم، على ان تطرح على الجمعية الوطنية المنتخبة للنظر فيها واقرارها يجب الحصول، بالاضافة الى موافقة الجمعية الوطنية على أي تشريع خاص بتشكيل اقليم جديد على موافقة اهالي المحافظات المعنية بواسطة استفتاء.
(د) ـ يضمن هذا القانون الحقوق الادارية والثقافية والسياسية للتركمان والكلدو آشوريين والمواطنين الاخرين كافة.
من النص السابق يتضح ان النظام الفدرالي

في العراق هو "تصميم" صادقت عليه الادارة الامريكية ممثلة بحاكمها بريمر، والسبب في صدوره بهذا الشكل هو منع تركيز السلطة في الحكومة الاتحادية – وما كان لاي مشروع ان يمر دون موافقة الادارة الامريكية بغض النظر عن الخبراء او اللجان التي اعدت هذا المشروع –.

من خلال النصوص السابقة في قانون ادارة الدولة يتضح ما يأتي: (1 – النظام الاتحادي تشكل على الاساس الجغرافي والتاريخي وليس على الاساس القومي كأسلوب لحل المشكلة القومية الكردية وبقية المكونات من "الاقليات" وهذه قنبلة موقوتة انتجت فكرة الاقاليم وما تبعها من قانون مجالس المحافظات غير المرتبطة باقليم وتعديلاته. 2 – صدر النظام الاتحادي بناء على رغبة مسبقة "تمنع تركيز السلطة في الحكومة المركزية"، وليس بناء على دراسة معمقة ادت الى هذا الاستنتاج. 3 – صدر النظام الاتحادي كجزء من "قانون ادارة الدولة للمرحلة الانتقالية" الذي لم يستغرق اعداده سنة واحدة. وهذا مؤشر يبين الاسباب الحقيقية وراء الاستعصاء الذي واجه تطبيق هذا النظام).

ثانيا: الجانب التطبيقي "الممارسة"

بعد القوانين والاجراءات التي اعقبت صدور (قانون ادارة الدولة للمرحلة الانتقالية) وصدور دستور جمهورية العراق في 2005، نلاحظ ما يأتي:

1. جميع الاجراءات والقوانين في كردستان تشير الى توجه مقصود لتحويل كردستان الى كونفدرالية او دولة مستقلة، خلافا لما تم الاتفاق عليه في مجلس الحكم او الحكومات التي تلته. اذن حركة الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في كردستان جرت بطريقة تتقاطع مع النصوص القانونية للنظام الاتحادي المتفق عليه بغض النظر عما يقال من مبررات لهذا السلوك.

2. حكومات علاوي والجعفري والمالكي وحيدر العبادي تشير الى الحقائق والوقائع الاتية:

– ان هذه الشخصيات تخفي وراءها نزعات قومية ضيقة معادية لحقوق الاكراد وبقية المكونات الإثنية (علاوي ومن يقف معه ووراءه)، وتخفي نزعات اسلامسياسية معادية لحقوق القوميات كلها (الجعفري والمالكي والعبادي).

– جميع الحكومات التي اعقبت الاحتلال تحمل ميولا فردية تصل حد الدكتاتورية في اتخاذ القرارات، اضافة الى انها همشت الى حد كبير من دور الحكومات المحلية حتى بعد صدور قانون مجالس المحافظات غير المرتبطة بإقليم سنة 2008.

– واجه قانون مجالس المحافظات رقم 21 لسنة 2008 صعوبات جمة في التطبيق لذلك صدر التعديل الاول عليه برقم 15 لسنة 2010 الذي واجه هو الآخر صعوبات في التطبيق، فصدر التعديل الثاني رقم 19 لسنة 2013 الذي يوجه حاليا مقاومة ومعارضة شديدة من مجلس الوزراء وقادة بعض الكتل في البرلمان لذلك تجري الآن عملية اعداد التعديل الثالث لتحجيم صلاحيات الحكومات المحلية باتجاه تعزيز مركزية الدولة الاتحادية.

– واجه دستور جمهورية العراق سنة 2005 صعوبات كثيرة في التطبيق ارتباطا بصياغاته التي جاءت نتيجة توازنات وتوافقات بين قوى وتيارات متصارعة ايديولوجيا ومتقاطعة في المواقف الاقتصادية والاجتماعية، اضافة

الى دخول العامل الخارجي طرفا مباشرا او غير مباشر في تلك الصياغات. وقد وصل استعصاء التطبيق في الدستور حد ان إحدى الورش التي عقدت بمناسبة مرور عشر سنوات على صدوره اقرّت انه لم تشهد تلك السنوات العشر اي تطبيق كامل لأية مادة من مواده.

الاستنتاجات

بعدما تم عرضه من حقائق ووقائع لا بد من معرفة الاسباب الحقيقية وراء عدم امكانية تطبيق النظام الاتحادي كما ورد في نصوصه الدستورية: فهل السبب يكمن في ادوات تطبيقه؟ اي هل السبب يكمن في الاشخاص او الاحزاب المهيمنة التي تولت الاشراف على تطبيقه؟ ام يكمن في نظام المحاصصة الذي يتقاطع اصلا مع النظام الاتحادي؟ ام في عجز النصوص القانونية عن تمثيل الواقع؟ اي ان التصميم الذي جاء به قانون ادارة الدولة غير قابل للتطبيق بسبب عجزه عن محاكاة الواقع، اذا لا يكفي ان تكون هناك مشكلة قومية او تعددية في مكان ما لكي تطرح نظاما اتحاديا منسوخا عن نماذج نجحت في اماكن اخرى كبديل عن دكتاتورية بائدة.

من خلال تجربتي في العمل بمجلس محافظة بغداد اعتقد جازما ان السبب في استعصاء تطبيق النظام الاتحادي، يكمن في العاملين كليهما، واعني بذلك ان تصميم النظام الاتحادي لم يكن منطلقا من حركة واقعنا الملموسة، وإنما نتاج رغبة واستنساخ تجارب اخرى واسقاطها على الواقع العراقي، وكذلك فان القوى المهيمنة غير مؤهلة لبناء عراق مدني ديمقراطي اتحادي.

وبدلا من ان تتحول مؤسسات النظام الاتحادي (السلطة الاتحادية وسلطة اقليم كردستان والحكومات المحلية) الى عامل يشيع الاستقرار والتقدم، اصبحت ادوات لتكريس الانقسام والفوضى والفساد والتخلف الاقتصادي والاجتماعي. ولم يعد خافيا ان الاصوات التي تدعو فيها الى اعتبار مجالس المحافظات حلقات زائدة ومضرة، تجد لها ما يبرر دعوتها تلك. وأنا اعلن بكل صراحة ان تلك المجالس بوضعها الحالي فقدت دورها التشريعي والرقابي، واصبحت عاملا اساسيا في تكريس الفساد والفوضى الضاربة في كل مكان. ونفس التوصيف ينطبق على مجلس النواب حيث اصبح عاملا ضاغطا على الجهاز التنفيذي لتكريس الفساد واستجواب وزير الدفاع في البرلمان في 2016 كشف الدور الشنيع لهذا البرلمان. اما دوره التشريعي فيكشفه لهاثه المتسارع لاصدار قوانين تتقاطع مع ابسط متطلبات الدولة المدنية الديمقراطية. كما لا يختلف الدور السلبي الذي يلعبه مجلس الوزراء الذي تنخر فيه المحاصصة، واصبح الحديث عن الفساد المستشري في هذه المؤسسات مألوفا وشائعا. والوضع نفسه نجده في مؤسسات اقليم كردستان التشريعية والتنفيذية.

ان المشهد السابق يفرض ما يأتي:

أولا: ثمة حاجة ملحة الى اعادة دراسة النصوص الدستورية جميعها وخصوصا تلك التي تتعلق بالسلطات في المادة (47) والمواد التي تليها، المتعلقة بصلاحيات مجلس النواب ومجلس الاتحاد، والسلطة التنفيذية سواء رئيس الجمهورية أو مجلس الوزراء ثم السلطة القضائية والهيئات

المستقلة، ثم اعادة دراسة الباب الرابع المتعلق باختصاصات السلطة الاتحادية في المادة (110) والاختصاصات المشتركة بين السلطة الاتحادية والأقاليم والحكومات المحلية، واعادة دراسة قانون مجالس المحافظات وتعديلاته. اي باختصار إعادة انتاج رؤية جديدة او نظرية جديدة في الحكم تتناسب مع الحاجات الاساسية التي يتطلبها المجتمع العراقي وفق حركة هذا الواقع.

ثانيا: اثبتت الوقائع ان القوى والتحالف المهيمن الراهن لم يعد قادرا على المضي بمهمة "الدولة الاتحادية الواحدة المستقلة ذات السيادة الكاملة"، كما ورد في الدستور بل اصبح هذا التحالف عائقا امام قيام "نظام جمهوري نيابي ديمقراطي" حقيقي، وتحول الى اداة ولعبة بيد قوى اقليمية ودولية تسعى الى ابقاء العراق دولة ضعيفة تابعة رغم امكانياته وموارده الطبيعية والبشرية الغنية. وهذا يؤكد ما ذهب اليه المؤتمر الوطني العاشر للحزب الشيوعي العراقي (1 – 3 كانون الاول 2016) من شعار التغيير على طريق الدولة المدنية الديمقراطية.

ثالثا: وانطلاقا مما سبق فان الحزب يواجه ظروفا معقدة للغاية تتطلب منه رؤية جديدة في مجال رسم ستراتيجيته وتكتيكاته لتهيئة المجتمع العراقي الى معارك صعبة على طريق تغيير الدستور والنظام الاتحادي الراهن، بما يؤهله لبناء البديل الوحيد عن الدكتاتورية البغيضة باقامة الدولة المدنية الديمقراطية.

مخاطر الاقتراض الخارجي على عملية التنمية الاقتصادية

إبراهيم المشهداني

ابراهيم المشهداني بكالوريوس في الاقتصاد من الجامعة المستنصرية عام 1974/1973، وخبير اداري.

المقدمة

تعد الديون الخارجية من اخطر القضايا التي تواجهها الدول النامية، ومن ضمنها العراق بعد تراجعه في العقود الثلاثة الأخيرة بسبب الحروب والحصار الاقتصادي وتخبط السياسة الاقتصادية بعد التغيير السياسي في عام 2003، والتي تقف في طريق سعيها نحو تحقيق التنمية والخروج من أزمة الديون الخارجية التي لا تزال تلاحق البلاد، وتفاقم من مشاكله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والخروج من بوتقة التخلف الاقتصادي واللحاق بركب الدول المتقدمة. ولعل هذه المشكلة المالية تعد أيضا العامل الأهم في توجيه العلاقات الخارجية على النحو الذي يبقي العراق تحت هيمنة الدول الدائنة ولمصلحتها، مما يتعين عليه مراجعة سياسة الاقتراض الخارجي والبحث عن السبل الكفيلة للتحرر من أسر هذه الديون، من خلال بناء استقلال اقتصادي، ورسم سياسة تفعيل المصادر الداخلية للموارد المالية، والابتعاد عن الحلول السريعة المتمثلة باللجوء إلى الاقتراض الخارجي لحل المشاكل التي تواجهها الحكومة، وإلا فانه سيظل البلد في موقع التابع والخادم لأعباء هذه الديون ولآماد طويلة.

عوامل نشوء وتطور القروض الخارجية

مرّت الدول النامية في القرن الماضي بالتدهور في أوضاعها السياسية والاقتصادية والمالية ودخولها في دوامة من الضغوط الخارجية، في أجواء تنامي ثقل الدول الرأسمالية وتعاظم اقتصادياتها؛ ففي السبعينيات من القرن العشرين حققت فوائض ضخمة من الموارد المالية في وقت كانت الدول النامية تشهد ندرة من العملات الأجنبية، ما فتح الأبواب أمام الدول الرأسمالية لاستغلال حاجة هذه البلدان

لنقل الفائض من دول الوفرة المالية الى البلدان النامية وأخذت البنوك التجارية تتسابق في إمداد الدول الفقيرة بالأموال اللازمة لتخطي مشاكلها الاقتصادية. غير أنه ومع مرور الوقت وجدت هذه الدول نفسها تتخبط في لعبة القروض الدولية بما فيها الدول النفطية.

وفي عام 1982 بدأت أزمة الديون الخارجية بالظهور بعد ان عجزت بعض الدول المدينة عن تسديد ديونها مثل المكسيك والأرجنتين وتوقفت عن دفع فواتير دينها وظهرت دول أخرى مماثلة تطالب بجدولة ديونها الخارجية، وما ضاعف من هذه الأزمة هو تعرض الدول الرأسمالية الدائنة إلى الكساد والركود الاقتصادي، وهنا وجدت نفسها هي الأخرى غير قادرة على استرداد ديونهما، الامر الذي دفع بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي الى البحث عن حلول لاسترداد ديونها، بالترافق مع الدول المدينة التي راحت هي الأخرى تبحث عن حلول لتسديد ديونها.

وبسبب عجز حكومات الدول النامية عن تسديد ديونها الخارجية، استمر تصاعد حجم الديون وتضاعفت سبع مرات خلال العقدين الأخيرين؛ فقد ازداد حجم الديون من 49 مليار دولار في عام 1980 إلى 325 مليار دولار في عام 2000 دون ان تحصل زيادة في الناتج المحلي الإجمالي؛ حيث تسجل دول أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي الجزء الأكبر من هذه الديون بنسبة 30%، من جملة الديون الخارجية المستحقة حتى عام 1974، تليها مجموعة دول شرق آسيا وبحر الباسيفيك بنسبة 16% ثم منطقة شمال إفريقيا والشرق الأوسط ومنطقة جنوب أسيا لكل منها بنسبة 15.2%، تليها الدول الواقعة على البحر المتوسط بنسبة 13.1% ثم مجموعة دول إفريقيا الجنوبية بنسبة 10.5%. ويمكن تلخيص أهم أسباب عجز الدول النامية عن تسديد ديونها الخارجية ضمن مجموعتين من الاسباب: داخلية وأخرى خارجية.

الأسباب الداخلية :

1. الميل إلى الاستثمار من اجل التنمية وحاجتها إلى كثافة رأسمالية وتكنولوجية متقدمة.
2. سوء توظيف القروض، تمثل في المبالغة في اللجوء إلى الاقتراض خلال فترة السبعينيات لكن رافقها سوء التخطيط والتخبط في السياسات الاقتصادية والإفراط في الاستهلاك الترفي وفساد الحكومات.
3. تهريب رؤوس الأموال إلى الخارج، نتيجة فساد الحكومات، ما ادى إلى تهريب القروض وتوظيفها في مشروعات شخصية.
4. غياب التوازن في توظيف القروض على القطاعات الاقتصادية كالتركيز على الصناعة وإهمال الزراعة، مما يؤدي الاعتماد على الاستيراد الخارجي لسد الحاجة من المواد الغذائية، أي إعادة تصدير القروض.
5. العجز المتزايد في ميزان المدفوعات، بسبب تزايد الواردات السلعية على حساب الصادرات، وهذا ادى الى اختلال في الموازين التجارية.

الأسباب الخارجية:

1. تتمثل في ارتفاع أسعار الفائدة، مما

أدى إلى مضاعفة المديونية عبر السنين من خلال تزايد تكاليف خدمة الديون، لتتحول إلى جزء كبير من صافي الديون، ويستحوذ على مبالغ كبيرة من النقد الأجنبي.

2. انخفاض الأسعار العالمية للمواد الخام كالبترول والمواد الخام الأخرى، مما أدى في النهاية إلى عجز في موازين المدفوعات، وبالتالي لمزيد من الاقتراض الخارجي.

3. آثار الركود التضخمي السائد في معظم الدول الرأسمالية المنعكس على استيراد الدول النامية التي اندمجت اقتصادياتها مع اقتصاد الدول الرأسمالية، فأصبحت تابعة لها تجاريا وغذائيا ونقديا وتكنولوجيا وحتى عسكريا.

المؤسسات المالية الدولية

بعد انتهاء الحرب العامية الثانية وتعرض الدول الأوربية وقسم من دول إفريقيا ودول آسيا التي دخلت الحرب تطوعا أو مكرهة إلى تدمير القاعدة التحتية لهذه الدول ومنها الدول النامية التي لحق بها الدمار بصورة غير مباشرة، ظهرت الحاجة إلى الاقتراض لإعادة بناء قاعدتها التحتية وإعادة تنشيط اقتصادياتها وقادت هذه الأوضاع إلى نشوء مؤسسات مالية دولية قادرة على توفير السيولة المالية والاستشارة في عملية إعادة البناء ومن هذه المؤسسات:

اولا/ صندوق النقد الدولي
International Monetary Fund

لقد تم إنشاء هذا الصندوق رسميا في 27 /12/ 1945 وانبثق عن مؤتمر بريتون وودز الذي وقعت على قراراته 29 دولة، شاركت في المؤتمر. وكانت أهدافه الرئيسية أول الأمر: توفير القروض المالية قصيرة الأجل لمساعدة الأعضاء الذين يواجهون عجزا في موازين المدفوعات، وأيضا إعطاء المشورة للدول الأعضاء حول تحسين أداء نظامهم النقدي. وهذا الصندوق يعمل ضمن نظام بريتون وودز الذي تطورت أعماله بإقراض الدول النامية. وعانى هذه الصندوق في أثناء التأسيس من صراعات أو تناقضات بين الدول الكبرى المؤسسة: بريطانيا والولايات المتحدة، يمثل الأولى والدول الأوربية ليونارد كينز، ويمثل الثانية هاري ديكستن وايت (انتحر عندما كان وزيرا للخزانة الأمريكية بسبب اتهامه بالشيوعية من قبل مكارثي وزير الداخلية الأمريكية آنذاك)، وكلاهما اقتصاديان بارزان بوجود ممثلين يمثلون 44 دولة. وانتهت الصراعات إلى نتيجة مؤداها تحقيق حصص لكل عضو في الصندوق، وحسب أهمية الدولة الاقتصادية، وكانت للولايات المتحدة حصة الأسد وبلغ مجموع مبالغ الحصص حينذاك 9 مليارات دولار، وأصبح الصندوق في نهاية الأمر بنكا للإقراض بعملة الدولار، والإشراف على اقتصاديات الدول المقترضة، لكي لا تزداد ديونها، على أن يكون لأمريكا القول الفصل في القرارات حيث تمتلك ثلث رأسمال الصندوق.

ثانيا/ البنك الدولي The World Bank

هيكلية البنك:
يمكن توضيح أهداف ومهام كل مؤسسة في الجدول الآتي:

اسم المؤسسة		تاريخ	الدول الأعضاء	الأهداف	الإدارة
البنك الدولي	مؤسسة التمويل الدولية	١٩٥٦	١٨٥ دولة	منح القروض والاستثمار بحصص في المشروعات الاستثمارية، وتوفير المعونة الفنية لهذه المشروعات في الدول النامية	- مجلس المحافظين لكل دولة عضو في مجلس المحافظين يجتمع سنويا.
	الوكالة الدولية لضمان الاستثمار	١٩٨٨		تزويد القطاع الخاص بتأمين المخاطر السياسية، بهدف تشجيع الشركات على الاستثمار في الدول النامية، وتوفر الخدمات القانونية والمشورة الإستراتيجية.	- مجلس الإدارة يتكون من ٢٤ عضوا من بينهم ٨ أعضاء أساسيين للدول الأكبر اقتصاديا، من بينهم السعودية - مصادر التمويل من خلال إصدار سندات في الأسواق العالمية وتحصيل فوائد من الدول المدينة
	البنك الدولي للإنشاء والتعمير	١٩٤٤		ولا يقدم المساعدة إلا للمشروعات التي يحتمل أن تحقق عائدا حقيقيا، ويمنح القروض للدول التي تتمتع بأهلية ومراكز مالية تمكنها من السداد.	
	مؤسسة التنمية الدولية	١٩٦٠		مساعدة البلدان الأكثر فقرا في العالم، وتهدف الى تخفيض أعداد الفقراء من خلال: • تقديم قروض بدون فائدة • منح لبرامج تستهدف تعزيز النمو الاقتصادي • تخفيف حدة التفاوت وعدم المساواة • تحسين الأحوال المعيشية للشعوب	

تأسس البنك الدولي للإنشاء والتعمير (المعروف الآن بالبنك الدولي) في عام 1945 لمساعدة أوروبا على الانتعاش واستعادة عافيتها من الآثار المدمرة التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، وقد أدى نجاح هذا المشروع إلى تحويل انتباه البنك في غضون سنوات إلى البلدان النامية خصوصا الأشد فقرا، لتزويدها بالقروض بشروط اخف. والبنك اشبه بمؤسسة مالية تعاونية، عدد أعضائها 187 دولة مساهمة فيه.

ومهما كانت عبارات التجميل التي تطلق على هاتين المؤسستين الدوليتين، وخصوصا ما يتعلق بتنمية البلدان النامية؛ فان البعد السياسي في أهدافهما واضحة المعالم في الكثير من تطبيقاتها على المستوى الدولي، مثال ذلك ففي عام 1947 كان القرض الأول المقدم من البنك الدولي الى فرنسا شديدا في قسوة شروطه؛ فقد طلبت فرنسا قرضا بقيمة 500 مليون دولار فلم يوافق البنك إلا على 250 مليون دولار، وبشرط الموافقة على شرط وزارة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية القاضي بحل تحالف الحكومة مع الحزب الشيوعي الفرنسي، الناتج عن انتخابات ديمقراطية؛ فوافقت الحكومة الفرنسية على مضض، وحلّت ذلك التحالف وبعد ساعات وافق البنك الدولي على هذا القرض، وينطبق ذلك على طلب مصر قرضا لإنشاء السد العالي.

المديونية العراقية

تشكل المديونية العراقية في الظروف الحالية واحدة من أثقل الأعباء على الميزانية العراقية وتزداد هذه المديونية خطورة كلما استمرت الحكومة بالاقتراض الخارجي؛ فعندئذ سيكون من الصعب معالجة هذه المديونية التي ستتضاعف مع مرور السنين في حال بقيت أسعار النفط التي تشكل النسبة الأعلى من تمويل الموازنة بمستويات منخفضة، وفي حال بقيت الموارد الاقتصادية بمصادرها الداخلية في أسوأ حالاتها مع استمرار تخلف القطاعات الاقتصادية الإنتاجية، واستمرار تخلف السياسة المالية والأخطاء التي تصاحبها مع السياسة النقدية ومع استمرار الفساد الإداري والمالي وبقاء الحكومة متفرجة على عمليات نهب المال العام وتهريب العملة وغسيل الأموال وضعف أداء الجهاز الإداري والجهاز القضائي مع استمرار الصراعات الداخلية

على السلطة والمال، مما يتطلب تناول كل هذه التحديات واقتراح المعالجات الممكنة اخذين بنظر الاعتبار ما يراه الاقتصاديون والمعنيون بهذا الشأن داخل الحكومة وخارجها والدوائر والمؤسسات البحثية، في العراق وخارجه.

السياسة المالية

تتولى وزارة المالية تنفيذ قانون الإدارة المالية والدين العام رقم 95 لسنة 2004 على أساس البرنامج الحكومي ومنهجيته في تنفيذ هذا البرنامج؛ فمفهوم السياسة المالية حسب تعريف الدكتور ماجد الصوري: "يشمل طريقة وآليات وإجراءات إعداد الموازنة وتنفيذها والرقابة على التنفيذ وربطها بالمؤشرات الاقتصادية الكلية، إضافة إلى السياسة الضريبية وإدارة الدين العام وكل ما يتعلق بمصادر الإيرادات واوجه النفقات وإدارة المؤسسات التي لها علاقة بالإيرادات والنفقات). وقد اصدر بريمر رئيس سلطة الائتلاف المؤقتة (سلطة الاحتلال – المحرر) وجاء في القسم الأول من هذا القانون ان الغرض من تنظيم الإجراءات التي تحكم تنمية وتبني وإدارة وتنفيذ الموازنة الفيدرالية للعراق والأمور المتصلة بها والتي تشمل القرض العام والضمانات والرقابة الداخلية والمحاسبة والتدقيق وتكون مبادئ الشفافية والشمولية والانسجام ذات أهمية جوهرية عند تهيئة وتنفيذ الموازنة الفيدرالية للعراق والأمور المتصلة بها.
ويؤخذ من غرض وهدف القانون، أن أهم الوظائف لهذا القانون تتمحور قبل أي شيء آخر في إدارة الدين العام وإعداد الموازنات السنوية والرقابة والتدقيق، فهل أنجزت وزارة المالية هذه المهام وكيف؟
إن التجربة المتحققة منذ صدور هذا القانون تجسد إخفاقا كبيرا قد وقع في ظل هذا القانون وابرز الظواهر القاتلة للاقتصاد العراقي عمليات الفساد والضعف الإداري وخاصة في غياب الشفافية وضعف الرقابة والتدقيق إلا في حالات نشرت في وسائل الإعلام بنطاق ضيق.

السياق التاريخي للديون الخارجية العراقية

خلال فترة الحكم العثماني في العراق وتعرضه إلى أزمة مالية خاصة بعد حرب القرم، لجأت الحكومة العثمانية إلى الاقتراض من الدول الأوربية، ولم تحظ الولايات العراقية بشيء من هذا القرض للاسهام في بناء القاعدة التحتية، بل على العكس كانت السلطات العثمانية تفرض المزيد من الضرائب على الحيوانات والشجر والأفراد والمساحات وتستخدمها في دعم الأمن والجيش (3). وبعد هزيمة الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الثانية وإحكام الجيش البريطاني احتلاله على العراق بدا البريطانيون بتركيز إدارة الموارد المالية وتجميعها في المناطق التي يسيطرون عليها عن طريق ما كان يسمى بـ "مجلس الموارد" الذي كان بمثابة وزارة المالية ويقوم بإعداد الموازنات وتنظيم السجلات المحاسبية ومراقبة النفقات وتوزيع موظفي المالية بجباية الضرائب وخلال فترة الاحتلال كانت فوائض الموازنة تتزايد حتى وصلت 900 مرة بسبب عدم القدرة على إنفاقها لقلة وضعف الكوادر المالية، هذا إضافة إلى غياب العدالة في توزيع الثروة ومعالجة

الفقر في اعلى مستوياته آنذاك، لعدم وجود آليات علمية لتوزيع الثروة وقتذاك. وبعد تشكيل الحكومة العراقية في عام 1921 عين ساسون حسقيل وزيرا للمالية الذي وضع التعليمات لأنظمة المحاسبة الدفترية وأصبحت وزارة المالية مسؤولة عن جمع وإدارة الضرائب عدا الرسوم الكمركية التي ظلت تحت سلطة الاحتلال البريطاني.

الفترة من 1958 – 1963

شهدت هذه الفترة تطورات اقتصادية مهمة على مختلف المستويات، فقد استحدثت وزارة التخطيط بدلا من (مجلس الاعمار) وتم تحرير البترول من الشركات الأجنبية وتحرير العملة من الارتباط بمنطقة الإسترليني والتوسع في تقديم الخدمات، وأنشئ الكثير من المصانع عبر منظومة من الاتفاقيات مع الاتحاد السوفييتي، وتم دمج الموارد النفطية بالموازنة. وفي هذه الفترة أصدرت الحكومة (قانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958) الذي تم بموجبه توزيع الأراضي التي كان يمتلكها الإقطاع بموجب قوانين الاحتلال البريطاني على الفلاحين، ما ترك آثاره على المسألة الزراعية اقتصاديا واجتماعيا. غير أن هذه الفترة لم تستمر طويلا اذ تعرضت إلى انتكاسة كبيرة بسبب الصراع الداخلي والتآمر الخارجي فأجهضت ثورة تموز بانقلاب شباط 1963.

الفترة من 1963 – 1968

بعد انقلاب شباط عام 1963 عمّت الفوضى بالقضايا المالية فلا توجد موازنة للدولة، وكان الإنفاق ارتجاليا وحدود النفقات مفتوحة؛ حيث لم يتم تسجيلها ولم تخضع للتدقيق. كما تم إلغاء قرار تأميم الأراضي غير المستغلة من قبل الشركات النفطية الأجنبية الذي أصدرته حكومة ثورة 14 تموز، ويبدو أن ذلك وغيره من الإجراءات السياسية ضد القوى الوطنية كان ثمنا لدعم الانقلاب من قبل القوى الأجنبية.

وفي عام 1964 ونتيجة للتبدل السياسي بانقلاب تشرين الثاني عام 1963 من قبل رئيس الجمهورية آنذاك عبد السلام عارف، قامت الحكومة التي يهيمن عليها القوميون الموالون لحكومة عبد الناصر بتأمين مشاريع القطاع الخاص الكبيرة والمتوسطة، وتمويلها، وبذلك تم إعداد بنود نفقات وإيرادات هذه المشاريع خارج الموازنة الحكومية.

وبعد انقلاب 17 تموز 1968 البعثي دخل العراق مرحلة جديدة من نظام الحكم الشمولي والإدارة المركزية للاقتصاد؛ ففي هذا النظام تغيرت الأمور المالية فأصبحت السنة المالية تبدأ من الأول لكانون الثاني وتنتهي في الحادي والثلاثين من كانون الأول من نفس العام، واعتمد النظام السرية التامة في إعداد الموازنات السنوية، تقوم فيها الوزارات بإعداد موازناتها التشغيلية التي لا تزيد على 8% من إجمالي الموازنة الحكومية. فيما تتولى وزارة التخطيط إعداد الموازنات الرأسمالية بجانبها الإنفاقي وتنفيذ الخطط الحكومية طويلة الأجل وقصيرة الأجل، بالتعاون مع وزارات الدفاع والصناعة والزراعة والنفط. وفي منتصف السبعينيات ونتيجة لتعاظم الموارد النفطية تطورت حركة التصنيع على المستويين الحكومي والقطاع الخاص، وأقام النظام بمجموعة من الاتفاقيات مع الاتحاد السوفييتي وخاصة بعد تأميم

النفط في عام 1972 وارتفاع أسعار النفط في عام 1974 نتيجة للسياسات التي اتخذتها منظمة الدول المنتجة للنفط (أوبك)، على أن تمويل المشاريع الاقتصادية التي تطورت في هذه الفترة لم تقتصر على المصادر الداخلية، بل اقترنت بالاقتراض الخارجي. ففي عام 1975 بلغت الديون الخارجية 136،9 مليون دينار عراقي، ووصلت في عام 1980 إلى 145،4 وفي عام 1981 اقترضت الحكومة 165،5 مليون دينار، وفي عام 1982 اقترضت 500 مليون دينار. وخلال السنوات (1980 – 1984) اقترضت الحكومة 9361 مليون دينار من الدول العربية، وهو تمويل مؤقت يعتمد على أسلوب التمويل الآجل، ومرهون فقط باستمرار الحرب. وخلال فترة الحرب دخل العراق في فخ مديونية خارجية طويلة المدى، ومرحلة توقف عمليات التنمية الاقتصادية غير المتعلقة بالحرب. علما ان الحكومة العراقية وفرت فائضا ماليا بحدود 39 مليار دولار.

الأوضاع المالية بعد التغيير في عام 2003

شهدت الفترة ما بعد 2003 تغيرات مهمة وخاصة في المجال المالي والنقدي، فتم إصدار قانون البنك المركزي رقم 46 لسنة 2004 الذي كان يستهدف الحفاظ على استقلاليته والانتقال إلى الاقتصاد الحر وإبعاد الحكومة عن التدخل في استقلالية البنك، وكذلك إصدار عملة وطنية موحدة واتخاذ الخطوات اللازمة لتعزيز الاحتياطي النقدي من النقد الأجنبي والاستفادة من المؤتمرات الدولية الهادفة الى تخفيض المديونية الخارجية ومنها مؤتمر باريس للدول المانحة الذي توج بتخفيض ديون دول هذا النادي بنسبة 80% وما تبقى منها ديون بدون فائدة، لتدعيم الاحتياطي من النقد الأجنبي، مما ساعد في دعم سعر صرف الدينار العراقي إزاء العملات الأجنبية وخاصة الدولار. كما شهدت أيضا صدور قانون المالية وإدارة الدين العام المرقم 95 لسنة 2004 وكان الهدف منه:

- سياسة الموازنة وإدارتها في مجال إعادة النظر بقواعد وإجراءات تنظيم الموازنة وتنظيم توقعات الإيرادات والنفقات بما يستجيب لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتطوير إدارة السيولة المالية، وبناء الحسابات وإجراءات التدقيق على أسس حديثة معترف بها دوليا.
- إعادة النظر بالسياسة الضريبية وإدارتها من حيث القوانين والقواعد وتطوير نظم الالتزام الضريبي.

ومن الفرضيات الاخرى التي تدخل ضمن قانون البنك المركزي العراقي رقم 46 لسنة 2004 تطوير المؤسسات المصرفية من حيث القوانين والأنظمة الحاكمة وتطوير أنظمة المدفوعات في الداخل وفي العلاقات الخارجية وإعادة هيكلة المصارف وتطوير نظام الإشراف والرقابة باستخدام التطور التكنولوجي.

أعباء الديون الخارجية

بعد التغيير السياسي الذي تم في عام 2003 من قبل الاحتلال الأمريكي وحلفائه، واستلام السلطة بإدارة بول بريمر السفير الأمريكي في العراق، وأعقبه مجلس الحكم في عام 2004 بذلت جهود ضخمة من اجل الكشف عن حجم الديون العراقية بين ما هو

قانوني وموثق، وما هو مكروه ويتعارض مع اللوائح الدولية، خاصة القروض التي وظفت في تدعيم مشاريع الحروب أو الحفاظ على النظام الديكتاتوري، ومعظمها في حماية رأس النظام، وليس في عملية التنمية الاقتصادية الإنتاجية والبشرية. وتم الترويج حينها أن مجمل هذه الديون قد يزيد على 400 مليار دولار معظمها غير موثق. وتبين بعد الجرد والتصفية، تسوية الكثير منها؛ إما بسبب عدم شرعيتها أو قيام النظام السابق بتسديد قسم منها خصوصا قروض ما قبل الحرب، وتبين إن مجموع الديون يبلغ 125 مليار دولار. وبعد سلسلة من المؤتمرات عقدتها الدول المانحة بما فيها دول نادي باريس في عمان ودبي ومدريد، كان للولايات المتحدة الأمريكية دور محوري، حيث تم تخفيض ديون نادي باريس بنسبة 80% وما تبقى منها بدون فائدة، باستثناء مطالبات دول الخليج التي لم يتم الإفصاح عنها وعن القروض التجارية.

تشير المصادر إلى أن من بين الديون المشار إليها في أعلاه والبالغة 125 مليار دولار، كان هناك 51،646 مليار دولار، هي ديون لدول نادي باريس، و9،862 مليار دولار لدول خارج نادي باريس، و4،859 مليار دولار لدائنين تجاريين في القطاع الخاص، و13،948 مليار دولار لدائنين تجاريين، تزيد مطالبات كل منهم على 35 مليون دولار، بالإضافة إلى ديون بعض الشركات اليابانية الخاصة التي بلغت 437،3 مليون دولار. هذا بالإضافة إلى تعويضات عن الأضرار التي ألحقها العراق بالمنشئات النفطية الكويتية البالغة 52،4 مليار دولار تم تسديد 47،8 مليار دولار منها، من العام 1991 وحتى شهر تموز، ولم يبق سوى 4،6 مليار دولار تم تأجيلها للعام 2017، وما يتبقى من الديون حسب هذه الأرقام، 44،26 مليار دولار بما فيها التعويضات الكويتية.

القروض الخارجية بعد العام 2003

أظهرت معطيات قسم الديون الخارجية في وزارة المالي المنشورة على المواقع الالكترونية تفاصيل القروض التي حصلت عليها الحكومة العراقية، من دول عديدة والجدول التالي يظهر هذه التفاصيل:

جدول رقم (1)

تفاصيل القروض الخارجية العراقية بعد العام 2003 (بملايين الدولارات)

الدولة او المؤسسة الدائنة	مبلغ القرض	السنة	مدة القرض بالسنين	نسبة الفائدة السنوية	كلف إدارية	عمولة الالتزام	مبلغ الالتزام	المبلغ المتبقي	سنوات الامهال
القرض الياباني	٤،٧	٢٠١٥	٤٠ سنة	%٦٥	---	%١	---	----	١٠
البنك الدولي للانشاء والتعمير	.،٥٠٠		٣٥سنة		.،٧٥	%٥	---	---	١٠
نفس البنك اعلاه	.،٢٥٠	٢٠١٠	١٥	%١،٢	---	---	---	---	٤
نفسها	.،٣٥٥	٢٠١٤	١٥	%٣	---	---	---	---	٥
صندوق النقد الدولي	٢،٣٧٦	٢٠١١	٥	---	.،٥	.،١٥	١،٠٥٦	---	٣
القرض الايطالي	٤٠٠ مليون يورو	٢٠١١	١٦	.،٢٠	---	---	١٠٠ مليون يورو	٣٠٠ مليون يورو	٨
البنك الإسلامي للتنمية	٢١٧	٢٠١٤	١٠	الفائدة + نقطة الاساس	---	---	---	---	٤
البنك الدولي لاعمار المناطق المحررة	٣٥٠	٢٠١٥	---	---	---	---	---	---	---

ويظهر من الجدول أعلاه أن العراق أقدم على الاقتراض من المؤسسات الدولية وبنوك ودول أخرى للأعوام 2010 و2011 و2014 في وقت دخلت إلى العراق موارد مالية كبيرة جدا كان مجموعها للفترة من 2003 وحتى عام 2016 ما تعدل 927 مليار دولار، وحقق فوائض مالية لغاية منتصف عام 2014 حسب العديد من المصادر، تقدر بـ 125 مليار دولار، فلو وظفت جميعها في خطة إستراتيجية مستدامة، أخذت طابع الإلزام من مجلس النواب، لحقق العراق قفزة

اقتصادية واجتماعية غير معهودة، بالرغم من الوضع الأمني غير المستقر الذي كان من أهم أسبابه الفساد المالي والإداري، الذي صادر هذه الموارد وبددها على مشاريع وهمية وفاشلة، بالإضافة إلى التدخلات الأجنبية.

أسباب لجوء العراق إلى الاقتراض الخارجي

لا بد لأي باحث رصين أن يتساءل عن الأسباب التي دفعت بالحكومة العراقية إلى اللجوء إلى الاقتراض الخارجي، بالرغم من التدفقات النقدية الهائلة التي دخلت خزينة الدولة وقد تحول هذا التساؤل من الطرق التحليلية للباحثين إلى تساؤل للرأي العام العراقي.

أولا- إشكالية السياسة المالية

القانون رقم 95 لسنة 2004 استهدف إنشاء هيكل شامل لمباشرة السياسة الضريبية وسياسة الموازنة، بما يتفق وأفضل الممارسات الدولية، ومن خلال وضع مراحل منظمة لصياغة الموازنة الفدرالية، وعدد من التقارير المطلوبة، لغرض زيادة إمكانية الاعتماد على عمليات الموازنة وشفافيتها. لكن الإدارة المالية القائمة وهي العنصر المهم في السياسة المالية كأداة مهمة لمراقبة تنفيذ السياسة المالية، كأهداف وآليات من قبل كوادر تتمتع بالكفاءة والنزاهة، إلا أن ذلك لم يحدث سواء في صياغة الموازنات السنوية، وفقا للمعايير الدولية، أو في تطوير النظم المحاسبية او الأنشطة الرقابية. ولكن كان واضحا فصل الموازنات عن الحسابات الختامية عند مناقشتها في الحكومة، او مجلس النواب، والإبقاء على الأنظمة المحاسبية القديمة وهذه كانت من أسوأ ما في السياسة المالية المتمثلة بالمبالغة المفرطة في رواتب الخطوط الأولى والثانية والثالثة في رئاسة الجمهورية والحكومة ومجلس النواب، وفي المئات من عناصر الحماية، دعك من المخصصات المكتبية، مضافا إليها الانفاق الترفي في وزارات الدولة وتضخيم الجهاز الحكومي من الأتباع، بالإضافة إلى عدم ضبط الإيرادات وخاصة في مجال الضرائب والرسوم. ولم تأخذ في الاعتبار العدالة في توزيع الثروة اجتماعيا وجغرافيا، وفسحت في المجال تبديد الثروة عن طريق الهدر المالي والفساد وضعف الاهتمام بالإنفاق الاستثماري، الأمر الذي تسبب في تعطيل 6 آلاف مشروع استثماري معظمها كان وهميا.

ثانيا - السياسة النقدية وتهريب الأموال

كان لصدور قانون البنك المركزي رقم 46 لسنة 2004 أهمية كبيرة في الحفاظ على استقلالية البنك المركزي، ومنع التدخل الحكومي في التأثير على سياسته النقدية التي تستهدف الإدارة الحصيفة، كما هو مفترض، لمعالجة الظاهرة التضخمية في الاقتصاد وتثبيت سعر صرف الدينار العراقي، إزاء العملات الأجنبية، وخاصة الدولار، لاتساع التعامل معه وإدارة عمليات الائتمان من خلال الرقابة على القطاع النقدي، بالإضافة إلى دوره في عملية التنمية الاقتصادية. ولا ننسى أن الاستقلالية المطلقة التي ركز عليها القانون الذي سنّه رئيس "سلطة الائتلاف المؤقتة" الأمريكي بول بريمر، جاء ليؤسس نهجا

جديدا للاقتصاد العراقي ألا وهو الاقتصاد الحر، دون ان يدرك أن الانتقال من الاقتصاد المركزي إلى الاقتصاد الحر، لا تنجزه بضعة إجراءات ولا الأمنيات. ولهذا كانت فترة ما بعد 2003 منفلتة وعشوائية، ترتبت عليها خطايا كبيرة أبرزها الفساد؛ حيث لم يضبط البنك المركزي إيقاع نافذة بيع الدولار، فاستغلت أبشع استغلال؛ إذ مرّت عليها محاولات التزوير بكل سلاسة، من قبل البنوك الأهلية وشركات الصرافة، والكثير منها لم يحصل على إجازة البنك المركزي، وهربت من خلالها الأموال عن طريق غسيل الأموال، وعن طريق التجارة الخارجية التي تسببت بالاختلال المستمر في ميزان المدفوعات. واقترن كل ذلك بضعف رقابة البنك المركزي تارة، وغض الطرف تارة أخرى، نتيجة لضغوط الكتل المتنفذة.

ثالثا- استراتيجيات اقتصادية فاشلة

وضعت الحكومة أربع استراتيجيات من الخطط الخماسية؛ ثلاثة منها للتنمية الاقتصادية وهي (2007–2011) و(2009– 2013) و(2013 – 2017) بالإضافة إلى إستراتيجية التخفيف من الفقر التي وضعتها وزارة التخطيط. ولكنها جميعا ذهبت أدراج الرياح، لأنها لم تشرّع من البرلمان، لتأخذ واجب التنفيذ، ولأنها صممت بمعزل عن الموازنات السنوية لتحظى بالاهتمام المطلوب من قبل وزارة المالية، ولم توضع لها التخصيصات المناسبة، فضلا عن إبعادها عن الفاسدين المنتشرين، بكل مفاصل الدولة الذين تسببوا في تعطيل أكثر من 6 آلاف مشروع، وتجميد نشاط القطاعات الاقتصادية الإنتاجية والاعتماد على الريع النفطي مع خيباته في الانخفاض المريع لأسعاره العالمية، وانفتاح السوق أمام البضائع الرديئة، ومنها تهريب المال العام إلى الخارج، وفشل الدولة بعد ثلاث سنوات من انخفاض أسعار النفط في إيجاد مصادر تمويل جديدة او تراكم في رأس المال.

الاستنتاجات والتوصيات

• يتضح مما تقدم أن فشل الحكومات المتتالية في سياساتها المالية والنقدية والتنموية قد أفقدت العراق القدرة على تحقيق تراكم رأسمالي وإيجاد مصادر جديدة للتمويل ارتباطا بالانخفاض الكبير في أسعار النفط مما وضعها – أي الحكومة – في مواقف حرجة لتمويل العجوزات في الموازنات السنوية، ولجأت على أثرها الى فرض سياسات تقشفية نالت من الطبقات الفقيرة وذوي الدخل المحدود من دون أن تطال الطبقات الثرية في المجتمع، وقد أدت في نهاية المطاف إلى أزمة اجتماعية وحدوث حراك اجتماعي في كافة المحافظات، ولم تستطع الحكومة التقدم في برنامجها الإصلاحي.

• بالرغم من تحسن الموارد المالية بعد عام 2003 من المنح الدولية والموارد المالية الكبيرة والفوائض المالية الكبيرة المتحققة من ارتفاع أسعار النفط، إلا إن الحكومة استمرت على الاقتراض من المؤسسات الدولية والتي وصلت إلى 65.5 مليار دولار في عام 2015، وتشكل مع الديون الداخلية البالغة 30.5 ليصبح مجموعها 96 مليار دولار. وإذا ما استمرت الأوضاع على هذه الحال فان هذه القروض ستتضاعف وقد يتعذر حتى دفع تكاليف خدمتها.

• ما زالت ظاهرة الفساد تضرب أطنابها في كافة الأجهزة الحكومية، وتستحوذ على المال العام، عبر نافذة البنك المركزي وتهريبها إلى خارج العراق، مما تتسبب في تقليص الاحتياطي النقدي في البنك المركزي، بعد انخفاض إيرادات النفط. وشجع ذلك على تنشيط السوق السوداء، حيث أن سعر الصرف للدولار اعلى مما هو في البورصة، مما تستخدم في عمليات المضاربة المالية، وتؤدي إلى خفض قيمة الدينار، وبالتالي ترفع من مستوى الأسعار في السوق، وهذا ما يتطلب تفعيل دور دائرة التحويل الخارجي والتخلي تدريجيا عن طريق العرض النقدي من قبل البنك المركزي عبر النافذة، والتشديد من رقابة البنك باستخدام الوسائل التكنولوجية المتطورة.

• تقليص الاستيراد الخارجي والاقتصار على السلع الضرورية التي لا تنتج وطنيا كالأدوية والوسائل التكنولوجية وأدوات الإنتاج الداخلة في الصناعة والزراعة، وحماية المنتج الوطني من منافسة البضائع الأجنبية، وتأهيل المصانع العراقية، وإزالة معوقات الاستثمار الوطني والأجنبي على طريق إقامة حركة تصنيعية فعالة وزراعة متطورة من اجل زيادة معدلات النمو الاقتصادي وإيجاد مصادر مالية وتنمية حركة التصدير.

• إعادة النظر في السياسة المالية بوجهة صياغة الموازنات المالية على أساس البرامج، وإعادة النظر في الإيرادات والنفقات والسياسة الضريبية على أساس قانون يلزم الجميع بدفع الضريبة على أساس الدخل والحفاظ على الوعاء الضريبي وتجريم ظاهرة التهرب الضريبي وتفعيل الشفافية في قانون التعرفة الكمركية وضمان الرقابة الصارمة على الموارد الضريبية والكمركية وحوكمة الإدارة المالية.

• تسديد السلف الحكومية البالغة 77 تريليون دينار، ومنع السحب على المكشوف بدون وجود تخصيصات في الموازنات، والحد من هذه المخالفات القانونية التي لا تتوافق مع رشاد الإدارة في الحفاظ على المال العام.

مصادر البحث

1. الفايدي، اثر الديون الخارجية على البلدان النامية. متاح على الانترنيت على الرابط الآتي:
http://www.manqol.com/topic/print.aspx?t=2746

2. البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، موسوعة الاقتصاد منشور على الانترنيت. يمكن الوصول إلى المصدر من خلال (doc) الفصل الاول – قروض البنك الدولي وصندوق النقد الدولي _ موسوعة ...).

3. ماجد الصوري، السياسة المالية العامة وسياسة الانفاق، "الثقافة الجديدة"، العدد 384 أيلول، 2016.

4. فؤاد الأمير، النفط دوره وتأثيره في أسعار الذهب والنفط والعملات الأخرى ودور العراق المقبل في تسعير النفط، دار الغد للنشر، أيلول 2014.

5. حيدر نعمة بخيت وفريق جياد مطر، السياسة المالية في العراق ودورها في التأثير على عرض النقد خلال المدة بين 1970 – 2004، مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والادارية، العدد 31، 2014.

6.د.عودت ناجي الحمداني، اثر القروض الخارجية على اقتصاديات البلدان النامية، مطبعة القبس للطباعة والنشر، 2016.

الاستغلال المشترك للمصادر المائية بين الدول المتشاطئة وموقف القانون الدولي

المهندس الحقوقي
يعقوب يوسف يوسف
وزارة الموارد المائية، الدائرة القانونية والعقود

يعقوب يوسف يوسف، من مواليد الموصل، ناحية برطلة، رئيس مهندسين اقدم في وزارة الموارد المائية، حاصل على ثلاث شهادات علمية من جامعة الموصل: بكالوريوس هندسة وبكالوريوس قانون وبكالوريوس علوم الحاسبات. عمل في عدة دوائر تابعة للوزارة من عام 1985 حتى الآن.

المقدمة:

أكد خبراء في مجالات المياه أن حروب القرن الحادي والعشرين ستكون بلا شك حروب مياه؛ حيث الجفاف المستمر والتغييرات المناخية وخلل ظاهرة الانحباس الحراري وتزايد عدد السكان باستمرار، والتطور العمراني والصناعي، مما سبب ندرة المياه ومحدوديتها ومن ثم زيادة الطلب عليها. لهذا شغل موضوع نزاعات المياه الدولية حيزاً كبيراً في أعمال الأمم المتحدة. ومن هنا جاء إقرار الأمم المتحدة في دورتها السابعة والأربعين لعام 1992 اعتبار يوم 22 آذار من كل عام، يوم المياه العالمي، وتم ذلك خلال انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، أو ما عرف بقمة الأرض في البرازيل في حزيران عام 1992 حيث تمت دعوة كل دول العالم إلى الاحتفال بهذا اليوم.

وللأسباب التي تم ذكرها اضافة الى تزايد الاهتمام بالمياه الدولية المشتركة والحاجة الطردية للمياه مقارنة بالسكان والاستخدامات المختلفة وظهور الخلافات بين الدول وعدم وجود نصوص قانونية دولية ملزمة، تحل مشكلة تقاسم المياه الدولية، نشأ مصطلح أزمة المياه نتيجة حدوث خلل في التوازن بين الموارد المائية المتاحة والطلب المتزايد عليها؛ فخلق هذا الخلل حالة العجز التي أطلق عليها "الفجوة المائية" باعتبار حجم الموارد اقل من الحجم المطلوب للوفاء بالاحتياجات اللازمة(1). ويرتبط هذا المفهوم بالامن المائي الذي يؤشر محدودية المياه من الناحية الكمية باعتبار المحدودية هنا تنعكس سلبا على الاستخدام التنموي (المنزلي والزراعي والصناعي) بما يقابل مفهوم الندرة الكمية والكيفية، حيث تتم ملاحظة الاختلاف من بلد الى آخر حسب

الامكانات المائية المتاحة. وهنا يجب الاخذ بنظر الاعتبار البدائل المطروحة لتجاوز الفجوة المائية ما بين العرض والطلب، اي الموارد المتاحة والاحتياجات الفعلية للاستهلاك. هذه البدائل تقع ضمن ثلاثة اسس تتمثل بما يأتي(2):

1- ترشيد استهلاك الموارد المائية المتاحة.

2- تنمية الموارد المائية المتاحة.

3- اضافة موارد مائية جديدة من الموارد المائية غير التقليدية.

وهذا المصطلح "الفجوة المائية" يحمل أبعادا كثيرة من سياسية – اقتصادية – هندسية وقانونية.

يتجلى البُعد السياسي: في كون الأنهار التي تنبع من أراضي دول مجاورة أخرى مشتركة فتبرز أهمية المياه كسلاح سياسي وورقة ضغط لتحقيق أهداف وأجندات معينة.

أما البُعد الاقتصادي: فيتمثل باعتبار المياه سلعة اقتصادية، بالإمكان بيعها إلى الدول التي تعاني من عجز في مواردها أو الحصول على سلع أو موارد مقابل ذلك.

والبُعد الهندسي: يتمثل في قيام دول المنبع ودول اعالي النهر بحجز المياه عن طريق إقامة منشئات كالسدود، مستغلة تفوقها التكنولوجي العالي واعتمادها على إمكانياتها الذاتية.

واخيراً البُعد القانوني: وهذا البعد أكده خبراء مياه من خلال ربط العلاقة بين حق الإنسان في الحصول على هذا المورد الطبيعي والفقر وعدم التمكن من استغلال الأراضي الزراعية بالشكل الأمثل وتوفير المياه العذبة التي هي مصدر حياة البشر في الاستعمالات البشرية والمنزلية والحصول على الغذاء، وبالتالي يتطلب الأمر تنظيم اتفاقيات لتقاسم المياه بين الدول المشتركة في نهر دولي، بغية تنظيم الحقوق المائية كل دولة.

وسوف نركز على موضوع البحث من خلال المحاور الآتية:

أولا: التعريف بمفهوم الأنهار الدولية

مفهوم "الأنهار الدولية" مر بمراحل عديدة من التطور، بدءاً من القرن التاسع عشر حيث التغييرات السياسية التي طرأت في العالم، ثم لاحقا الحربين العالميتين الأولى والثانية، وظهور دول جديدة أو انشطار الدول؛ فظهرت الحاجة للتفرقة بين الأنهار التي أطلقت عليها وطنية أي تقع كاملها في إقليم دولة واحدة والأنهار التي تمر بأكثر من دولة.

اعتبارا من معاهدة باريس للسلام لعام 1814(3) بدأ ظهور نزعة التدويل للأنهار الدولية (4) حيث كانت تعرف الأنهار الدولية بأنها مجاري مياه تقسم أو تعبر في مجاريها الملاحية أراضي تتبع لدولتين أو لعدة دول. هذا المصطلح اندرج تحت مفهوم قانوني خاص فإذا كان المجرى المائي يجتاز أراضي دول عديدة أطلق عليه "النهر المتعاقب"، وإذا استعمل كحدود أطلق عليه "نهر متلاحق"، ثم تطور هذا المفهوم ليكون متضمنا للمياه المشتركة سواء أكانت سطحية أم جوفية. لاحقا عقدت اتفاقية باريس لعام 1856 والتي خصّت حرية الملاحة في نهر الدانوب، والتي طورت من مفهوم النهر الدولي ليشمل الروافد المغذية للنهر، إضافة إلى مجراه الرئيسي (5). ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وعقدت مؤتمرات دولية ومنها مؤتمر برشلونة لعام 1921 الذي أطلق على الأنهار التي تعبر أراضي عدة دول، وتصلح مجرى مياهها

للملاحة، وتكون لها استخدامات اقتصادية، وبذلك ظهر مصطلح "مجاري المياه ذات الفائدة الدولية" (6).

بعد ذلك جاء تعريف المحكمة الدائمة للعدل الدولية، التي عرّفت النهر الدولي في منازعة اللجنة الدولية لنهر الاودر لعام 1929 واشترطت عليه ثلاث صفات، وهي صلاحيته للملاحة – اتصاله بالبحر – أن يهم ذلك الاتصال أكثر من دولة (7).

ثم تطور المفهوم ليطلق على النهر الدولي اصطلاح نظام المياه الدولية أو شبكة المياه الدولية الذي يشمل المجرى الرئيسي للنهر وروافده، سواء أكانت المنابع (إنمائية) أو المصبات (توزيعية).

إلى أن تم حاليا تداول اسم المجرى المائي الدولي INTERNATIONAL WATER COURSE والذي ورد في اتفاقية قانون استخدام المجاري الدولية في الأغراض غير الملاحية لسنة 1997 وهو آخر قانون وضع موضوع النقاش والتي صادقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 21 /5 /1997 بغالبية 103 دولة وامتناع 27 دولة على التصويت ومعارضة 3 دول فقط، وهي تركيا والصين وبوروندي (8) على أن يصبح هذا القانون نافذا في اليوم التسعين الذي يلي إيداع 35 دولة وثائق تصديقها لدى الأمانة العامة للأمم المتحدة، حيث عرفت المادة (2) الفقرة (ب) منها المجرى المائي الدولي بأنه أي مجرى مائي تقع أجزاؤه في دول مختلفة.

ثانيا: الدول المتشاطئة

في ضوء تعريف المجرى المائي الدولي فان مجموعة الدول التي يقع أجزاء المجرى المائي في جزء من أقاليمها، وتشترك في ما بينها بشبكة المياه السطحية والجوفية التي تشكل بحكم علاقتها الطبيعية ببعضها البعض، أطلق عليها الدول المتشاطئة أو دول المجرى المائي. ويجوز للدول التي يطلق عليها دول المجرى المائي، أن تعقد اتفاقا أو أكثر أو تفاوضا أو مشاورات ذات صلة لتحديد كل ما يتعلق بكامل المجرى المائي الدولي، أو في ما يتعلق بأي جزء منه، أو بمشروع أو برنامج أو استخدام معين، بشرط ألا يؤدي هذا الاتفاق إلى أي تأثير سلبي على حق أي دولة أخرى في هذا المجرى. وكل هذه الأساليب تؤدي إلى الانتفاع والمشاركة المنصفين والمعقولين بغية الحصول على امثل انتفاع وفوائد بما يتفق مع مقتضيات توفير الحماية الكاملة للمجرى المائي. وهنا يبرز التأكيد والأخذ بنظر الاعتبار وجود اكثر من 200 نهر تقريبا يجري في اقليم اكثر من دولة مع وجود احواض انهار تتقاسمها دول كثيرة يصل البعض منها الى خمس دول او اكثر، وكمثال على ذلك حوض الدانوب الذي تتقاسمه 17 دولة (9).

ثالثا: مبادئ الاستغلال المشترك للمصادر المائية

وتعني مبادئ الاستغلال أو الانتفاع المشترك أن المجرى المائي بأكمله من منبعه إلى مصبه مشترك بين جميع الدول التي يجرى في إقليمها (ملكية مشتركة) فتكون حقوقها متساوية ومتكاملة لا ينفرد أحدها بالقيام بإنشاء مشاريع أو حجز المياه للإضرار بالدول الأخرى، وعليه يجب الاتفاق على أي مشروع يقع على الحوض في أي قسم منه. وكانت النقاشات والآراء والمبادرات تستند إلى قواعد عرفية مقبولة دوليا، ومن

هذه المبادئ نورد ما يأتي (10):
– مبدأ الاستخدام المنصف والمعقول للموارد المائية المشتركة. هذا المبدأ يعني ان استغلال المياه بطريقة يحافظ عليها الجميع وتصونه الأجيال المقبلة والإيفاء بحاجة الجميع وتأمين الفائدة للجميع بأقل ضرر، وبالتالي تولد روح التعاون الايجابي بين دول الحوض. هذا المبدأ ظهر بصورة واضحة أولا في قواعد هلسنكي لعام 1966 وحاليا في قانون استخدام المياه الدولية في الأغراض غير الملاحية، ويتمثل تطبيق هذا المبدأ على أساس:
– مبدأ تقسيم المياه بطريقة معقولة ومنصفة، مما يجعل الوصول إلى الانتفاع الأمثل.
– مبدأ حسن النية: وهو مبدأ قانوني يشمل علاقات الدول في مختلف المجالات وتتوثق فيه صلة احترام المعاهدات والقواعد والمبادئ القانونية.
– مبدأ حسن الجوار: الذي هو أساس حل ومواجهة المشاكل القانونية.
ترسخ مبدأ الانتفاع المنصف، فظهر في الاتفاقيات الدولية و العرف الدولي وتطرق إليه كذلك الفقه الدولي. ففي الاتفاقيات الدولية يشار إلى هذا المبدأ صراحة أو ضمنا وهنالك الكثير من تلك الأمثلة ومنها الاتفاقيات السودانية – المصرية من اجل استخدام نهر النيل: معاهدة تطوير حوض نهر غامبيا لعام 1978 بين دول هذا النهر، اتفاقية دول حوض نهر كاجيرا لعام 1977 بإنشاء منظمة لإدارة هذا الحوض في العرف الدولي الذي هو ناجم عن ممارسات الدول وموافقتها. والمثال على ذلك هو تصريح وزير خارجية الولايات المتحدة عند التصديق على معاهدة نهر ريو غراندي لعام 1944 بين المكسيك والولايات المتحدة بإمكانية التعاون بين البلدين، في ظل مبدأ حسن الجوار، على تنمية الموارد المائية الحيوية للأنهار التي فيها مصلحة منصفة لكلا الطرفين، بما فيها تنظيم استغلال مياه الانهار المشتركة وتشكيل لجنة فنية اعتبارية للاشراف على الانهر المشتركة وتوزيع المياه بين البلدين (11).
أما الفقه الدولي فقد تمثل بقرارات المنظمات الحكومية وغير الحكومية، وتأييد خبراء القانون الدولي، والتي تؤكد على حق كل دولة في التقسيم المنصف لمنافع الشبكة النهرية المشتركة بنسبة حاجتها، الالتزام العام بالتعاون، أي الحقوق والالتزامات المتبادلة، أو ما يعرف بالمنافع المتوازية لدول الحوض المائي الذي يعطي لكل دولة من دول الحوض الانتفاع بالمياه دون إحداث ضرر بمصالح الدول الأخرى. ونورد مثالا على مبدأ التعاون ما جاء بقرار المؤتمر الذي عقد في الارجنتين عام 1977 وتحت اشراف الامم المتحدة للدول التي تقع ضمن حوض نهري واحد، لتبادل الخبرات والمعلومات في ما بينها، مشجعا دول الحوض على تشكيل لجان لتدارس الجوانب المتعلقة بالاستخدام الامثل للمياه وتبادل الخبرات العلمية (12).
كما نصت المادة (9) من اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية للأغراض غير الملاحية لعام 1997 على حالة الالتزام بالتعاون كما يأتي:
أ– تبادل دول المجرى المائي بصفة منظمة البيانات والمعلومات المتوافرة عادة عن حالة المجرى المائي.
ب– تقديم بيانات أو معلومات غير متوفرة في حالة طلب أي دولة من دول المجرى المائي.
ج– بذل قصارى الجهود من اجل جمع

البيانات والمعلومات وتجهيزها لدول المجرى المائي للانتفاع بها.

مبدأ عدم إلحاق الضرر بالغير

هذا المبدأ يأتي من خلال قيام دول أعلى النهر بموجب قاعدة حسن النية بالالتزام بان تأخذ بنظر الاعتبار المصالح والفوائد للدول المتشاطئة الأخرى، مقارنة مع مصالحها الأخرى للدول، كمثال على ذلك قيام الجارة تركيا بتنفيذ مشروع جنوب شرق الأناضول الذي يطلق عليه مشروع الكاب التركي، الذي يضم إنشاء 22 سدا على نهري دجلة والفرات، و19 محطة كهرومائية ومشاريع أروائية لتقليل حصة كل من العراق وسوريا في هذين المجريين الدوليين.

رابعا: موقف القانون الدولي من الاستغلال المشترك للمصادر المائية

مصادر القانوني الدولي حددتها المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية باعتبارها الأداة والسلطة القضائية الرئيسية حيث ذكرت المصادر كما يأتي:

1 - المصادر الرئيسية وهي:

المعاهدات: كونها مصدرا مكتوبا لا خلاف عليه، تمثل القانون الدولي الاتفاقي، وهي إما عامة أو خاصة، وإما معاهدات دولية لصياغة تقاليد شائعة وملزمة لكونها تتضمن مبادئ وقواعد قانونية أساسية، وتنظم بعقد بين الدول المشتركة في انهار دولية، لإنهاء أي نزاع قد يحدث أو تجنب حدوثه أو تكون ثنائية تحكم العلاقة بين الدولتين.

ومن خلال القاء نظرة سريعة وقراءة لما ورد بالمعاهدات والاتفاقيات الدولية يمكن التأكيد على ان مضامينها تنصب على ما يأتي (13):

- عدم قيام اي دولة متشاطئة باقامة مشاريع دون الاخذ بنظر الاعتبار موافقة باقي الدول كون ذاك يشكل ضررا بالحصص المائية للدول المتشاطئة الاخرى.
- احترام الحقوق المتبادلة بينهما.
- استغلال الموقع الجغرافي المقيد بحقوق دول أخرى.
- احترام الحقوق المكتسبة لكل دولة بما يؤمن توفير الاحتياجات.
- التشاور وحل النزاعات الحاصلة بما يضمن الحقوق المدنية والزراعية والصناعية لكل الدول المتشاطئة.

العرف الدولي: قواعد غير مكتوبة، تنشأ عن سلوك معين يصبح مع التكرار قاعدة إلزامية تنشأ عن ممارسات الدول. هذه الأعراف تحترمها الدول لقناعتها بأنها تصبح بمثابة قانون. وقواعد العرف الدولي المتعلقة بالأنهار الدولية كثيرة أو هي تظهر نتيجة الممارسات الدولية عبر السنوات، كما يمكن استنتاجها من بعض المعاهدات الثنائية وتظهر باشكال منها؛ المراسلات الدبلوماسية أو ممارسة الدول من خلال موافقتها في المنظمات الدولية، أو موقف الدول في تشريعاتها الداخلية والقضاء المحلي.

المبادئ العامة للقانون: هذه المبادئ سواء كانت من القانون الداخلي أو من القانون الدولي أو مشتركة بينها فهي تشبه العرف كونها غير مكتوبة، إلا أنها لا تحتاج إلى مبدأ التكرار ومن أمثلتها: - تحريم استخدام القوة في العلاقات الدولية.
- منع الإبادة الجماعية.

– تسوية النزاعات الدولية بالطرق السلمية.
– التفاوض عند الخلاف.
– حسن الجوار وحسن النية وعدم الإضرار بالغير.
– عدم التعسف في استعمال الحق.

2 - المصادر المساعدة للقانون الدولي

الأحكام القضائية والآراء التحكمية:

الأحكام القضائية لا تلزم إلا أصحاب النزاع ولكن من الممكن اعتبارها مصدرا يمكن الرجوع إليه في حالات متشابهة، ومنها حالات أحكام المحاكم العليا في الدول الاتحادية، وهناك الكثير من الشواهد على ذلك لا مجال لذكرها هنا.

الفقه الدولي:

يظهر ذلك من خلال كتابات كبار فقهاء القانون الدولي والدراسات المقدمة من مؤسسات القانون الدولي غير الحكومية ودراسات وقرارات المنظمات الحكومية، مثل منظمة الأمم المتحدة ولجنة القانون الدولي التابعة لها.

والآن نأتي إلى الموضوع الرئيسي، وهو أحكام القانون الدولي في ما يخص الاستغلال المشترك للمصادر المائية للدول المتشاطئة. نستعرض بإيجاز أهم الاتفاقيات والتوصيات والقواعد، واخذت بها مؤسسات أو منظمات دولية، والتي نظمها الفقه الدولي في هذا المجال، والتي يمكن الاستفادة منها مع التركيز على ما جاء في النصف الثاني من القرن العشرين وكما يأتي:

1 – إقرار معهد القانون الدولي إعلان مدريد للعام 1911 بشأن استخدام القوى المائية للمياه الدولية واستغلالها الصناعي والزراعي حيث تضمنت ما يأتي (14):

– عدم جواز إقامة منشآت لاستغلال مياه النهر دون موافقة الدول الأخرى.
– عدم جواز إنشاء مشاريع تستهلك كميات كبيرة من المياه.
– عدم جواز إقامة مشاريع في دولة المصب من شأنها إحداث فيضانات في دولة المنبع.
– على الدول المعنية تشكيل لجان مشتركة دائمة لكي تتولى دراسة المشاريع المقترحة إقامتها.

2 – اتفاقية برشلونة للعام 1921 التي حددت طرق حل الخلافات التي تنشأ بين الدول الموقعة على هذه الاتفاقية، وتوسيع نطاق حرية الملاحة في الانهار الوطنية البحتة، والسماح بحق الملاحة التجارية الحرة من البحر وإليه بما فيها نقل الصادرات (15).

3 – مؤتمر جماعة القانون الدولي المنعقد في عام 1954 بمدينة ادنبرة حول تقسيم الأنهار الدولية بالتشاور وتشكيل لجان لاستغلال هذه المياه (16).

4 – مؤتمر جماعة القانون الدولي المنعقد في عام 1958 بمدينة نيويورك حول حث الدول النهرية على تسوية المنازعات بالتشاور (17).

توصيات مؤسسة القانون الدولي المنبثقة عن اجتماعها في سالزبورغ عام 1961 (18).

– لكل دولة الحق في استخدام المياه التي تجتاز أراضيها أو تجري على حدوها على أن تخضع للقيود في حق الاستعمال للدول الأخرى.
– عدم إقامة منشآت أو استخدامات لمياه الحوض المائي، تحدث ضررا كبيرا على باقي الدول.
– الإعلان المسبق عن تنفيذ هذه المنشآت

وعدم اعتراض باقي الدول عليها وعدم اتخاذ أية إجراءات من شأنها تضخيم النزاع.
– المصادر المائية مسألة ذات مصلحة عامة، يكون استغلالها عن طريق التشاور بين الدول المتشاطئة.
نقطة التحول الأساسية في التقسيم المشترك للمياه، تتمثل بصدور قواعد هلسنكي المنبثقة عن رابطة القانون الدولي لعام 1966 وهي قواعد تساعد كثيرا في منع وفض النزاعات على مياه الأنهار الدولية باعتبارها وسائل قانونية تستهدف الوصول إلى حلول للمنازعات سلميا، وتضمنت القواعد ما يأتي:–
– لكل دولة مشتركة في حوض مائي دولي الحق في الحصول على حصة عادلة ومعقولة من مياه هذا الحوض المائي الدولي لتستخدمها استخداما مفيدا ضمن أراضيها.
– يجب تحديد الحصة العادلة والمعقولة المشار إليها في ضوء جميع العوامل ذات الصلة بالموضوع في كل حالة معينة.
وتتضمن هذه العوامل الواجب أخذها بنظر الاعتبار النقاط التالية، دون أن تكون محددة بها فقط، وحسب ما جاء بالمادة (5) من اعلان هلسنكي (19):
أ– جغرافية الحوض.
ب – الاستخدام السابق للمياه في الحوض.
ج– الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية لكل دولة من دول الحوض.
د– السكان الذين يعتمدون على مياه النهر في كل من دول الحوض.
هـ – مقارنة تكاليف مختلف الوسائل البديلة.
و– مدى توفر موارد مائية أخرى بديلة.
ز– تجنب الفواقد التي لا مبرر لها.
ح– مدى الإمكانية العلمية في التعويض على دولة أو أكثر من الدول المشتركة في الحوض كوسيلة لتسوية التضارب في الاستخدامات المختلفة للمياه.
ط– الدرجة التي يمكن التوصل إليها في تأمين احتياجات إحدى دول الحوض دون إلحاق ضرر ملموس بدولة أخرى في الحوض.
كما تضمنت المادة (26) من قواعد هلسنكي الإجراءات المتصلة بمنع وفض المنازعات بالإضافة إلى الحقوق القانونية أو المنافع الأخرى لدول الحوض وبقية الدول فيها وهي (20):
1 – وجوب فض المنازعات بالطرق السلمية.
2 – تبادل المعلومات.
3 – التفاوض.
4 – تشكيل لجان مشتركة.
5 – فض الخلافات بالمساعي الحميدة والوساطة والطرق الدولية والتحكيم والالتجاء للقضاء.
واخيرا جاءت جهود المجتمع الدولي بقيام الامم المتحدة باصدار (اتفاقية قانون استغلال المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية للعام 1997) والذي عد ثمرة جهود جميع محاولات التقنين السابقة والاجتهادات القانونية ذات الصلة بالمياه الدولية المشتركة.
اشتملت هذه الاتفاقية على (33) مادة مقسمة على ست أبواب مع أربع مواد كملاحق ختامية اعتبرت بمثابة الباب السابع.
وجاء الباب الثاني بمبادئ عامة بأن نصت المادة (5) من الاتفاقية على الحقوق والواجبات الأساسية للعمل في ما يتعلق بالانتفاع والمشاركة المنصفين والمعقولين باستخدام المجرى المائي الدولي وتنميته

بغية الانتفاع به بصورة مثلى ومستدامة، أما المادة (6) فقد تطرقت الى العوامل ذات الصلة بالانتفاع المنصف والمعقول وهي نفس المبادئ التي وردت في قرارات هلسنكي للعام 1966 .

وتطرقت المادة (7) إلى الالتزام بعدم التسبب في ضرر ذي شأن، والمادة (8) إلى الالتزام العام بالتعاون، والمادة (9) إلى التبادل المنتظم للبيانات والمعلومات، في حين نظرت المادة (10) إلى العلاقة بين أنواع الاستخدامات المختلفة.

ويحتاج التطرق إلى هذه الاتفاقية بحثا كاملا، حيث أن التوصل إلى هذه الاتفاقية كان عملا رائعا بحق، من الذين يريدون للقانون الدولي عامة ولقانون المياه خاصة الازدهار بما يمكن التوفيق، تجنبا لأي نزاع قد يحدث.

خامسا:- المعوقات القانونية في حل أزمات المياه

بعد تقديم هذا العرض عن كيفية التعاون بين الدول في الاستغلال المشترك للمصادر المائية وجهود فقهاء القانون الدولي في توضيح الصور المطلوبة للوصول إلى القناعة بأنه لا توجد نصوص قانونية مكتوبة للقانون الدولي، بل أن مصادره كما ذكرتها محكمة العدل الدولية تتلخص في عقد الاتفاقيات بين دول المجرى المائي المشترك والاستعانة بالعرف الدولي والمبادئ العامة للقانون، إضافة إلى قرارات المحاكم والآراء التوفيقية وكتابات كبار فقهاء القانون الدولي. وفي ظل الحاجة المتزايدة للمياه هناك قراءة واضحة مفادها ان الصراعات ذات الانتشار الواسع حاليا هي حروب المياه المحتملة للمطالبة بأكبر كمية ممكنة منها لذا فان المشكلة الأساسية على صعيد الموارد المائية من خلال اللجوء إلى أحكام القانون الدولي تتلخص بما يأتي:-

- عدم وجود قواعد قانونية دولية واضحة ومحددة ومظلة قانونية مقر بها من جميع الدول لتسوية المشاكل المائية، تحدد الحق في المياه، وتحكم عملية التقاسم العادل لها بين الدول المتشاطئة.
- التفسير الكيفي للقوانين والمعاهدات الدولية الخاصة بالموارد المائية بغياب وجود مرجعية قانونية دولية لتفسيرها تجنبا للتفسير الكيفي.
- عدم احترام بعض الدول لقواعد القانون الدولي.
- غياب صفة الإلزام بالقانون الدولي وافتقار المعاهدات إلى آلية محدودة للتحكيم.
- ضعف دور الأمم المتحدة في معالجة هذه المسألة.
- عدم منح القاضي الدولي صلاحيات واسعة للنظر في المشاكل والنزاعات القانونية للسعي للوصول إلى الحقيقة بالابتعاد عن المواقف السياسية.
- اتخاذ المياه كإحدى أدوات الضغط السياسي بغية السيطرة على منابع الأنهار ومصادرها لتحقيق مكاسب سياسية أو اقتصادية وفرض هيمنات وأجندات معينة.
- إساءة استخدام الحق أو التعسف في استعمال الحق، قصد الإضرار المتعمد بالغير أو ممارسة الحق بصورة ملتوية، تجنبا لالتزام قانوني أو سوء استعمال مزايا معينة.

ان حل هذه الإشكالات يأتي عن طريق ما يأتي:-

1- الدعوات المستمرة إلى ضرورة عقد اتفاقيات لتنظيم العلاقات المتبادلة بين الدول

المتشاطئة لاحترام الحقوق المكتسبة.
2- إقامة المشاريع ضمن إقليم أي دولة من الدول المتشاطئة لا يمنع من التشاور مع باقي الدول بما يجعل إقامتها لا تؤثر في كمية ونوعية المياه المشتركة، ولا تهدد مصادر الموارد المائية بالشح.
3- الموازنة بين الحقوق والالتزامات بما لا يجعل إلحاق أي ضرر بأية دولة من دول المجرى المائي المشترك.
4- اللجوء دائما إلى المفاوضات للوصول إلى الاتفاقيات عند حدوث أي نزاع أو توقع حدوثه.
5- الاستعانة بالفقه القانوني الدولي وباللجان المتخصصة بأعمال المياه لدراسة حالة الخلاف عند وقوعه أو تجنبه.
6- اللجوء إلى التحكيم باتفاق الأطراف مع عدم الممانعة من اللجوء إلى المحاكم الدولية للوصول إلى حل عادل ومقبول ومعقول.

سادسا: المقترحات المقدمة

نتيجة التناقص المتزايد لهذه الثروة الطبيعية بسبب الاستخدامات المفرطة والمكثفة في الاستعمالات المنزلية والزراعية والصناعية وعدم استخدام وسائل حديثة ومتطورة لترشيد الاستهلاك من الممكن الأخذ بنظر الاعتبار ما يأتي:
- استحداث المراكز البحثية.
- إقامة ندوات حول الوضع المائي الحالي لزيادة المعرفة الخاصة بالموارد المائية وإعطاء الأهمية الاقتصادية للمياه من حيث معاملتها كسلعة اقتصادية، إضافة إلى طابعها الاجتماعي، والتأكيد على منع إساءة التصرف بموارد المياه المتاحة.
- وضع قواعد بيانات تخص انهار العراق الدولية وكمية الواردات السنوية خلال السنوات العشر الأخيرة ومقارنتها بالحاجات الأساسية والاستهلاكات ووضع تخطيط شامل للإدارة المتكاملة للمياه.
- قيام المنظمات الإنسانية ومنظمات المجتمع المدني بإدراج موضوع المياه كجزء من برنامجها ومنهاجها والقيام بحملات توعية لترشيد الاستهلاك وتقنين الاستخدام.
- ضرورة التنسيق بين كافة الجهات ذات العلاقة بقطاعات المياه لتعدد المعنيين في هذا الميدان والتنسيق بينهم، كون ذلك إحدى الاستراتيجيات الواجب إتباعها، ويتم ذلك بتشكيل لجان على مستوى الوزارات والهيئات والمؤسسات ذات التماس المباشر بهذا القطاع وهي، الزراعة – الموارد المائية – البيئة – البلديات والأشغال – المحافظة، ووضع الخطط المائية المتكاملة لإداراتها كل ضمن رقعته الجغرافية لتحديد الاستهلاكات المنزلية، ثم مياه الري سواء كانت للحصول على منتجات زراعية أم غير زراعية، ثم للأغراض الصناعية وكل ما تحتاجه محطات توليد الطاقة.
- التفكير بجدية لصياغة مشروع قانون موحد للمياه في العراق، على أساس تشريعي متطور، ينظم استخداماتها للقضاء على الثغرات الموجودة في ظل غياب القوانين والتشريعات المائية اللازمة.
- إضافة مادة علمية إلى المواد التدريسية في قسم هندسة الموارد المائية وهندسة تقنيات البيئة للتعريف بمجاري المياه الدولية ومشكلاتها ومعالجتها وفق أحكام القانون الدولي العام.
- تشجيع طلبة الدراسات العليا في الكليات العراقية سواء كانت هندسية أم قانونية أم بيئية لتقديم رسائل الماجستير والدكتوراه في مجالات المياه.

مصادر البحث حسب تسلسل الهوامش:

1- محمد سلمان طايع: امن الماء والغذاء في الخليج العربي، القسم الثالث، الفصل الخامس سياسة الامن المائي الوطنية والاقليمية في دول الخليج العربي، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الامارات العربية المتحدة، الطبعة الاولى، 2013، ص 143.

2- دكتور سامر مخيمر وخالد حجازي: ازمة المياه في المنطقة العربية.. الحقائق والبدائل الممكنة، الفصل الرابع البدائل الفنية المطروحة لتجاوز فجوة الموارد المائية، كتب يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، عطا المعرفة تسلسل 209، الكويت، 1996، ص 139 وما بعدها.

3- الدكتور عز الدين علي الخيرو: الفرات في ظل قواعد القانون الدولي العام، رسالة دكتوراه، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1975، ص 7؛ والدكتور صبحي احمد زهير العادلي: النهر الدولي.. المفهوم والواقع في بعض انهار المشرق العربي، رسالة دكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى، بيروت، 2007، ص 104 .

4 – الدكتور سليمان عبد الله اسماعيل: السياسة المائية لدول حوضي دجلة والفرات وانعكاساتها على القضية الكردية، رسالة دكتوراه، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية، 2004، ص 243 .

5 – الدكتور سليمان عبد الله اسماعيل: المرجع السابق، ص 243 .

6 – الدكتور صبحي احمد زهير العادلي: المرجع السابق، ص 106 .

7 – الدكتور سليمان عبد الله اسماعيل: مرجع سبق ذكره، ص 245. و الدكتور صبحي احمد زهير العادلي: مرجع سبق ذكره، ص 106 .

8 – الدكتور صبحي احمد زهير العادلي: مرجع سبق ذكره، ص 206 .

9 – الدكتور علاء عبد الحسين العنزي: طرق تقسيم المياه بين البلدان المتشاطئة، جامعة بابل، كلية القانون، بحث منشور على الانترنيت.

10 – المهندس عبد العزيز المصري: الاسس القانونية والاعراف التي تحكم تنظيم استخدام الموارد المائية المشتركة، مداولات الندوة العربية حول الاسس القانونية الدولية للمياه المشتركة، المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والاراضي القاحلة، دمشق، 2003، ص 78؛ الدكتور سليمان عبد الله اسماعيل: مرجع سبق ذكره، ص 266 .

11 – المهندس عبد العزيز المصري: المرجع السابق، ص 69 .

12 – صاحب الربيعي: ازمة حوضي دجلة والفرات وجدلية التناقض بين المياه والتصحير، دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، دمشق، 1999، ص 44 – 45.

13 – الدكتور علاء عبد الحسن العنزي: المرجع السابق، بحث منشور على الانترنيت.

14 – عبد العزيز شحاذه المنصور: المسألة المائية في السياسة السورية تجاه تركيا، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى، بيروت، 2000، ص 135.

15 – الدكتور عز الدين علي الخيرو: مرجع سابق الذكر، ص 340 – 344 .

16 – الدكتور عز الدين علي الخيرو : مرجع سابق الذكر ، ص 194 .

17 – الدكتور عز الدين علي الخيرو: مرجع سابق الذكر، ص 194 .

18 – صاحب الربيعي: القانون الدولي واوجه الخلاف والاتفاق حول مياه الشرق الاوسط، دار الكلمة، الطبعة الاولى، دمشق، 2001 ، والمهندس عبد العزيز المصري: مرجع سابق الذكر، ص 82 و الدكتور صبحي احمد زهير العادلي: مرجع سابق الذكر، ص 89 .

19 – الدكتور صبحي احمد زهير العادلي: مرجع سابق الذكر، صفحة 115، والمهندس عبد العزيز المصري: مرجع سابق الذكر، ص 83 .

20 – الدكتور عز الدين علي الخيرو: مرجع سابق الذكر، ص 197 – 198.

من مكتب فرانز كافكا *

بقلم: دان سكوايرز
ترجمة: مصباح كمال

لم يكن فرانز كافكا معروفاً خلال حياته، لكنه بات واحداً من أعظم كتاب القرن العشرين. وتضم أعماله بعض الصور الأكثر قلقاً ورسوخاً في الرواية الحديثة. فبطل روايته المسخ، على سبيل المثل، يستيقظ ذات صباح ليكتشف بأنه قد تحول إلى حشرة عملاقة. وفي قصته القصيرة المستعمرة العقابية يصوّر ضابطاً في معسكر اعتقال يدير جهازاً مروعاً لتعذيب وإعدام السجناء. وفي المحاكمة يعرض حالة رجل ملزمٌ بالدفاع عن نفسه أمام المحكمة دون إعلامه بالجريمة التي أتهم باقترافها. هذه الصور من خيبة الأمل، والقلق واليأس تستبق فظاعات الحرب والوحشية القادمة في أواسط القرن العشرين.

إن الكثير من تفاصيل حياة كافكا نفسه هي بالكاد أكثر تفاؤلاً. فقد كان مُعتلاً ويعاني أمراضا عديدة قبل أن يموت وهو في الأربعين من عمره. كما أن علاقاته بالنساء لم تكن ناجحة، ولم يتزوج أبداً رغم كونه خاطباً لعدة مرات. عاش مع والديه معظم سني حياته، وكان يشتكي بمرارة أن عمله في مهنة التأمين أبعده من حرفته الحقيقية في الكتابة – نعم، هي حرفة لها عذاباتها الخاصة.

عند دراسة حياته، على أي حال، وخاصة مهنته في التأمين، يدرك المرء بسرعة أنه لا يمكن القبول بكل شكاواه على علاّتها وأن الانطباع الشائع عن كافكا كإنسان عبقري مُعذّب كان مقيداً بالحاجة للحصول على رزق من خلال العمل في مكتب ليس دقيقاً تماماً. ربما خلقت مطالب العمل المكتبي إحباطاً لديه، لكنه كان ناجحاً جداً في أداء عمله، وتُبين رسائله، ويومياته ورواياته افتتاناً بكل أشكال العمل ومواقف الناس تجاه مهنهم. إن دراسة مهنة كافكا التأمينية تضفي طابعاً إنسانياً عليه وتلقي الضوء على كتاباته من خلال إظهار تكريسه لنفسه للعمل، وإنجازاته، وحس الدعابة لديه، جنباً إلى جنب العديد من المثبطات.

البدايات

ولد فرانز كافكا في 3 تموز/ يوليو 1883، في براغ حيث قضى حياته كلها فيها. كانت براغ في ذلك الوقت عاصمة بوهيميا، التي كانت أحد أقاليم الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية. وكانت عائلة كافكا من الطبقة الوسطى من اليهود الناطقين باللغة الألمانية. وقد درس فرانز في سلسلة من المدارس التي تدرّس باللغة الألمانية.

وفقاً لكاتب سيرته، إيرنست پاويل Ernst Pawel فإن فرانز في يفاعته كان تلميذاً ناجحاً، على الأقل في المقررات الدراسية عدا الرياضيات. لكن كافكا لم يستمتع بأيامه في المدرسة على نحو خاص. إحدى يومياته في العام 1910 لافتة للنظر ذكر فيها مجموعة

الأشخاص الذين لامهم على تعاسته:
إن تعليمي قد تسبب لي بأذى كبير على نحو ما. إن هذا اللوم موجّه ضد العديد من الأشخاص... ومن بينهم والديَّ، العديد من الأقرباء، العديد من المدرسين، طباخ معين على وجه الخصوص، العديد من البنات في مدرسة الرقص، العديد من الزائرين لبيتنا في أوقات سابقة، العديد من الكتاب، مدرس السباحة، بائع تذاكر، مفتش مدرسي، وفوق ذلك بعض الأشخاص الذين قابلتهم مرة واحدة فقط في الشارع، وآخرين لا أستطيع بكل بساطة تذكرهم وأولئك الذين لن أستطيع أن أتذكرهم مرة أخرى...
هذا النمط من الإنجاز المقترن بالشكوى المسرفة سيتكرر طوال حياة كافكا المهنية.
في السنوات من 1901 إلى 1906 درس كافكا في الجامعة الألمانية في براغ. بعد محاولته دراسة مواضيع مختلفة، بضمنها الكيمياء، أستقرَّ أخيراً على دراسة القانون. تخرج سنة 1906 بشهادة دكتوراه في القانون وبدأ البحث عن عمل، مُركزاً على صناعة التأمين.
كتبَ في أيلول 1907 إلى صديق، "أنا باقٍ في براغ وخلال بضعة أسابيع سأحصل علىَ الأرجح على وظيفة في شركة تأمين. خلال الأسابيع القليلة القادمة عليَّ أن أدرس التأمين بدون انقطاع لكنه مثير للاهتمام للغاية". بعد ذلك بفترة وجيزة تم تعيينه من قبل فرع براغ لشركة جنرالي للتأمين Assicurazioni Generali، وهي شركة تأمين إيطالية تكتتب بأنواع عديدة من التأمين.
رغم اهتمامه الفكري بالتأمين، وجد كافكا واقع العمل المكتبي لدى جنرالي كريهاً. فقد كان منزعجاً على نحو خاص من يوم العمل الطويل ("ثمانية إلى تسع ساعات من عمل لا نهاية له")، الذي لم يترك له غير قليلٍ من الوقت للحياة خارج المكتب. وبدأ فوراً بالبحث عن عمل آخر، واضعاً نصب عينيه وظيفة حكومية حيث كان يوم العمل فيها ست ساعات فقط، من الثامنة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر.
لم يكن سهلاً على اليهود في تلك الأيام الحصول علىٍ وظيفة حكومية، إلا أن كافكا كان محظوظاً إذ أن والد أحد أصدقائه من زمن الطفولة كان رئيساً لمؤسسة تأمين إصابات العمال في مملكة بوهيميا في براغ. هذه المؤسسة واسمها اللافت للانتباه كانت شركة تأمين تديرها الحكومة، تقدم التأمين الإجباري ضد حوادث العمل – المعادل لغطاء تأمين إصابات العمال الحديثة. وبمساعدة من والد صديقه، تم تعيين كافكا سنة 1908 كمساعد كاتب.

المؤسسة

بدأ كافكا وظيفته في وقت مثير وهام في تاريخ المؤسسة. وقد تمَّ مؤخراً تحرير مجموعة من المستندات المتعلقة بعمله نشرت تحت عنوان فرانز كافكا: الكتابات المكتبية: Franz Kafka The Office Writings. لعدة سنوات قبل استخدام كافكا، كانت المؤسسة تُدار بشكل سيئ، وتخسر مبالغ كبيرة. وقد وصف كافكا الوضع في مقال له عام 1911 بصور ترقى إلى ما خلقه خياله في رواياته اللاحقة:
نعترف بكل سرور انه حتى العام 1909 فإن التقارير السنوية للمؤسسة، وأرقامها التي كانت توثق عجزاً كان يبدو أنه ينتشر ككائن عضوي تقريباً، قدمت القليل من التشجيع على شعور بالإثارة. وبدلاً من

ذلك، فإن هذه التقارير نجحت في تثبيط كل آمال المؤسسة تجاه المستقبل؛ لقد بدت المؤسسة ببساطة كجثة عنصرها الحي الوحيد هو العجز المتزايد.

كانت المشاكل التي واجهت الشركة واسعة النطاق، فأرباب العمل كانوا يميلون إلى الكذب في التصريح بعدد مستخدميهم المشمولين بالتأمين ورواتبهم بغية تقليص أقساط التأمين التي كان عليهم تسديدها. وكان المفتشون الحكوميون، المستقلون عن المؤسسة، في أحسن الحالات، غير كفوئين، وغالباً ما كانوا فاسدين، وبالتالي كانوا غير راغبين أو غير قادرين على تطبيق قوانين التأمين الإلزامية. إضافة إلى ذلك، فإن هيكل معدلات الأقساط التي تتقاضاها المؤسسة كان اعتباطياً وبالكاد يعتمد على الإحصائيات أو العلوم الاكتوارية. وقد تغيّر هذا الوضع مع استخدام (روبرت مارشنر) مديراً عاماً للمؤسسة سنة 1909. فقد بدأ فوراً بإدخال نظام لتصنيف الأخطار قائم على الإحصائيات الذي فرض أسعاراً أعلى للتأمين على أرباب العمل ممن يكون خطر الحوادث المهنية عندهم كبيراً. وقد تم تطبيق هذا النظام الجديد سنة 1910.

وفي نفس السنة تم ترفيع كافكا ليكون الملاحظ القانوني في المؤسسة، وثُبت على الملاك الدائم كموظف في السلك المدني. وفي موقعه الجديد كان كافكا مسؤولاً عن التعامل مع سيل من الطعون المقدمة للمؤسسة من أرباب العمل الذين لم يكونوا راضين على النظام الجديد لتصنيف الأخطار. فعلى سبيل المثل، فإن أحد مصانع النسيج اعترض على تصنيفه كمصنع نسيج قطني (مع ما يعنيه ذلك من اعتباره يشكل خطراً أكبر بسبب استخدام أجهزة النول السريعة في مصانع القطن) بدلاً من تصنيفه كمصنع نسيج صوفي. كما أن جمعية لصانعي الألعاب كانت غير راضية لتصنيف أعضائها كنجارين ومستخدمين للمكائن الثقيلة، في حين أن معظم أعمالهم كانت تشمل الطلاء، وعمل أقل خطورة في قاعات مفصولة عن المكائن. ويبدو أن موهبة كافكا في الكتابة تم تشخيصها في وقت مبكر في وظيفته. فقد كان يساهم باستمرار في كتابة التقارير السنوية للمؤسسة. أحد هذه التقارير أوردت مقالة متميزة لكافكا بعنوان "إجراءات لمنع حوادث مكائن قشط الخشب" تضمنت مناقشة مفصّلة لأجهزة قشط الخشب، ومقارنة للسلامة النسبية لأجهزة القشط مع آلات التدوير والحفر المربعة والأسطوانية. وكانت المقالة مرفقة بأشكال توضيحية تفصيلية للمكائن مع رسوم مروّعة لأيادي بأصابع مقطوعة (بآلات الحفر المربعة)، وجلد مقشوط أقل حدة (من الآلات الاسطوانية).

المقالات الأخرى التي كتبها كافكا كانت ذات طابع نظري، تدافع عن الحاجة لتغطية جميع المستخدمين في مجموعة من البنائين بغية التوصل إلى توزيع للخطر بما يتفق مع جدول معدلات أقساط التأمين، أو تصف الفروق المالية بين نظام تأمين الحوادث الألماني القائم على دفع المنافع (التعويض) من صندوق الاشتراكات الحالية للعمال pay-as-you-go وبين النظام النمساوي المموّل بالكامل fully funded (من مساهمات العمال و/أو أرباب العمل أو الدولة)(1). وكان نظام المؤسسة يقوم على النموذج النمساوي.

كما شارك كافكا في بعض الأحيان في قضايا قانونية. إحداها كانت تتعلق بتهمة موجهة ضد جوزيف رينيلت Josef Renelt، مالك مقلع وبستان، هي الامتناع عن تسديد أجور التأمين المستحقة للمؤسسة. كان رينيلت يستخدم نفس العمال في المقلع والبستان، ويلحّ بإصرار على أن استحقاقاتهم تخص عملهم فقط في البستان، وبذلك كان يستثني عماله من غطاء التأمين الإلزامي للعمال الصناعيين. وكان كافكا في هذه القضية يمثل المؤسسة في دعواها بوجوب تغطية العمال وتسديد الأقساط لتأمينهم. استغرقت هذه القضية تسع سنين قبل أن تتم تسويتها النهائية سنة 1913 لصالح رينيلت وبكثير من الإحباط لكافكا والمؤسسة. قد لا يكون من قبيل الصدف أن يبدأ كافكا روايته المحاكمة في السنة التالية.

في وقت لاحق في حياته المهنية أخذ كافكا يبحث في موضوع منع الحوادث، وكتب عدة مقالات للمؤسسة حول هذا الموضوع بضمنها مقالتاه "منع الحوادث في المقالع" المزدانة بالصور التوضيحية سنة 1914، و"تصنيف الأخطار ومنع الحوادث في زمن الحرب" سنة 1915. تناولت المقالة الأخيرة التعقيدات المتعلقة بالتأمين والناشئة عن اشتراك النمسا في الحرب العالمية الأولى؛ على سبيل المثل، تصنيف خطر مصنع كان يصنع الأزرار المعدنية تمَّ تحويله إلى معمل عسكري لصنع مفجرات القنابل. وفي مقال له سنة 1916 حول قضايا الحرب المتعلقة بالتأمين أيضاً ناقش كافكا موضوع تأسيس مستشفى عمومي للأمراض النفسية لمعالجة الجنود المتأثرين بصدمات القذائف.

المكتب كعائق

من الواضح أن كافكا كان موظفاً مهماً في المؤسسة. فقد كان يحصل على ترفيعات منتظمة في راتبه ودرجته الوظيفية؛ إذ عُيّنَ نائب سكرتير المؤسسة سنة 1913، ثم سكرتيراً سنة 1919 وسكرتيراً أول سنة 1922. أثناء الحرب حاججت المؤسسة بنجاح أن عمله ضروري للأمة مما جنبه تجنيده للخدمة العسكرية.

أثناء عمله في المؤسسة الذي امتد لحين اضطراره للتقاعد بسبب العجز قبل فترة قصيرة من وفاته، كان كافكا مستغرقاً في مهنة أخرى أيضاً. ففي كل ليلة بعد انتهاء نوبة عمله، وغفوة، ووجبة طعام، كان يجلس ليكتب. لقد كان جدولاً وجده صعباً ومرهقاً – كان يشكو منه دون توقف في رسائله ويومياته – وكان غالباً ما يحلم بالإقلاع عن العمل كلياً.

"طالما لست متحرراً من مكتبي، فأنا ببساطة ضائع، وهذا هو أكثر وضوحاً بالنسبة لي من أي شيء آخر، إنها مجرد مسألة تتعلق بإبقاء رأسي عالياً لأطول فترة ممكنة، كي لا أغرق"، كما كتب كافكا في يومياته عام 1910.

وبعد مضي أربعة أعوام لم يتغير موقفه كثيراً. ففي تموز/ يوليو 1914 كتب لوالديه ان "المكتب مصدر إزعاج كبير لي، وغالباً يكون غير محمول، ولكنه في جوهره سهلٌ". "سأستمر في تسلّق سلّم الرواتب. وما الهدف؟ هذا العمل ليس مناسباً لي، وإذا كانت لا تحقق لي حتى الاستقلال كمكافأة لماذا لا أتخلى عنه؟".

رغم انه كان يتشكى من المتطلبات التي تفرضها عليه حياته المكتبية، وكيف أنها كانت تتدخل في كتاباته، فقد بيَّنت إحدى

يومياته في شباط/ فبراير 1911 أن كافكا أدرك أيضاً أن المتطلبات لم تكن في أساسها غير معقولة. إنه ببساطة كان يرغب ألّا يكون مضطراً للعمل بغية الاعتماد على نفسه مالياً:

"أنا منهك فوق طاقتي. ليس بسبب المكتب بل من عملي الآخر. للمكتب حصة بريئة فيه فقط إلى الحد الذي، إن لم أذهب إلى هناك (المكتب)، فإنني أستطيع أن أعيش بهدوء من أجل عملي الخاص ولن أكون مضطراً لتبذير هذه الساعات الست كل يوم والتي عذبتني إلى درجة لا يمكن لكم تخيلها... وفي التحليل الأخير، أعرف بأن هذا مجرد كلام، فالعيب عندي وللمكتب الحق في أن يقدم لي المطالب المحددة الأكيدة والمبررة. ولكن بالنسبة لي على وجه الخصوص فإنها حياة مزدوجة مرعبة ربما لا مهرب منها سوى الجنون".

اعتماداً إلى حد كبير على هذه الشهادة، فإن كُتاب سيرة كافكا تعاملوا مع حرفته المكتبية كعائق أمام جهوده الأدبية. ماكس برود Max Brod، صديق كافكا، ونصيره الأدبي، وأول كاتب سيرة له، على سبيل المثل، أشار إلى ساعات العمل اليومي الست لكافكا إلى أنها "مأساوية، ونأى باللائمة على عمله في إنزال الأذى بإنتاجيته ككاتب ودفعه نحو حياة "فارغة".

إن إيرنست باول Ernst Pawel، رغم أنه كاتب سيرة ممتاز، إلا أنه لا يجهد ولو قليلاً في إخفاء احتقاره لعمل كافكا التأميني، ويشتط بعيداً في لومه على أخذ عمله بجدية في المقام الأول. "لقد كان في بنيته غير قادر على التعامل مع أية مهمة، مهما كانت تافهة، بعدم اهتمام واحتقار". هكذا يكتب باول عن فترة عمل كافكا في المؤسسة.

وحتى محرري الطبعة الأخيرة من رسائل كافكا المكتبية، والذين يمتازون بمعرفة كبيرة ودراية في ما يتعلق بالجوانب الفنية لعمله التأميني، يكشفون أحياناً عن تحيّزهم (ضد هذا العمل المكتبي). فهم يشيرون، على سبيل المثل، إلى دعوى الاستئناف الذي تقدم به أصحاب مصنع ضد تصنيفه كمصنع للأنسجة القطنية بدلاً من الأنسجة الصوفية إلى أنه "عملية كافكوية" Kafkaesque process وهي من الواضح أنها إشارة غير مناسبة. فدعوى الاستئناف، على كل حال، لم تتوار خلف بيروقراطية مجهولة الهوية إذ تلقت الدعوى ردوداً شاملة (من كافكا نفسه، في الواقع، نيابة عن المؤسسة) وكان الاستئناف في النهاية ناجحاً في نتيجته.

قارن هذا مع المحنة الكافكوية الحقيقية لجوزيف كي في "المحاكمة"، أو غريغور سامسا Gregor Samsa في "المسخ". فكل واحد منهما لا يجد تفسيراً من أي نوع لمأزقه، دونكم أية فرصة للتفاوض على حسم ناجح لمعضلته. ويبدو أن فرضية المحررين (لرسائل كافكا) هي أن التأمين هو بالضرورة نشاط بيروقراطي لا معنى لها ولا يمكن النفاذ إليه، رغم أن أدلتهم الخاصة بهم – المستقاة بشكل كبير من كلمات كافكا نفسه – تظهر خلاف ذلك.

صورة أكثر اكتمالاً

لقد كان موقف كافكا تجاه العمل أكثر تعقيداً مما يعترف به كُتّاب سيرته أو كما توحي قراءة سريعة ليومياته. إن مراسلاته الضخمة مع فيليس باور Felice Bauer، التي كانت خطيبته في وقت ما، توفر رؤية موسعة

تجاه مواقفه من عمله وكذلك عمل أصدقائه وعائلته. فهو يعبّر حقاً عن الإحباط ولكن أيضاً الحماس والفضول والدعابة.

التقى كافكا بباور سنة 1912 من خلال ماكس برود. لم تأخذهم فترة طويلة كي يقعا في حب بعضهما، وكانت علاقتهما ثابتة ولكنها صعبة للسنوات الخمس التالية، فقد كانا مخطوبين لمرتين قبل أن ينفصلا في النهاية. كان كافكا كثيراً ما يكتب لها رسائل طويلة عن كل جوانب حياته. وفي أحيان كثيرة كان يرسل رسائله من مقر العمل، مستخدماً، في بعض الأحيان، الورق الرسمي للمؤسسة. كان يشاركها تفاصيل عمله ويطلب منها مقابل ذلك حكايات عن عملها.

في رسالة له في تشرين الثاني/ نوفمبر 1912 عقد مقارنة إيجابية بين عمله في المؤسسة وعمله السابق في شركة جنرالي:

كان هناك مكان في ممر ضيق يقود إلى مكتبي (في شركة جنرالي للتأمين) حيث كان ينتابني صباح كل يوم تقريباً درجة من اليأس بحيث أن شخصاً أقوى وأكثر تماسكاً مني ربما كان سيقدم على الانتحار بمرح غامر. وغنيٌّ عن القول، إن الأمور هي أحسن في الوقت الحاضر؛ حتى أنني أعامل بلطف استحقه، خاصة من قبل مديري الأكبر. قبل أيام قرأنا معاً في مكتبه كتاب شعر لهايني (Heine) بينما كان المراسلون، ورؤساء الأقسام، والعملاء – ربما لديهم أعمال عاجلة – ينتظرون بفارغ الصبر رؤيته.

وكتب في الشهر التالي لباور مازحاً بفخر عن عمله (في كتابة) التقارير السنوية. "هل عليَّ الحصول على صور المكتب؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنك ستحصلين على ما يشابه التقرير السنويَ للمؤسسة يضم مقالة لي حول آلات التدوير والحفر الأسطوانية! مع رسوم توضيحية! أو حتى مقالة حول تأمين المعامل! أو واحدة حول رؤساء السلامة! عزيزتي، هناك ملذات كثيرة بانتظارك".

أرفق كافكا نسخاً من التقارير برسالته، واعداً بالمزيد عندما تتعلمها عن ظهر قلب.

غالباً ما كان كافكا يكتب عن سفراته لأغراض العمل، مُمثلاً للمؤسسة في المرافعات القانونية أو زائراً لأرباب العمل، بشأن النزاعات أو القضايا المتعلقة بأقساط التأمين. وفي أحيان أخرى، كان يشارك غيره بالحكايات المكتبية الغريبة، كالحكاية عن كاتبة الطابعة لديه، التي أكلت في أحد المرات 25 بيضة مسلوقة في جلسة واحدة.

كانت باور تعمل بأجر في شركة تصنع جهاز إملاء Parlograph. ويبدو أن كافكا كان مبهوراً بعمل هذه الشركة وكتب لها رسالة طويلة في كانون الثاني/ يناير 1915 عرض فيها قائمة بالأفكار حول توسيع السوق لاستعمال الجهاز – بنصبه في الفنادق ومكاتب البريد، على سبيل المثل، أو بتطوير نموذج منه يمكن تشغيله بقطع نقود معدنية أو نموذج يقبل إملاء النص بالهاتف. بدا أنه قد أصيب بخيبة أمل لأن اقتراحاته لم تستثر رداً:

عزيزتي، أليس لديك أي قناعة بقدراتي في عالم الأعمال؟ ألا تتوقعين شيئاً من اقتراحاتي حول جهاز الإملاء؟ إنك في الواقع لم تكتبي كلمة في الرد على ما كَتبتُ عنه. ألا ترين كم أن هذا يهينني؟ إنه كما لو كنت قد أسندت إليّ مكاناً في مكتبك ثم قررتِ رميَيَّ في الخارج مرة أخرى.

في سنة 1912، وهي نفس السنة التي تعرّف فيها على باور، بدأ كافكا الفترة الحقيقية المنتجة الأولى في الكتابة. ففي تلك السنة كتب في ليلة واحدة قصة سماها "الدينونة" The Judgement

وبدأ العمل على كتابة روايته أمريكا Amerika بعد فترة وجيزة. ومع اقتراب نهاية السنة، انتهى من كتابة المسخ، وهو أفضل عمل معروف له اليوم. في رسالة رائعة له بتاريخ 3 كانون الأول/ ديسمبر 1912 يعبّر عن همّه بأن كتابته صارت تؤثر على عمله المكتبي – على الضد من الأمور المعتادة التي كانت مثار قلقه:

لم يمضِ وقت طويل منذ أن بدأت الكتابة بانتظامٍ وباستمرار، ولكن منذ ذلك الوقت تحولت من موظف، ليس مثالياً بأي حال من الأحوال وإنْ كان مفيداً بعض الشيء، ... إلى كابوس لرئيسي... أحيانا أفكر بأنني مسحوق بكتابتي من جهة والمكتب من جهة أخرى. وفي أحيان أخرى أبقي على كليهما على حد سواء متوازنين إلى حد معقول، وخاصة عندما تكون كتابتي في البيت قد ساءت، إلا أنني أخشى أن هذه القدرة (ليس القدرة على الكتابة بشكل سيئ) تتدهور تدريجياً. أحياناً أنظر إلى انحاء المكتب مع تعبير لم يكن لأحد في أي وقت مضى أن يعتقد بأنه ممكن في مكتب. في مثل هذه اللحظات تكون كاتبة الطابعة عندي هي الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يوقظني برفق.

ومهما تكن إحباطاته بشأن المطالب المتنافسة للمكتب والكتابة فإنه من الواضح أن كافكا كان يهتم اهتماماً عميقاً بنوعية عمله المكتبي. ربما كان ينظر إلى كتابة الرواية بأنها حرفته الحقيقية، إلا أنه كان يأخذ كتاباته المتعلقة بحرفته على محمل الجد أيضاً، يتقاسمها بافتخار مع باور بعد شهرين فقط من تعارفهما. وحتى نجاحه في النهاية في الكتابة (الروائية) كان يُلطّفه هاجس تأثيره على واجباته المهنية.

العمل والخيال

وفي نواحٍ كثيرة يبدو أن كافكا كان متماهياً مَع شخصياته في أعماله الروائية. فأسماؤهم غالباً ما تكون متشابهة – بطلا المحاكمة The Trial والقلعة The Castle يحملان اسم جوزيف كَيْ Josef K. وكَيْ K. على التوالي. وهما، مثله تماماً، يتصارعان مع القلق واليأس، وغالباً ما يخضعان لطغيان العالم من حولهما ويتعذبان.

ونفس الشخصيات تكشف أيضاً التزاماً بأعمالها التي هي صدى لالتزام كافكا نفسه بعمله التأميني – وهذا يناقض النظرة التي تقول بأن العمل (المكتبي) كان المصدر الوحيد لتعاسته.

أنظر إلى التعيس غريغور سامسا، الذي تحول إلى حشرة في المسخ. غريغور بائع متجول، يرتحل من مدينة إلى أخرى ليبيع بضاعته. عند اكتشافه لمأزقه، ينتابه فوراً تقريباً الخوف من النتائج المحتملة لادعاء المرض:

حسناً، لنفترض بأنه سيقول إنه مريض؟ لكنَّ هذا سيكون مكروهاً بالمرة وسيبدو مشكوكاً فيه، إذ أنه خلال سنوات عمله الخمس لم يتمرض مرة واحدة. ومن المؤكد أن الرئيس نفسه سيعرضه على طبيب مرضى التأمين، الذي سيلوم والديه لكسل ابنهما، وسيطلب منه الكفّ عن تقديم الأعذار ويحيله إلى طبيب التأمين، وهو بالطبع يعتبر كل البشر متمارضين وهم بصحة جيدة. وهل سيكون مخطئاً إلى هذا الحد بهذه المناسبة؟

غريغور لا مطلب له غير العودة إلى عمله، وهو بكل وضوح أمرٌ مستحيل، وتتحقق مخاوفه عندما يزور رئيس الكتاب في الشركة

مكتبه ويتهمه بإهمال واجباته. وعندما يصبح واضحاً أن تحوّل غريغور قد أصبح دائمياً، يضطر أبواه وأخواته أن يجدوا عملاً لأنفسهم، ويقدم كافكا تفاصيل عملهم في الخياطة، والبيع بالمفرق، والخدمات الغذائية. وفي النهاية، ومع موت غريغور تعرف عائلته عندها كيف تسترخي:

لقد قرروا أن يقضوا هذا اليوم في الاستراحة والذهاب للنزهة، فهم يستحقون ليس فقط مثل هذه الاستراحة من العمل لا بل أنهم في حاجة مطلقة لها. وهكذا جلسوا حول الطاولة وكتبوا ثلاث مذكرات اعتذار، فكتب السيد سامسا لمجلس الإدارة، والسيدة سامسا لرب عملها، وغريتا إلى رئيس الشركة.

وفي حين أن غريغور قاوم الاندفاع لترك العمل رغم وضعه الشاذ، فإن أفراد عائلته لم يشعروا بأي ندم لأخذ إجازة على الرغم من حالتهم الصحية الجيدة. إن المسخ، ناهيكم عن الوجودية السريالية فيها، ربما هي أعظم قصة حول موضوع الإجازة المرضية!

إن معظم الأعمال المعروفة لكافكا تظهر في الحقيقة أبطالاً ملتزمين تماماً بمهنتهم، رغم التحديات الاستثنائية التي تعترضهم. المحاكمة تحكي قصة جوزيف كَيْ، موظف في بنك يُعتقل في أحد الأيام دون إعلامه بطبيعة جريمته وعليه مواجهة المحاكمة. ومن بين التحديات الأخرى التي يواجهها جوزيف كي هو قلقه إزاء تأثير المحاكمة على عمله. ولذلك يضطر إلى كتابة التماسه ليلاً إذ أنه يخشى طلب إجازة كي يقوم بذلك.

وفي فقرة تُذكِّر برسالة كافكا بتاريخ 3 كانون الأول/ديسمبر 1912 إلى باور، يتأسف جوزيف كَيْ لقلة إنتاجيته نتيجة للكتابة التي صار منشغلاً بها في الليل. "كل ساعة قضاها خارج البنك كان بمثابة محاكمة له؛ صحيح أنه لم يستطع، بأي حال من الأحوال، تحقيق استفادة أفضل من ساعات عمله في مكتبه كما كان يقوم به ذات مرة، فإنه ضيّع الكثير من الوقت في التظاهر على القيام بعمل حقيقي، لكن هذا زاد من قلقه عندما لم يكن في مكتبه".

تجربة الإحباط المهني كانت أكبر – إذا كان لأحدنا تخيله – عند كَيْ (K)، الشخصية الرئيسة في القلعة، الرواية التي شرع كافكا بكتابتها سنة 1922 وتركها غير مكتملة وقت وفاته. يعمل كي مسّاحاً للأراضي، يُستدعى للعمل في مدينة صغيرة. يحكم المدينة موظفون يقيمون في قلعة قريبة. عندما يصل كي إلى المدينة يُخبر بعدم وجود عمل له. ويحاول عدة مرات الاتصال بالموظفين في القلعة ليفهم الوضع ويجد حلاً له إلا أن محاولاته تبوء بالفشل. إن هذه الرواية، في جوهرها، هي قصة إنسان يرغب فقط بأداء عمله لكنه يُمنع من ذلك من قبل جهاز بيروقراطي غامض لا يمكنه الوصول أو الرجوع إليه.

هناك شكلٌ أكثر قتامة عن موضوع الواجب المهني في قصة مستوطنة العقاب حيث يستخدم الضابط، الذي لا يحمل اسماً، في معسكر للسجناء، آلة معقدة لتعذيب وإعدام السجناء من خلال نقش الأوامر على ظهورهم. أصبح هذا الجهاز مكروهاً للقائد الذي يدير المعسكر إلا أن الضابط يدافع عن استخدامه أمام أحد المستكشفين الزائرين للمعسكر ويشركه في الشكاوى حول صعوبة إبقاء الجهاز في حالة اشتغال سليمة. ومع هوسه بتفاصيل إيجاد قطع الغيار، على سبيل المثل، فإن الضابط لا يحسّ بالرعب الكامن وراء العمل الذي

يقوم به بلا جدال. وعلى الرغم من أن الضابط قد يكون مُضللاً فإن الضابط يعتقد وبوضوح بأهمية عمله وفي نهاية المطاف يُضحّي بنفسه من أجله (العمل).
إن جميع هذه الشخصيات، مثل كافكا، ملتزمة بعملها ولها قناعة عميقة بأهمية العمل. وفي حين أن كافكا نجح في النهاية كمحام وككاتب، رغم صراعه مع المتطلبات التي كّانت كلتا المهنتين تفرضانه عليه، فإن شخصياته كانت محبطة في أهدافها المهنية. فثلاثة من الأربعة يموتون كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعملهم، ويبقى الرابع حياً ربما لأن الرواية نفسها ظلت غير مكتملة.

نهاية غير سعيدة

الأعمال الروائية لكافكا ليست معروفة بنهاياتها السعيدة، وكان هذا هو الحال بالنسبة لحياته أيضاً؛ ففي سنة 1917، حوالي الوقت الذي كان يقترب فيه من انفصاله النهائي عن باور، تعرّض كافكا لنزف رئوي وتم تشخيص إصابته بالسل. تدهور وضعه ببطء ولكن باطراد في السنوات المقبلة.
استمر كافكا في العمل في المؤسسة لغاية سنة 1922 ونجا من سلسلة من التغيرات المهمة بعد الحرب العالمية الأولى عندما أصبحت بوهيميا جزءاً من دولة چيكوسلوفاكيا التي تشكلت حديثاً وتم تغيير لغة العمل في المؤسسة من الألمانية إلى الچيك. أخذ سلسلة من الإجازات المرضية الطويلة على نحو متزايد (وكان موضوعاً لمراسلات شاملة مع رب عمله)، عائداً بعد كل إجازة إلى العمل، قبل أن يتقاعد أخيراً أواخر سنة 1922. توفي في 3 حزيران/يونيو 1924.

ترك كافكا كتاباته غير المنشورة عند صديقه ماكس برود، مع تعليمات بأن يتم تدميرها دون أن تُقرأ. ومن حسن الحظ للعالم فإن برود تجاهل هذا الطلب وبدأ مشروعاً استمر لعدة عقود في مراجعة وتحرير هذه الثروة من الكتابات، والتي تضمنت مخطوطات لثلاثة من روايات كافكا: المحاكمة، القلعة، وأمريكا.
لقد درس الباحثون في أدب كافكا حياته مطولاً للكشف عن مفاتيح لتفسير أعماله – وهم محقون في ذلك. ولكن العديد منهم سارعوا بهذا الصدد لاعتبار عمله في التأمين إما كعائق أمام مهنته ككاتب أو كمَثل للبيروقراطية المجهولة التي لا يمكن سبر غورها والتي صورها في المحاكمة والقلعة. إلا أن كلمات كافكا نفسه تحكي قصة مغايرة.
لا جدال بأن مطالب عمله كانت تعذّبه وكذلك علاقاته الرومانسية، وعائلته، وكتاباته، وصحته، وتقريباً كل الجوانب الأخرى في حياته. لقد كان الرجل يحب التشكي.
لكن كافكا كان يحب عمله أيضاً –رغم شكاواه– وكان يتقن ما يعمله. فقد استوعب تعقيدات جميع جوانب تأمين الحوادث بدءاً من إدارة الخطر وانتهاءً بالقانون والمالية. كان يعتني بكتابة تقاريره للمؤسسة، وأنتج مستندات شاملة مكتوبة بشكل جيد، ومزدانة برسوم توضيحية، وكانت في نفس الوقت ذات طابع فني لكنها سهلة الفهم. وما زالت بعد مضي قرن على كتابتها صالحة للقراءة للحصول على نظرات ثاقبة في موضوعها. ربما كان كافكا يتأسف للساعات التي يقضيها في المكتب إلا أنه استفاد من وجوده في المكتب إلى أقصى حد، ورسائله إلى باور تكشف عن الرضا الذي كان يحصل عليه من عمله.

إن من الإنصاف أن نفترض بأن إقرار كافكا بأهمية عمله التأميني والالتزام الذي كان يشعر به تجاه أداء العمل بإتقان كان معكوساً على مواقف شخصياته الروائية تجاه أعمالهم. وفي مواجهتهم لعوائق أكبر من تلك التي كان يواجهها كافكا، فقد كانوا غير ناجحين في أهدافهم المهنية، إلا أن أيّ واحد منهم لم يفقد رغبة الاستمرار بالعمل. إن عملهم يوفرّ لهم العزاء الوحيد الممكن في مواجهة التحديات السريالية غير القابلة للفهم.

(1) خطة أو صندوق المعاشات التقاعدية التي لديها أصول كافية لازمة لتوفير جميع الفوائد المستحقة للمتقاعدين. ويأتي التمويل من مساهمات الأعضاء من المستخدمين أو من رب العمل أو كليهما. من أجل أن يكون الصندوق التقاعدي ممولاً بالكامل، يجب أن يكون قادراً على تقديم جميع المدفوعات المتوقعة للمتقاعدين في أوقاتها المستحقة. ولذلك يجب على الطرف الذي يقوم بإدارة الصندوق أن يكون قادراً على التنبؤ وتقدير حجم الأموال المطلوبة سنوياً للإنفاق على دفع المعاشات. وفي ضوء التقديرات يمكن اتخاذ قرار بشأن سلامة الوضع المالي لصندوق المعاشات التقاعدية. (المترجم).

* "From the Office of Kafka"
http://www.milliman.com/uploadedFiles/insight/life-published/pdfs/from-the-office.pdf
Contingencies, November/December 2012. The journal of the American Academy of Actuaries
Copyright © 2012. Translated to Arabic with permission of the American Academy of Actuaries.

طاولة حوارية بعنوان:
(اصلاح العملية الانتخابية... أحد متطلبات البناء الديمقراطي الحقيقي ووسيلة رئيسية في التغيير)

في يوم السبت المصادف الرابع من شهر آذار عام 2017، وعلى قاعة مقر مجلس السلم والتضامن، اقامت مجلة (الثقافة الجديدة) طاولة حوارية، استضافت بها عدداً من السادة القضاة والمحامين والمتخصصين، بالإضافة الى ممثلي عدد من منظمات المجتمع المدني. وكانت الطاولة بعنوان (اصلاح العملية الانتخابية... أحد متطلبات البناء الديمقراطي الحقيقي ووسيلة رئيسية في التغيير).

شارك في أعمال الطاولة:

- **القاضي قاسم العبودي، عضو مجلس النواب**
- **القاضي هادي عزيز**
- **الدكتور جاسم الحلفي**
- **المحامي زهير ضياء الدين**
- **الانسة فيان الشيخ علي**
- **الاستاذ كامل مدحت**
- **السيدة هناء ادور**
- **الاستاذ عبد الكريم عناد مطلك**
- **الاستاذ فرحان قاسم**

وقدّم للطاولة وأدارها ممثلا عن هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، الدكتور سوران قحطان.

في البداية رحب الدكتور سوران بالحضور قائلا: نشكر السادة الحضور على المساهمة في هذه الطاولة، حيث عوّدتكم مجلة (الثقافة الجديدة) على اقامة العديد من النشاطات ومنها عقد الطاولات الحوارية التخصصية. والمجلة عقدت الكثير من الطاولات الحوارية، وفي النية عقد طاولات اخرى مستقبلا .

وقدم بعد ذلك نبذة عن تاريخ المجلة، مشيرا الى أن مجلة (الثقافة الجديدة) يعود اصدارها الى تشرين الاول من العام 1953 بالتعاون بين عدد المثقفين والفنانين والشعراء اليساريين والديمقراطيين. قبل ثورة 14 تموز 1958 صدرت ثلاثة أعداد من المجلة (عامي 1953 و1954) وتم حجب العدد الرابع ولم يصدر الا بعد الثورة وواصلت الصدور بعد ذلك. ومنذ 2003 تصدر المجلة بمعدل مرة واحدة كل شهرين.

بعد ذلك اشار د. سوران الى ان المجلة تتصدى في طاولتها الحوارية هذه، الى موضوعة الانتخابات في العراق، وإلى أي مدى تتطابق التجارب الانتخابية التي جرت في العراق بعد 2003 مع شروط ومعايير الانتخابات الديمقراطية؟ وإلى أي مدى انسجم الاطار التشريعي والقانوني العراقي الذي اجريت هذه الانتخابات ضمن نطاقه وما يتصل به من انظمة وتعليمات واجراءات مع الاطر والتعليمات الدولية، ذات الصلة التي اقرها المجتمع الدولي من خلال معاهدات واتفاقيات ومدونات السلوك.

واضاف د.سوران، إننا في مجلة (الثقافة الجديدة) نهدف من هذه الطاولة الى اطلاق حوار حول الاشكاليات المرتبطة بالعملية الانتخابية، خصوصا وانه لا يفصلنا الكثير من الوقت عن انتخابات مجالس المحافظات التي مخطط لها ان تنعقد في ايلول 2017 وكذلك الانتخابات البرلمانية القادمة.

ان طاولتنا الحوارية هذه تنطلق من فرضية قوامها ان اصلاح العملية الانتخابية يعد أحد أهم متطلبات البناء الديمقراطي الحقيقي ووسيلة رئيسية في التغيير.

لنتفق على آليات الطاولة: يقدم الضيوف مداخلة عن رؤاهم وافكارهم لمدة عشر دقائق، وبعد ذلك يتم فتح المجال لتقديم المداخلات والتساؤلات والآراء.

ثم فتح باب المداخلات للسادة والسيدات الحضور، وحسب التسلسل الآتي:

القاضي قاسم العبودي، عضو مجلس النواب

القاضي قاسم العبودي والى جانبه مدير الندوة الدكتور سوران قحطان

بدأ القاضي قاسم العبودي مداخلته بشكر مجلة (الثقافة الجديدة) على الاستضافة، وأضاف قائلا:

ارجو ان تعتبروني مدعوا الى طاولتكم بصفتي مختصا بالانتخابات، ولست كعضو مجلس نواب وسأنقل رأيي بحيادية. في البدء اود ان اذكر مفاتيح رئيسية للحديث عن طبيعة النظم الانتخابية والانتخابات وهي عبارة عن مقولات بعضها لمصممي النظم الانتخابية. الاولى ان النظام السياسي عادة ما يعمل على صياغة نموذج انتخابي من فئة دمه. والثانية النظام الانتخابي يعمل عمل العجلات التي تسير العملية السياسية، اما ركابها فهم الاحزاب والحكومة والتحالفات وحتى شكل الدولة. أما الثالثة والتي انا مغرم بها كثيرا واقتبستها في كتابي (تأثير النظم الانتخابية في النظام السياسي) فهي لرئيس الوزراء البريطاني الاسبق (ونستون تشرشل) عام 1945 عندما قال: ان الديمقراطية هي اقل نظم الحكم سوءا. واعتقد ان الرجل قال هذه المقولة بعد ان خسر الانتخابات في نفس العام الذي خرج فيه منتصرا من اكبر حرب كونية. إن تقصي النظم الانتخابية وطبيعتها وطبيعة تأثيرها في النظام السياسي يكشف

ان ما قاله (تشرشل) يصدق كثيرا على تلك النظم.

دعونا نتفق انه ليس هناك نظام انتخابي او قانون انتخابي يوصف بالحسن المطلق او القبح المطلق، فهذا الوصف ليس علميا، فلا وجود لنظام انتخابي مثالي. وان المجتمعات الديمقراطية لا تختار نظاما انتخابيا لأنه الافضل او الاحسن او الاكمل بل تختاره لأنه الانسب لذلك المجتمع في وقت معين.

لذلك من المهم ان نستعرض بسرعة انواع النظم الانتخابية لنطلع على مزاياها وعيوبها. وانا في ابحاثي عن النظم الانتخابية كنت قد قسمت العالم من حيث طبيعة النظم الانتخابية الى اربعة معسكرات أو اقسام رئيسية:

الاول هو معسكر انكلترا والدول الناطقة بالإنكليزية. وهي دول تطبق نظام الاغلبية ذا الدور الواحد.

والثاني هو معسكر فرنسا والدول الناطقة بالفرنسية وهي تطبق نظام الاغلبية ذا الدورين.

والثالث معسكر غرب أوربا الذي يطبق نظام التمثيل النسبي.

والمعسكر الرابع والاخير يشمل روسيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق وأوربا الشرقية الذي يطبق النظام المختلط.

نظام الاغلبية ذو الدور الواحد هو اقدم النظم الانتخابية الديمقراطية. ومن مزايا هذا النظام انه عادة ما يخلق حكومات قوية. اذا هناك حزب يحصل على الاغلبية ويشكل الحكومة وتتمترس الاحزاب الاخرى في معارضة قوية وتشكل أحيانا حكومة ظل. أما اهم عيوب هذا النظام فانه أبعد ما يكون عن المفهوم التقليدي للديمقراطية، بسبب بعده عن التمثيل الحقيقي لإرادة الناخبين؛ حيث أن حزبا قد يحصل على ربع الاصوات فقط، يمكنه من ان يشكّل الحكومة. ومن عيوبه ايضا انه يعتبر نظاما عدوا للمرأة؛ حيث لا تتمثل المرأة في ظل هذا النظام بشكل جيد. مثلا في الكونغرس الامريكي لم تصل نسبة النساء الى 5% لحد الآن. ومن عيوبه ايضا تغييب الاقليات بشكل كبير.

وبسبب عيوب هذا النظام، وسعيا الى وجود نظام انتخابي اقرب الى عكس التمثيل الحقيقي، تم (اختراع) نظام الاغلبية ذي الدورين. وهذا النظام له اشكال كثيرة يطول شرحها. لكن عموما يقتضي هذا النظام ان المرشحين للهيئة التنفيذية او التشريعية او الى البرلمان يجب ان يحصلوا على (50% + 1) من اصوات الناخبين للفوز. وعادة لا يمكن تحقيق هذه النسبة من المرحلة الاولى، لذلك يجري الذهاب الى مرحلة ثانية. من مزايا هذا النظام هو الاقتراب اكثر نحو عكس التمثيل الحقيقي وعكس الارادة الشعبية.

لكن أبرز عيوبه خصوصا في الدول حديثة العهد بالديمقراطية، هو ان الفترة بين الدورتين هي فترة صعبة جدا، وحرجة وتتخللها مشاكل كثيرة، تصل في بعض الاحيان الى نزاعات مسلحة.

بالنسبة لطريقة التمثيل النسبي، فلقد تم اختراعها من اجل ضمان تمثيل جميع الشرائح. وبالتالي فإن كل حزب وكل مجموعة بمقدار ما لديها من اصوات تحصل على مقاعد على وفق نسبتها من اجمالي التصويت. من مزايا هذا النظام انه يعكس الارادة الشعبية بشكل جيد، ويضمن تمثيلا للأقليات والمكونات، كما انه نظام صديق للمرأة؛ تتمثل به بشكل جيد في الهيئات التشريعية. لكن اكبر عيوبه انه لا تنشأ عنه حكومات قوية، لذلك عادة ما لا يستطيع حزب واحد ان يحوز اغلبية المقاعد؛ فيضطر الى التحالف مع حزب اخر او اكثر لتشكيل

حكومة . وبما ان هذه الاحزاب قد تكون مختلفة في رؤاها وافكارها وأيدولوجيتها لذلك غالبا ما تنهار تلك الحكومات قبل انتهاء ولايتها وتتم الدعوة الى انتخابات مبكرة.

لذلك دار جدل كبير حول طبيعة وشكل النظام السياسي ونوع الحكومات المطلوبة. والجدل محصور بين منظورين؛ الاول هو للمزيد من التعددية والسماح للمزيد من الاحزاب بالتمثل وكذلك الاقليات. والمنظور الثاني هو تشكيل حكومات قوية. يبدو ان المنظور الثاني وتشكيل الحكومات القوية هو المنظور الراجح الآن. مثلا تركيا لم تستطع تشكيل حكومة قوية إلا بعد وضع عتبة هي الـ 10%. والآن جميع دول أوربا، وانا مسؤول عن كلامي، فيها عتبة للدخول الى المجالس المنتخبة. ومتوسط العتبة في أوربا هو 2.4%. لذلك فالجدل يدور حول طبيعة وشكل النظام السياسي ونوع الحكومات.

نظام الاغلبية ونظام التمثيل النسبي، كلاهما لهما مزايا وعيوب. وكان هناك حديث ماذا لو جمعنا بين النظامين؟ بحيث سيجد الواحد منهما الخلل في النظام الاخر. وبذلك نشأ النظام المختلط. وهذا النظام مطبق في المانيا وانتشر في كل الدول التي نشأت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، بالإضافة الى دول شرق أوربا.

في المحصلة ليس هناك نظام انتخابي مثالي، أو نظام انتخابي يمكن ان نقول عنه انه الجيد او الافضل او الاحسن. لكننا في وقت ما نحتاج الى نظام انتخابي معين للمجتمع؛ فالنظام الانتخابي هو من يترجم طبيعة وفلسفة النظام السياسي؛ ففي بعض الاحيان نحتاج الى نظام يمنح تمثيلا واسعا وتمثيلا للأقليات. وفي احيان اخرى نحن بحاجة الى نظام انتخابي يؤدي الى تشكيل حكومة قوية. ومن جهة اخرى فالعكس صحيح ايضا؛ فالنظام الانتخابي يؤثر في طبيعة النظام السياسي وفي شكل الدولة، فيما اذا كانت ماضية في نقل مزيد من الصلاحيات الى الوحدات الادارية المكونة او استرجاعها الى المركز.

ان الجدل في العراق حول النظام الانتخابي لن ينتهي في وقت قصير، بل يحتاج الى وقت طويل حتى نستقر على نوع النظام الانتخابي المناسب لمجتمعنا.

القاضي هادي عزيز

نحن الان نشبه الوضع اللبناني بشكل كبير لأننا نمر بنفس المرحلة. بالنسبة لي الانتخابات عبارة عن مجموعة قوانين: قانون الانتخابات، قانون المفوضية وقانون الاحزاب، ولا يمكن فصل الواحد عن الآخر. عندما تكون هذه القوانين صالحة للتعبير عن ارادة الناخب في ذلك الوقت، نقول اننا امام قوانين ديمقراطية حقيقية. المشكلة التي تواجهنا حاليا تنحصر في طريقة توزيع المقاعد؛ فهي التي تجعل الاحزاب "الكبيرة" تستحوذ على المقاعد البرلمانية او تمكن القوى والاحزاب " الصغيرة" من الوصول الى المجالس التمثيلية. الحراك السياسي العام الذي شهده البلد في الفترة الاخيرة، يجعلنا امام ثلاث طروحات:

الاول: هو التصويت الفردي، نقل الدائرة الانتخابية من المحافظة الى الاقضية، في الوقت الذي نطمح فيه، بجعل العراق دائرة انتخابية واحدة.

الطرح الثاني: هو نظام الاغلبية الذي تتبناه احدى الكتل السياسية الكبيرة.

والطرح الاخير: هو اللعب العراقي بامتياز بسانت ليغو (1.6) او (1.7) أو حتى وصولا الى (1.9) .

وكل هذا لا ينزع نحو تأسيس دولة مدنية ديمقراطية. فنقل الدائرة الانتخابية – في انتخابات مجالس المحافظات – من المحافظة الى القضاء، معناه اختيار صاحب الوجاهة ومن هو صاحب الوجاهة في الاقضية؟ انه امام الجامع او شيخ العشيرة. واذا كان هذا النظام مطبقا في انكلترا فلأن انكلترا الآن تعيش في مرحلة ما بعد الحداثة، ونحن لم نزل في مرحلة ما قبل الدولة. اما نظام الاغلبية، فمن يأخذ كل المقاعد في المجلس المنتخب للمنطقة الانتخابية، اما البقية حتى لو كانوا قد حصلوا كلهم على اربعة اضعاف

عدد المصوتين له، فيذهبون الى المعارضة. وعندما اضع النسبة الاولى لسانت ليغو (1.7) فإن ذلك يعني منع الاحزاب والقوى "الصغيرة" من التمثل.

الدرس البليغ الذي تلقته الاحزاب الكبيرة عندما اضطرت واضطر مجلس النواب ان يضع تشريعا جديدا اذعانا لقرار المحكمة الاتحادية العليا بإلغاء الفقرة رابعا من المادة ثالثا من قانون رقم (26) لسنة 2009 والتي اعتبرت غير دستورية. وكان التشريع في انتخابات مجالس الانتخابات بوضع سانت ليغو بصيغته الاصلية كآلية لاحتساب الاصوات. وعندما اتت النتائج وتمكنت القوى والاحزاب المدنية على قلتها من ايصال عشرة اعضاء الى مجالس المحافظات على صعيد الوطن، اهتزت بقوة عروش القوى والقيادات المهيمنة. هذا الامر دعا المتنفذين والمتمكنين من السلطة الى تعويق سانت ليغو بوضع صيغ جديدة.

ان القوى المتنفذة والماسكة بالسلطة والتي تسعى الى الحفاظ او زيادة عدد مقاعدها تعمل وتتصرف بصيغة الاغلبية، على الرغم من ان النص القانوني يشير الى التمثيل النسبي. ونحن كمدنيين ومنظمات المجتمع ومساهمين بالحراك، يجب ان نخرج بقرار موحد حول: ماذا نريد؟

الدكتور جاسم الحلفي/ عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

شكرا لمجلة (الثقافة الجديدة) وشكرا للحضور. بداية لا بدّ من الاشارة الى أنه لا وجود لنظام انتخابي عادل، ولا قانون انتخابي مثالي او صالح لكل المجتمعات. الامر المهم في كل هذه الانظمة وفي كل هذه القوانين انها نظم وقوانين تمثل وتعبر عن مصالح الماسكين بالسلطة. واضعها هو صاحب السلطة، يشكلها ويكيفها لأجل تأبيد وجوده بها.

ان التجربة التاريخية المتعلقة بالانتخابات قد تطورت. وحق الشعوب بأن تتمثل تمثيلا عادلا، اصبح ليس قضية رأي عام وحسب، وانما جزء من منظومة قوانين واخلاق للشعوب واهمية مشاركتها في صنع تاريخ آخر؛ تاريخ يحدد مستقبلها ويدافع عن مصالحها، لا سيما مصالح الكادحين، والفقراء والمهمشين وكل البعيدين عن السلطة والمال.

في بداية التسعينيات وبعد انهيار المنظومة الاشتراكية اصبح موضوع اشراك الشعوب في تقرير مصيرها بواسطة الانتخابات وبنظم وقوانين انتخابية الديمقراطية في رأس اهتمامات المنظمات الدولية، بما فيها الامم المتحدة. لذلك سعت هذه المنظمات الى ضمان كوتا نسوية والى اشراك وفسح المجال امام القوى الجديدة بأن تتمثل، سواء كانت هذه القوى صغيرة أم كبيرة، وذلك انطلاقا من اهمية توسيع المشاركة السياسية، وعدم حصر المشاركة السياسية بيد من يملك المال

ويملك السلطة والنفوذ واعطاء الفرصة للآخرين ليتمثلوا.
ولنتحدث الآن عن العراق بشكل ملموس دون الاستغراق بالتجارب التاريخية؛ التجربة الانتخابية الاولى في العراق، مع كل العيوب، كانت جيدة. فقد كان في ذهنية الامم المتحدة توسيع المشاركة ولكن نظام المحاصصة سيطر في تلك الفترة بعد أن تشكلت الكتل السنية والشيعية والكردية. لقد بدأت تلك الكتل بعملية ترسيخ هذا النظام عبر وجودها في البرلمان، فبدأت تشريع القوانين لتأبيد وجودها في السلط. واصبح العراقي مؤمنا ان النتيجة الانتخابية معلومة سواء ذهب الى الانتخابات ام لم يذهب. هذا النظام انتج فسادا وولد واحة للإرهاب والفوضى وقلة الخدمات. وتشكلت منظومة للحكم محصورة في منطقة تعني من ضمن ما تعني حتى وجود نظامين للأخلاق؛ واحد للعراقيين عموما، وآخر للمنطقة الخضراء وحكامها. وكل الجهد منصب من طرف سكنة هذه المنطقة ـ بما يمثلونه اجتماعيا وطبقيا وفكريا وذهنيا ـ على ان يبقوا من اصحاب "الدم الابيض" اي دم خالص لهم. في حين ان المنطقة الاخرى دمها مباح للقتل والجوع.
وما ان بدأت المنطقة الاخيرة تنتفض لإحقاق حقوقها حتى بدأنا نشاهد استمرارا بالتشبث بالسلطة. فالمتنفذون واعضاء مجلس النواب يسعون فقط الى المال والنفوذ والجاه والمزيد من السلطة. وبواسطة الحصانة حموا انفسهم من الملاحقات والمحاسبات القانونية، لما اقترفوه من جرائم بحق الشعب العراقي، وهي كثيرة.

المعركة الآن ليست معركة سهلة، كما انها ليست معركة انتخابات، وانما معركة مصير لهذا الشعب الذي يبقى في دوامة القتل والعنف والسرقات. هي معركة تحول العراقي الى مالك للحرية ومالك للكرامة الانسانية. انها معركة حول النظام السياسي الذي انتج هذه المنظومة الانتخابية.
ان الاستقرار السياسي لا يتحقق بإعادة انتاج الكتل الكبيرة نفسها، وإن بأشكال جديدة وانما يتحقق الاستقرار بتوسيع المشاركة وتوفير البيئة المناسبة للشعب، كي ينتخب ممثليه، كي يحقق مصيره، بتوفير القناعة للناس وبردم الهوّة من عدم الثقة التي تكونت، وبدأت تزداد عمقا بين المواطن والمسؤول.
هناك عزوف عن التسجيل وتحديث سجل الناخبين، وهذا يمثل تعبيرا عن رفض الانتخابات ويعني رفضا للنظام السياسي القائم، رفضا للشريحة السياسية الحاكمة وهو رفض ليس سلبيا بل اعتبره رفضا ايجابيا في بعض معانيه ايضا؛ فهو نوع من انواع الاحتجاج. ولا يمكن القضاء على ظاهرة عزوف الناخب عن المشاركة في الانتخابات الا بتغيير المنظومة الانتخابية التي انتجها نظام المحاصصة المنتج للفساد.
بالنسبة لمفوضية الانتخابات ولجنة الخبراء التي ستختارها هناك قناعة، انه مهما قيل عن اختيار المستقلين فإن المفوضية لن تكون مستقلة. لذلك انا مع المقترح الذي يدعو الى اختيار قضاة لإدارة العملية الانتخابية؛ فهم اقل تأثرا بالضغوط وبالطائفية وبأجندة الفساد.
بالنسبة الى قانون الانتخابات، فالأفضل

بالنسبة لوضع العراق هو ان يكون العراق دائرة انتخابية واحدة، واذا لم يكن، فنصف عدد المقاعد للدائرة الواحدة والنص الباقي للدوائر المتعددة وهو مشروع الصدر. بينما قوى المحاصصة ما زالت تطالب بأن يكون العراق عبارة عن 18 دائرة انتخابية. بالنسبة لطريقة توزيع المقاعد، فإن الطريقة الأكثر ديمقراطية بالتأكيد هي الباقي الاقوى، واذا لم يكن فطريقة (سانت ليغو) بصيغتها الاصلية، علما أن قوى المحاصصة تطالب بسانت ليغو مشوه، وذلك بهدف تأبيد سيطرتها.

ماذا يدل قانون الانتخابات الذي يطرحه هؤلاء؟ انه يدل على انهم متوحدون لمجابهة الشعب كله.

ان الانتخابات في العراق تعني ان 80% اموال شراء وجدان وشراء ضمير اعلام، 10% ولاء والـ 10% المتبقية برامج سياسية وانتخابية.

ختاما، يمكن القول انه ومن دون قانون منصف وعادل يشجع المشاركة، ودون تغيير المفوضية ودون اعلان النتائج في يوم الانتخابات ذاته ودون ان يكون (السيرفر) الرئيس بيد مجموعة ثقاة وليس بيد واحد، فلا يمكن ان تحصل انتخابات نظيفة. ان المراقبة في المحطة الانتخابية لا تعني شيئا، اذا تم التلاعب في السيرفر الرئيسي والرقابة من وراء الشاشات في المفوضية لا تعني شيئا، اذا تم جمع النتائج في غرفة واحدة، ولا نعرف كيف تتم ترجمة الاصوات الى نتائج.

المحامي زهير ضياء الدين

في الحقيقة سأتحدث عن موضوع واحد فقط هو مبدأ علوية الدستور؛ فنصوص الدستور حاكمة. المحكمة الاتحادية العليا عندما اصدرت اكثر من قرار بخصوص قوانين الانتخابات واعتبرت عددا من مواد قوانين الانتخابات غير دستورية، انطلاقا من أن مبدأ ترحيل اصوات الناخبين من المرشح الذي انتخبه الى مرشح لم ينتخبه يعتبر غير دستوري. اذن وبغض النظر عن النظام الانتخابي سواء كان ينسجم او لا ينسجم مع قوانين الدول المتطورة فإن هذا المبدأ اصبح مبدأ دستوريا. وبالتالي فإن مجلس النواب ملزم بأن يعتمد هذا المبدأ عند اعداد القوانين الانتخابية الجديدة.

فيان الشيخ علي/ محامية ورئيسة منظمة تموز للتنمية الإجتماعية

سأحاول ان أمر على جميع محاور الورقة. بالنسبة الى مفوضية الانتخابات حسب رأينا كمنظمات مجتمع مدني مراقبة للانتخابات، فمن الصعب ضمن هذه الظروف أن تأتي مفوضية انتخابات مستقلة وبعيدة عن مبدأ المحاصصة حتى وان كان المرشح لعضوية المفوضية مستقلا فإنه في النهاية سيتبع هذه الكتلة او تلك والاسباب لهذا كثيرة. ومعالجة هذا الموضوع في هذه المرحلة تقوم على مراقبة مستمرة على آلية اختيار المرشحين للمفوضية، من اجل ضمان استقلال المفوضين مستقبلا ضمان التزامهم بالعمل بمهنية. فيجب الضغط من اجل اختيار المهنيين وبهذا لن تؤثر اسس المحاصصة التي جاؤوا بها. إن تأجيل انتخابات المحافظات ودمجها مع انتخابات مجلس النواب في سنة 2018 معناها اختيار مفوضية جديدة، وبالتالي نستطيع مراقبة اختيار المرشحين، ونركز على تشكيل مجلس المفوضين والتصدي لأية خروقات.

بالنسبة لسجل الناخبين فإن العراق يعاني منذ عام 2004 ولحد الآن من عدم وجود سجل انتخابي رصين. وحاليا هناك عملية التسجيل البايومتري ومثل كل مرة ليس هناك اعداد لسجلات رصينة وهناك عزوف عن تحديث سجلات الناخبين. لكن هذا العزوف لا يكشف عن حجم المشاركة في الانتخابات. فالمشاركة في الانتخابات تتأثر وتتغير بسبب العديد من الظروف والعوامل في الايام الاخيرة ما قبل الانتخابات مباشرة. وبالتالي سوف تكون هناك مشاكل

في السجل الانتخابي كما حدث في السابق. والسبب الرئيسي في كل هذا هو عدم وجود تعداد سكاني يوفر قاعدة بيانات رصينة.
طبعا السجل الانتخابي معلق على باب المحطة في يوم الانتخابات، ومن اهم المسائل التي طالبنا نحن كمنظمات مجتمع مدني مراقبة للانتخابات، ان يعلن السجل الانتخابي قبل فترة وهذا السجل من الممكن ان يعلن من خلال الانترنت، بسبب وجود قاعدة بيانات الكترونية. وسجل الناخبين من الضروري ان يوزع على المراقبين في محطات الاقتراع. وهذا سيحد من التجاوزات وعمليات التصويت المتكررة .
اما بالنسبة لقانون الانتخابات فإن منظمات المجتمع المدني لم تتفق الى حد الان على شكل للقانون. وآن الاوان ان نتفق على شكل القانون الانتخابي ومن ثم الضغط بحملة فليس فقط المهم ان ندخل بنقاشات حوله. المهم إيجاد آلية ضغط.
بالنسبة لموضوعة دور منظمات المجتمع المدني فإن دورها يشمل مراقبة عملية الانتخابات في كل المراحل، بالإضافة الى دورها التقييمي للعملية الانتخابية. مع دعوتنا الى تغيير طبيعة ودور مراقبة منظمات المجتمع المدني في يوم الانتخابات وابراز دورها، فاعتماد تقارير المراقبين وهذا سيعطي المنظمات قوة اكثر.
ونحن كمنظمات مجتمع مدني مع دمج الانتخابات (انتخابات مجالس المحافظات مع مجلس النواب) فهو يوفر لنا الاموال كمنظمات كما انه يخلص الجميع من مأزق المفوضية الحالية. كما يوفر الاستقرار للمناطق المحررة من سيطرة داعش، وعودة النازحين وبالتالي يوفر مناخا افضل لتوسيع دائرة المشاركة في الانتخابات. كما يوفر وقتا لتحرير مناطق اخرى.
وبالنسبة لموضوعة الدعاية الانتخابية؛ فنحن مع ان يتضمن قانون الانتخابات وكذلك تعليمات المفوضية تشديد العقوبات على الجرائم الانتخابية، وعلى المخالفين لتعليمات الداعية الانتخابية وان لا يقتصر الموضوع على دفع غرامة (15) مليوناً لمن خالف مرة واحدة او لعدة مرات. والعقوبة يجب ان تطبق على الجميع. لم نلحظ انه تم تغريم الحزب الحاكم او حزب رئيس الحكومة الذين قاموا بأبشع حالات استغلال للمال العام.
نحن مع الغاء مرحلة التصويت الخاص لأنه حلقة زائدة 97-98% من اعضاء وزارة الدفاع قاموا بعملية التسجيل البايومتري، بينما نسبة التسجيل بين النازحين وبين المواطنين في بعض المحافظات4%. مع ملاحظة ان المشاركين في التصويت الخاص يحصلون على بطاقة الناخب وفي بعض الاحيان يصوتون لمرتين. ونحن ايضا مع الغاء تصويت الخارج لأنها غير مجدية بسبب كلفته العالية، وان مقدار ما ينفق عليها من اموال اكثر من مردود الاصوات ويحرم العددين من المشاركة ويكثف المشاركة في بعض الدول.

كامل مدحت/ ناشط مدني، عضو المكتب التنفيذي للتيار الديمقراطي

حقيقة الزملاء قدموا موضوعات اساسية في مجال اصلاح العملية الانتخابية، لكني سأؤكد على بعض المسائل ذات العلاقة بنزاهة وحرية الانتخابات. في الاساس لدينا موضوعة قانون الاحزاب والذي إلى الان لم يفعل بشكل صحيح، والانتخابات قادمة على الابواب والكثير من الاحزاب الماسكة بالسلطة تنطبق عليها المحاذير التي وردت في قانون الاحزاب، مثلا. وسنتكلم بشكل مباشر: في مجال الطائفية وتشجيع التطرف. نعم، لا يوجد قانون مثالي ومطلق وعادل للانتخابات لكن في العراق ونحن ما زلنا في مرحلة انتقالية فيها الديمقراطية ما زالت متعثرة تتطلب الركون اولا الى الدستور، ومن ثم الى قرارات المحكمة الاتحادية الضامنة لشيء من العدالة في هذا الموضوع. وعليه فإن الجهد الاساسي لكل النشاطات المدنية الآن هو كيف نستطيع كسر احتكار السلطة من القوى المتنفذة في السلطة التشريعية او السلطة التنفيذية. ان السلطة التشريعية الان هي انعكاس مباشر للتقسيم الطائفي والاثني في العراق. وبالتالي هذه المؤسسة اذا بقيت على حالها فإن العراق سائر من ازمة الى ازمة وبالتالي فهو مهدد بمستقبله.

من المهم ايضا وجود ادارة مستقلة للانتخابات. كيف نضمن ذلك والتجربة اكدت في الانتخابات السابقة ان هذه الدائرة/ المفوضية هي انعكاس للنظام السياسي في العراق، نظام المحاصصة الطائفي الاثني. الاستقلالية تعني ان تكون المفوضية بعيدة عن تأثيرات المتنفذين في السلطة والتأثيرات الحزبية. في الانتخابات السابقة، لاحظنا

كيف ان المتنفذين يدخلون الى قاعات الفرز والعد والكنترول الرئيسي ويتحكمون في كود وشفرة البرنامج الخاص بجمع واعلان النتائج. وبالتالي كان هناك مجال واسع للتزوير. القضاء العراقي وان كانت عليه بعض التساؤلات لكنه يبقى هو الضمانة الوحيدة المتبقية في الحقيقة، في أن يكون داعما لعملية انتخابية نزيهة.

ومن جهة اخرى، وددت ايضا ان اركز على ان تحديات العملية الانتخابية يجب ان لا تغيب عن البال طبعا، عدا موضوعة الفساد واستخدام المال العام في الانتخابات. من ابرز هذه التحديات، الارهاب، فالمعركة ضده ما زالت قائمة، وكذلك موضوعة المهجرين والنازحين وكيف ستتم عملية ادارة الانتخابات بطريقة تضمن ان النتائج ستعكس حقيقة تمثيلهم. وكذلك لدينا موضوعة التغيير الديمغرافي في بعض المناطق وكيف يصحح هذا التغيير؟ كل هذه التحديات يجب ان لا تغييب عن واضعي القانون او عن من سيدير العملية الانتخابية.

نحن مع ان يكون العراق دائرة انتخابية واحدة لكن الماسكين بالسلطة يقفون ضد هذه المسألة. ونحن ايضا مع نظام انتخابي متوازن يسمح بالمشاركة العادلة في ادارة الشأن العام في البلد ولا يسمح او يؤبد التهميش والاقصاء الذي هو اساس الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لا للتهميش لا للإقصاء في اي قانون والحراك المدني والمجتمع المدني سوف يصر ويواصل عملية الضغط على اصحاب القرار، كي يكون لدنيا قانون عادل ومنصف للانتخابات.

هناء ادور/ ناشطة مدنية في مجال حقوق الإنسان والمرأة

اولا هناك اجماع من قبل من هُم بالسلطة ومن قبل منظمات المجتمع المدني ومن المواطنين من ان النظام العراقي يمر بأزمة عميقة. وان هذه الازمة ولدت كوارث عديدة، ولا يوجد اختلاف حول هذا الموضع. ثانيا، الكل متفق على ضرورة الاصلاح وهذه من المسائل المهمة التي يجب ان نضعها امامنا في عملية الانتخابات سواء كانت قوانين او نظما او اجراءات. وأخيرا ونحن مقبلون على القضاء، ما هو الحل بعد ان ننظر لكل هذه التفاصيل والتعقيدات، حل يضمن مصلحة البلد ومصلحة الناس. هذه القضايا الثلاث من الضروري ان نضعها في حسابنا قبل ان نطالب بتشريع القوانين. نحن امام مرحلة معقدة جدا وانا لا اعتقد ان السياسيين لا يشعرون بهذا.

أريد هنا ان ارجع الى المادة (1) من الدستور، فمرجعيتنا هي الدستور بالإضافة الى قرارات وانظمة المحكمة الاتحادية. تنص هذه المادة على الآتي: (جمهورية العراق دولة اتحادية واحدة مستقلة ذات سيادة كاملة، نظام الحكم فيها جمهوري نيابي (برلماني) ديمقراطي، وهذا الدستور ضامن لوحدة العراق). وايضا اذا رجعنا الى الدستور في المادة رقم (5) والمادة رقم (6) والتي تؤكد مسائل مهمة. بالنسبة للمادة رقم (5) تنص على: (السيادة للقانون، والشعب مصدر السلطات وشرعيتها، يمارسها بالاقتراع السري العام المباشر وعبر مؤسساته الدستورية). أما المادة رقم (6) فتنص على الآتي: (يتم تداول السلطة سلميا، عبر الوسائل الديمقراطية المنصوص عليها في هذا الدستور).

فاذن نحن امام هذه الاسس ندخل العملية الانتخابية، والعملية الانتخابية القادمة ليس كما هو الحال في العمليات الانتخابية السابقة لأن المأزق الذي يمر فيه العراق الآن هو مأزق عميق وقد يضعنا امام خطر كبير كبلد وأيضا كشعب في الاساس. هل المسألة هي مسألة حكومات أغلبية من اجل استقرار العملية السياسية؟ بالعكس، ان المسألة يجب ان تنطلقِ من الاسس السابقة وليس ان تخدم كتلاً سياسية او فئات سياسية فشلت تماما في ادارة دفة الحكم في العراق وكانت سببا في كل هذه المآسي التي نعيشها في بلدنا اليوم. لذا يجب ان يكون لنا هاجس الناس وليس هاجس الكتل السياسية، هاجس الناس هذا مثلته ايضا منظمات المجتمع المدني، وايضا هاجس الاصلاح الذي رفعه السياسيون حتى وان كان على الورق دون ان يستجد شيء حقيقي على ارض الواقع.

في العملية السياسية الحالية وطيلة اربع عشرة سنة نلاحظ استبعاد دور مهم، هو دور الشباب. والشباب هم من يصنع المستقبل وهم من سيبني ويعيش في هذا البلد. ومنذ البداية عندما طرحنا ان يكون سن المشاركة السياسية وسن المرشحين للانتخابات اقل ما يمكن، دائما ما كنا نجابه من قبل السياسيين بمقولات مثل: هؤلاء عبثيون، هؤلاء غير ناضجين! وبرأيي ان سن الشباب المسموح لهم بالمشاركة السياسية والانتخابات يمكن ان يكون حتى اقل من (25) عاما، ففي المغرب مثلا تم تخفيض السن الى (18) سنة. وحتى في قضية تأسيس الاحزاب يجب ان يخفض السن. فلننظر الى كل السياسيين الحاليين متى مارسوا العمل السياسي؟ لقد دخلوا عالم السياسة في فترة الفتوة وبداية الشباب. وبرأيي يجب ان نضع كوتا للشباب بالإضافة الى النساء في القانون الجديد. وكوتا الشباب موجودة في بعض بلدان العالم. فما بالكم في بلد 65% من نفوسه هم من الفئة العمرية اقل من 30 سنة.

اما بالنسبة الى كوتا النساء فللأسف الشديد جرى التلاعب بها دائما، وهذا تم بأشكال مختلفة. لن ادخل في تفاصيل هذه المسألة لكني أود ان اقول انه يجب على المرشحة التي تأخذ مقعدها الانتخابي من خلال الانتخابات ان لا تحسب ضمن الكوتا، وإنما تحسب الكوتا لمن لم يصل الى عتبة الانتخابات، وبذلك تفسير الدستور على ان لا تقل عن نسبة 25%. وكنا نصر في انتخابات مجالس المحافظات ما قبل الاخيرة، ان تكوّن كوتا النساء الربع في كل مجلس محافظة، وليس على العدد الاجمالي.

ايضا في ما يخص قانون الاحزاب السياسية، فإنه لأول مرة سيطبق وسيبقى تطبيقه اعوج. فهذه الانتخابات ستأخذ بنظر الاعتبار قانون الاحزاب، لكن هذا القانون اصبح مجرد قانون شكلي. والاغرب من ذلك اننا نلاحظ اليوم ان تنظيمات مسلحة ستدخل الانتخابات وهذه كارثة. بل ان الكل فرح بان هذه التنظيمات المسلحة هي جزء من العملية السياسية. اننا في الوقت الذي نطالب فيه انه حتى في الاجهزة الامنية والعسكرية يجب ان يستبعدون حتى من التصويت اذا كنا نريد ان يكون ولاء العاملين في السلك الامني والعسكري للدولة العراقية وليس ولاء الى فئات سياسية محددة. وبذلك انا لا ادعو الى الغاء التصويت الخاص فقط وانما ادعو الى عدم مشاركة اعضاء الاجهزة الامنية والعسكرية في الانتخابات. نعم، هذا فيه شيء من الانتقاص من الديمقراطية ولكن هذا مهم اليوم اذا كنا نبحث عن بناء دولة وطنية في هذه المرحلة. ويمكن في المستقبل

وبعد استقرار الوضع الامني والسياسي ان نلغي هذا المنع.
ايضا في ما يخص تعديل الدستور، اننا نريد ان نقلص عدد النواب بشكل خاص، ولكن هل نتصور ان يتعدل الدستور خلال هذه الفترة؟ وسواء شئنا ام ابينا ستضاف اعداد جديدة الى مجلس النواب بسبب زيادة عدد السكان. ما يتم تداوله بين الناس ان السياسيين سيدخلوننا بدوامة قانون الانتخابات والمفوضية فترة طويلة وقبل اسابيع من الانتخابات سيتم اقرار قانون يدير العملية كما يرغب به السياسيون. اذن علينا نحن – كمجتمع مدني وكمنظمات – ان نوعي الناس كيف يتم العمل على وقف هذه المناورة من قبل السياسيين المرفوضين من قبل هؤلاء الناس.
ان القضية التي يجب ان نضغط عليها، هي ان الاصلاح ليس كلاما او ادعاءات او احلاما بل هو عملية عميقة لبناء الدولة العراقية والنظام السياسي في العراق. واستقرار العملية السياسية لا يتم من خلال تشكيل حكومة قوية او حكومة اغلبية تمرر القرارات والسياسية. فهذا المفهوم مبسط وبدائي وفيه تلاعب بالتعابير وتلاعب بعقول الناس.
بالنسبة للدعاية الانتخابية فلننظر الى قانون تونس. هذا القانون حدد تحديدات واضحة لكيفية قيام الاحزاب بالدعاية الانتخابية. وهي تحديدات مقيدة تماما، في عدم تجاوز نسبة محددة من الاموال في الدعاية التي يقوم بها المرشح للانتخابات او الاحزاب المرشحة. واذا تجاوز على هذه النسبة يحرم من الانتخابات. وهنا أتساءل: لماذا لا نستعين بمثل هذه التجارب التي هي جزء من المحيط الذي نعيش فيه، والتي يمكن ان تضمن نزاهة وعدالة وشفافية الانتخابات؟
منذ بداية التجربة الديمقراطية في العراق نتذكر كم ساعدت منظمات المجتمع المدني المواطنين في التعريف بالانتخابات وماذا تعني وتشجيعهم على تحديث السجل الانتخابي. والآن هناك انعدام لأي شكل من اشكال الدعم لمنظمات المجتمع المدني وبرامجها التي تشجع المواطنين على المشاركة في الانتخابات وتعرفهم بأهمية العملية الانتخابية. ما جرى في الفترات الاخيرة ان المفوضية عندها برامج الدعاية والاعلام وهي من تقوم بعملية الدعاية... الخ. وباعتقادي حدث تلاعب كبير في هذه العملية واصبحت ايضا عملية سطحية اكثر منها عملية دقيقة. ونحن امام ضرورة القيام بوضع برامج تشجيعية من قبل المنظمات قبل الانتخابات بسنة.
للأسف الشديد قانون اختيار مفوضية الانتخابات، يخلو من ضرورة وجود منظمات المجتمع المدني في عملية اختيار المفوضين. ولكن من الممكن ايضا ان يكونوا مراقبين لكل الاجتماعات والاجراءات من اجل اختيار المفوضية الجديدة. ومن الضروري ايضا فسح المجال امام وسائل الاعلام من الضروري ان تتواجد كي يكون واضحا امام الناس كيف تتم عملية الاختيار.
اعتذر كثيرا على الاطالة لكني اؤكد اننا بحاجة الى ان تؤدي العملية الانتخابية هدفا اساسيا هو ضمان وحدة العراق، ضمان ان يتوقف النزف المادي لثروات العراق، ضمان لإقامة نظام سياسي عادل يعبر عن تداول سلمي للسلطة.

الدكتور فلاح حاجم/ استاذ في كلية القانون/ جامعة القادسية

الزملاء غطوا موضوع الطاولة بشكل كامل، ولكن اعتقد انه عندما انهارت الدولة العراقية وهو انهيار كامل بعد الاحتلال برزت بدائل الدولة ممثلة بالعشيرة والطائفة والاثنية... الخ. وبدلا من تشريع قانون خاص يساعد في بناء الدولة ومؤسساتها وضع قانون يعزز دور الاثنيات والطوائف والعشائر. وبدلا من ان يكون العراق دائرة انتخابية واحدة كرست موضوعة ان يكون العراق (18) دائرة انتخابية بعدد محافظاته. اذن نحن امام هذه الاشكالية، فبدلا من ان تكون الانتخابات وسيلة لبناء مؤسسات الدولة المنهارة، اصبحت وسيلة لتعزيز بدائل الدولة. لا بد من الاشارة هنا الى أن العراق ليس هو الدولة الوحيدة الذي مر بمثل هذه الظروف، فمثلا سبقتنا روسيا عندما انهار الاتحاد السوفيتي وقد عشت هذه التجربة بحذافيرها. لكن الروس استشرفوا هذه المسألة وكان لديهم احساس ان الدولة تنهار: مثلا استقلال دول البلطيق الثلاث. لذلك بدا الروس بوضع تشريعات لهذه الفترة واطلقوا عليها (تشريعات المرحلة الانتقالية). واستمرت هذه التشريعات منذ عام 1989 اي قبل انهيار الاتحاد السوفيتي بحوالي سنتين، واستمرت الى عام 1993 اي الى حين اقرار الدستور الروسي. بالنسبة لنا في العراق فإننا دخلنا مباشرة ـ وبعد انهيار الدولة ـ الى العملية الديمقراطية دون تشريعات للمرحلة الانتقالية. وما يجري الآن هو بالتأكيد حصاد لسنوات التي اعقبت 2003. كان من الممكن ان توضع قوانين

وتشريعات انتقالية اشبه ما تكون بقانون (ادارة الدولة للمرحلة الانتقالية). قانون ادارة الدولة للمرحلة الانتقالية من وجهة نظري يعتبر نموذجا إذ بعد ان تراجع قسم من مواده، تجده يفوق الدستور بكثير من جوانبه. الدستور جاء ليجمع ما لا يجمع، ووضع اساسا للدولة الاثنية والطوائف. اذن باعتقادي ان الخلل الذي يجري هو بسبب انتقال العراق الى الديمقراطية دون المرور بمرحلة انتقالية. الآن يوجد بصيص من الامل لإعادة بناء البلد على اساس المواطنة من خلال قانون انتخابي يجعل من العراق دائرة انتخابية واحدة. فالعراقي وفق القانون الحالي قانون الدوائر ينتخب الاقرب والاقرب هو الاثنية او الطائفة او ابن المنطقة او العشيرة. بينما في وضع العراق دائرة واحدة يمكن لابن بغداد ان ينخب ابن البصرة وابن ديالى ينتخب ابن نينوى وهكذا. وكان من الممكن تعزيز اللحمة الوطنية من خلال قانون انتخابي رصين يحول العراق الى دائرة انتخابية واحدة. ايضا ان الوصفة التي يستخدمها المتنفذون للتمسك بالسلطة هي (سانت ليغو) بصيغته العراقية المشوهة. فسانت ليغو الاصلي اساسا وضع وفيه شبه عدالة وشبه مساواة، لاشراك اكبر عدد ممكن من الناس في ادارة الدول.

طبعا، هناك الكثير من التشويهات الاجرائية ايضا من خلال استعراض تجارب البلدان، ومن ضمنها ان بعض الدول تقوم في فترة ما قبل الدورة الانتخابية بتغييرات ادارية. فلجمع اصوات الموالين تقوم بدمج محافظات او اقاليم. واما لتضييع اصوات المعارضة فتقوم بتفريق او تقسيم المحافظة او الاقليم الى اثنين او اكثر، وهذا جرى في روسيا في الانتخابات ما قبل الاخيرة.

هناك اساليب كثيرة لتشويه العملية الانتخابية، ومنذ انتخاب مجلس شيوخ روما عندما كان التصويت يجري بالصراخ (ومن هنا اشتق مصطلح التصويت) والذي يتحصل على اعلى اصوات الصراخ يعتبر فائزا. فمنذ ذلك الحين تتكرر اشكاليات الانتخابات وستبقى قائمة والاصلاحات تنتزع ولا تمنح. وهكذا فإنه ومن خلال الضغط الجماهيري ومن خلال النضال يمكن اصلاح العملية السياسية، وفي المرحلة الحالية يجب التركيز على تغيير القانون الانتخابي.

الاستاذ عبد الكريم عناد مطلك/ مشروع تقدم

اعتقد ان الاخوان غطوا الموضوع من جميع جوانبه وبجميع تفاصيله، غير أن النقطة الاساسية – برأيي – هي ما هو المخرج من هذا الحديث كله؟ المواطن وكيف نستطيع النهوض به، المواطن الذي يعيش حاليا في ظل ازمة. الانتخابات تجري منذ 2003 ولحد الآن لكن المواطن وبسبب وضع البلد بدأ يشعر بانه لو بقي على النظام السابق افضل له من التغيير من هذا النظام.

النقطة الاخرى التي يجب ان تعطى بعدا اكبر هي ان الديمقراطية دون قوانين ليست ديمقراطية. فالولايات المتحدة الامريكية تعرف نفسها انها بلد دستوري. فبوجود الدستور والقوانين يستطيع ان يحدد المواطن مجال عمله وسيعرف حقوقه وواجباته.

اننا نسعى في الظرف الحالي الى تحقيق مصلحة المواطن العراقي من خلال الانتخابات في نهاية المطاف، وفي الظرف الحالي ما الذي يمكن ان نقدمه لهذا المواطن؟

السيد فرحان قاسم
عضو مجلس محافظة بغداد

اشكر الاخوات والاخوة الذين قدموا طروحات تمثل هموم الشعب العراقي. انا اريد ان انطلق من قضية اساسية، من ما هو ملموس في التجربة العراقية بعد اربعة عشر عاما على التغيير. وسأنطلق من تجربة محافظة بغداد. مجلس المحافظة هو جهة تشريعية وجهة رقابية حسب ما مثبت بالدستور. فهل مارست مجالس المحافظات ومنها مجلس محافظة بغداد الدورين الرقابي والتشريعي؟ بالنسبة لمجلس المحافظة فإنه لم يؤد دوره التشريعي بصورة حقيقية وهذا ليس ارتباطا بإشكالية قانونية دستورية، وانما هي قضية كفاءة. فالعناصر التي وصلت الى مجلس المحافظة هي بشكل عام – اقول بشكل عام – لا تمتلك كفاءة المشرع. ولذلك ونحن بتجربة اربع سنوات لم نصدر الا تشريعين فقط؛ الاول ساعدنا فيه مشروع تقدم وهو قانون المشاركة الضريبية، والقانون الثاني هو قانون الشفافية. هذا عدا بعض التشريعات البسيطة التي تتعلق بالجباية. لكن امامنا الكثير من التشريعات التي لم نستطع تشريعها بسبب الخلافات والاهم بسبب غياب الكفاءة. كذلك لم يستطع المجلس ان يمارس دوره الرقابي. فعضو مجلس المحافظة بدل من ان يكون رقيبا للمواطنين على الجهات التنفيذية، أصبح ذيلا للجهاز التنفيذي بل اصبح عاملا مكرسا للفساد، وأصبح طرفا للفساد بشكل مباشر أو غير مباشر. ما أريد أن اقوله انه ليس فقط النظم الانتخابية يجب ان تتغير، بل ان النظام السياسي نفسه الذي انتج مثل هذه المجالس يجب ان يتغير. لماذا؟ لان النظم

الانتخابية كما قال د. جاسم الحلفي هي نتاج نظام سياسي، وهي بالتالي اداة بيد النظام السياسي لتحقيق مآربه. اننا عندما نتحدث عن اربعة عشر عاما من الكارثة ومن الفشل يجب ان نركز على ما هو اساسي وهو: النظام السياسي الذي انتجها.

ان تغيير النظام السياسي والنظم الانتخابية، لم يعد مطلبا لقوى سياسية او لقوى مدنية وإنما اصبح مطلبا شعبيا. والاصرار على ان يسير العراق على نفس النهج، وبنفس الطريقة وبنفس نمط التفكير هو اصرار على بقاء العراق في مرحلة غير محسوبة النتائج، بل اصرار على تدمير البلاد. ان الاصرار على اعادة انتاج مجالس المحافظات والهيئات التشريعية الاخرى بنفس الطريقة هو اصرار على الخطيئة.

اذن، المسألة هي ليست فقط تغيير هذه النقطة او رفع تلك عن قانون الانتخابات: دائرة واحدة ام دوائر متعددة، الباقي الاقوى ام سانت ليغو، سانت ليغو المشوه ام غيره. فأي تغيير في القانون قد يبقى شكليا ما لم يتم تغيير المنظومة السياسية التي انتجته. وإن المسألة يجب ان تكون اعادة نظر جذرية وبرؤية جديدة تسمح للشعب العراقي بأن يعبر فعلا وبشكل حقيقي عن آرائه، وان ينتخب فعلا من يمثلون ارادته الحقيقية.

ان سبب فشل مجلس المحافظة ليس الكتل الصغيرة، بل الكتل الكبيرة التي تقاسمت المناصب والامتيازات والمنافع، وهي الآن تعمل على اعادة توزيع المناصب والامتيازات من جديد. فالسياسة في فهم هؤلاء هي فن التلاعب، فن السيطرة غير المشروعة. وما هي النتيجة؟ النتيجة 780 مشروعا متلكأ الى اليوم .

في النهاية اقول اذا استمر الوضع على ما هو عليه، فنحن ذاهبون الى المحرقة، لذا يجب اعادة النظر في النظام السياسي وايضا في النظام الانتخابي.

الدكتور احمد علي ابراهيم/ سكرتير المجلس العراقي للسلم والتضامن

اننا في ديمقراطية وليدة، والديمقراطية حديثة على المجتمع وبالتالي فإن احتمالات استمرارية ايجاد صيغ قانونية جديدة للانتخابات واردة؛ فمن منظور ديمقراطي فإن الديمقراطية هي من تصلح نفسها بنفسها. والديمقراطية ليس فيها حل مثالي ولا نتوقع منها ان تأتينا بملائكة. ان الاساس في المشاركة في العملية الديمقراطية هي المشاريع السياسية التي تطرحها قوى سياسية.

وملاحظة اضافية، اذهب من جديد الى ما قاله القاضي قاسم العبودي وهو اننا نختار القانون الانتخابي الملائم لمجتمعنا. وان تكون هناك ورشة او طاولة حوارية مثل هذه ايضا، تدرس وتبحث اختيار افضل اشكال النظم والقوانين الانتخابية.

تساؤلي هو عندما يقال ان الهدف من النظام الانتخابي وقانون انتخابي معين هو انتاج حكومة قوية بمعنى حكومة فاعلة، حكومة منسجمة وذات قرار. لكن تساؤلي هو بعد انتخابات مجالس المحافظات جرى تغيير سانت ليغو الاصلي بسانت ليغو المعدل بهدف ان تكون هناك كتل كبيرة وقليلة داخل مجلس النواب كي ينتج عنها حكومة قوية. انا اعتقد ان هذا قد يكون عاملا من عوامل خلق حكومة قوية لكنه ليس العامل الاوحد او الرئيسي، وبالتالي فإن الفرية التي قد تنطلي على بعض الناس بأن مجلس النواب قد يتشرذم يفترض ان تفند؛ ففي مجلس النواب الحالي جرت اصطفافات مختلفة ثم جاءت "كتلة الاصلاح" وغيرها وكل هذا لم يؤكد صحة هذه "النظرية".

ونحن كمجتمع فيه الديمقراطية وليدة يجب ان نسعى الى ان يكون هناك تمثيل حقيقي واسع في الوقت الحاضر، اما حينما تستقر الديمقراطية في ذلك الوقت يمكن الحديث عن اشكال ونظم مختلفة اخرى.

النقطة الاضافية التي اود التأكيد عليها هي ان القاعدة الاساسية التي يجب ان ينبني عليها النظام الديمقراطي والتي اقرها الدستور هي قاعدة التداول السلمي للسلطة، وهذه القاعدة لا يحققها إلا وجود ثلاثة اشياء: قانون انتخابات حقيقي، الحرية الكاملة للترشيح والانتخاب، والمراقبة وما شابه ذلك. وبدون هذا لن يتحقق نظام ديمقراطي حقيقي. ان الاخلال بعملية التداول السلمي للسلطة هو من صنع المأزق الذي نعيش فيه والذي يسعى نحوه عبر تشريع قانون انتخابي يعطل على الناس حرية المشاركة الواسعة وحرية ان يكون للناخب صوت فعلي.

بعد ذلك قدم القاضي قاسم العبودي عددا من التوضيحات والردود معبرا فيها عن وجهة نظره بشان بعض القضايا التي طرحت.

النقطة الاولى وتتعلق بانتخابات الخارج، يرى القاضي العبودي انها غير مجدية بسبب كلفتها العالية، وان مقدار ما ينفق عليها من اموال اكثر من مردود الاصوات، ولحد الان لم يشارك اكثر من 250 الف مواطن في كل هذه الدول، برغم كل الاستعدادات والاموال التي انفقت.

اما القضية الثانية فتتعلق باستخدام التقنية في الانتخابات وهي لا غنى عنها في هذه العملية، لكن ستتفاجؤون من المعلومة التالية، وهي ان العالم يعود من استخدام التقنية الالكترونية الى استخدام الورق. فمثلا بلجيكا وهولندا تركتا التصويت الالكتروني، كما ان نصف الولايات في الولايات المتحدة تصوت ورقيا. في الانتخابات التشريعية في روسيا استخدمت آلة (صندوق) اشبه بجهاز السكنر تدخل فيه ورقة الاقتراع دون ان يحفظها لكنه يسجل معلوماتها ثم يرسلها الى المكتب الوطني. في انتخابات الرئاسة في روسيا استخدمت فقط في 5% من المراكز. والسبب في تقليص استخدمها الكبير هذا هو كثرة العطلات، وكذلك تعقيدها بالنسبة الى المواطن والاهم هو تعرضها الى عمليات التهكير الالكتروني.

من طرق المراقبة الالكترونية المستخدمة ايضا في روسيا هو تزويد كل محطة بـ(ويب كوم webcam) ويمكن لكل من يشاء متابعتها ومشاهدة مجريات التصويت والعد والفرز. لكن تبقى التقنية الالكترونية، وبرأي كل الخبراء، تتميز بعيب مهم وهو افتقارها الى الشفافية، كون الورق يستطيع الجميع متابعته لكن اشخاص محدودين ولأسباب مختلفة يستطيعون متابعة التقنية والاجهزة الالكترونية. وللتذكير فإن مشكلة فلوريدا عام 2000 في انتخابات بوش – ال غور سببها عطل في الجهاز. لذلك يجب ان لا نذهب بعيدا في مسألة التقنية خاصة في بيئة مثل العراق ليس فيها كهرباء مستقرة، ليس فيها خبرة الكترونية. طبعا التقنية لا غنى عنها في مسألة العد والفرز بسبب تعقد الحسابات.

بالنسبة لنظام التسجيل البايومتري، فإنه يجب ان يتضمن المادة الحيوية (الصورة، بصمات الاصابع، قزحية العين) منذ البداية وقبل التوزيع. لكن هذا لم يحدث فوزع كبطاقة اعتيادية والآن تتم عملية التضمين ولحد الان كما اعلن لم يصلوا الى

الحد المطلوب وهناك العديد من الاجهزة معطلة عن الاستخدام بسبب غياب الكادر. بالنسبة لتسجيل منتسبي الاجهزة الامنية والعسكرية فانه يتم الضغط عليهم انك لن تستلم الراتب اذا لم تقم بعملية التسجيل.

من القضايا الخطرة في مسألة استخدام التقنية في الانتخابات اننا عندما نتعاقد على استيراد الاجهزة الالكترونية، فيجب ان يكون هناك اعداد جيدة للقيام بإدامتها حتى لا نبقى رهينين للشركة المصنعة.

القضية الثالثة هي مسألة القضاة، فإنه ليس هناك مانع دستوري من ان يتولى القضاة ادارة الانتخابات، وهذا لا يعني ان يتولى القاضي منصبا تنفيذيا. ولكننا اعتدنا ان ينسب او ينتدب القاضي الى منصب تنفيذي (عمل غير قضائي) لمدة معينة اقصاها ثلاث سنوات في مجلس الوزراء او رئاسة الجمهورية. وهو بذلك لن يعمل بصفته كقاضي او يمارس القضاء. وأعتقد ان مسألة عدم دستورية ادارة القضاء للعملية الانتخابية هي مسألة مبالغ بها.

نعم، الاحزاب تؤثر في اختيار اعضاء المفوضية. لكن المشكلة هي ليست في من يدير العملية الانتخابية؛ من الممكن ان تكون مفوضية مستقلة ومن الممكن ان تكون وزارة الداخلية أو حتى من الممكن ان تكون الاحزاب هي من يدير العملية الانتخابية، كما يحدث في الدنمارك والنروج فالأحزاب ترسل من يمثلهم لإدارة كل العملية الانتخابية دون ان يكون هناك حبر سري ولا علامات مبنية في ورقة الاقتراع، والسبب هو وجود ثقة في النظام السياسي. بل حتى اختيار النظام السياسي لا يعتبر مشكلة اذا كان هناك ثقة في النظام السياسي. اذاً المشكلة هي ليست في اختيار المفوضين، او ان القضاء هو من يدير الانتخابات. في الحقيقة المشكلة هي انعدام الثقة في النظام السياسي.

بالنسبة الى سانت ليغو، فهو طريقة وضعت عام 1910 للسماح بالمزيد من التعددية. عدلت النسبة بعد ذلك لتبدأ بـ (1.4) واليوم لا وجود لسانت ليغو يبدأ بـ (1) . بل وبعد ذلك توجهوا الى وضع عتبة بالإضافة الى سانت ليغو من اجل تشكيل حكومات قوية.

اتفق مع د. جاسم الحلفي على خطورة استخدام المال السياسي ليس في العراق وحده لكن في العالم اجمع. وحدثت ظاهرة شراء المصوتين بطرق مختلفة.

المسألة التي لم تبحث في الندوة اليوم هي مسألة السلوك الانتخابي للناخب نفسه. الناخب دائما ما ينتقد بشدة لكنه امام صندوق الاقتراع مسير. ودائما ما تحرك الناخب الشعارات التي تظهر بشكل كبير في فترة الانتخابات خصوصا الطائفية والقومية. لذلك من الضروري الارتقاء بالسلوك الانتخابي.

نصوص قديمة

فصول من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي* التأسيس

عزيز سباهي

لقد حظي الحزب الشيوعي العراقي باهتمام واسع من جانب الكتاب والباحثين. وكرّس عدد منهم كثيراً من اهتمامه لتناول تاريخ المسيرة النضالية الطويلة التي قطعها الحزب او بعضاً منها. وتعددت الزوايا التي نُظر منها الى هذا التاريخ. وبالرغم من ان بعضهم قد أفاض كثيراً في بحثه كما فعل الاستاذ حنا بطاطو، تظل هناك حاجة، اليوم وغداً الى دراسة مسيرة الحزب او مراحل منها جديدة، ليس فقط لأن هذا الحزب لعب ويلعب دوراً مهماً في نضال الشعب العراقي من أجل الحرية والتقدم والمساواة، وانما لأن المسيرة ذاتها بفعل جسامة الأحداث التي مرّ بها والمطاردات والاضطهادات التي توالت عليه، اكتنفها كثير من الغموض في بعض مواضعها، وتعرضت الى التشويه والتناسي، وصار لزاماً أن يجري البحث مرة واخرى للكشف عن هذه الواقعة أو تلك.

ان التاريخ هو محاججة او جدل لا نهاية له. فمع كل حقيقة تُكتشف يجري هنا أو هناك تعديل في الصورة. ثم إن التاريخ الذي يوضع، سواء وعى صاحبه او لم يع، يظل يعكس موقفه هو من القضية العامة التي ينظر اليها، قضية المجتمع الذي يعيش فيه.

لا يخفي المؤلف انحيازه الى هذا الحزب.. ولكن ما قيمة هذا الانحياز إذا لم يتدعم بالحقائق. يقول أستاذ التاريخ البريطاني إدورد كار: إن التاريخ العظيم يُكتب بالضبط حين تستنير رؤية المؤرخ وحقائقه، حوار لا نهاية له بين الحاضر والماضي. لقد علمتنا الأحداث أن هناك حاجة جدية لأن ندقق كثيراً في مسيرتنا فليس كل ما أقدمنا عليه كان حقاً خالصاً، رغم أن المسيرة ظلت مجيدة. من هنا انطلق المؤلف في بحثه.

لقد ظل المؤلف يجمع ما يسعفه الحظ به من وثائق، ويستمع الى كثيرين ممن شاركوا في الاحداث وسيواصل بحثه واتصالاته، ويسره جداً ان يدعمه كل من يهمه الأمر بما يتيسر له.. لكنه يعرف ان له حدوداً ينتهي عندها، وان الكلمة الأخيرة لن تقال ابداً طالما كان هناك بحث وتقص وتطور في وجهات النظر، ثم هي تظل رهينَة ما يتوفر للبحث من حرية في الوصول الى كثير من البنيات المادية، وفي الظروف كظروف العراق القائمة لن تتوفر حتى البلاد الحرية.

يبدو أن عام 1934 قد حسم الأمر بالنسبة للشيوعيين الأوائل بشأن توحيد منظماتهم. فقد صح عزمهم في هذا العام على تأسيس حزبهم الخاص. في الأول من تشرين الثاني 1933 قدم جعفر أبو التمن كتاباً الى المؤتمر العام للحزب الوطني العراقي، يعلن فيه اعتزاله العمل السياسي. إثر ذلك أعلن بعض اعضاء المؤتمر وقف عمل الحزب وتبعهم الآخرون بعد فترة قصيرة. وبحل الحزب الوطني العراقي تكون المعارضة الحزبية الرسمية قد توقفت بعد أن سبقه حزب المعارضة الآخر،

الإخاء الوطني، الى حل نفسه والتخلي عن معارضة الارتباط ببريطانيا. وبحل الحزب الوطني العراقي فقدت جماهير واسعة المنبر السياسي الذي كانت تعبر من خلاله، وبرغم محدوديته، عن معارضتها لسياسات الحكام الموالية لبريطانيا، أما بالنسبة للشيوعيين الذين اتخذوا منه مجالاً مناسباً وعلنياً لتحركهم بين الجماهير دفاعاً عن القضية الوطنية، وعن قضايا الجماهير الأخرى، كما هو الشأن في الناصرية والبصرة بوجه خاص، فقد وضعهم الحل امام مسألة ملحة وعاجلة، وهي العمل لإيجاد منظمتهم الخاصة السرية، وفي ذات الوقت السعي لتوفير المنابر العلنية التي تدعم نشاطهم السري. وقد تلمس الشيوعيون حاجتهم الماسة هذه خلال تحركهم بين الناس لدعم المبادرة الى مقاطعة شركة الكهرباء البلجيكية – البريطانية في بغداد التي بدأتها نقابات العمال في 5 كانون الأول 1933 واستمرت حتى كانون الثاني 1934. ففي هذه الأيام كثف الشيوعيون من لقاءاتهم ببعضهم كثيراً، ونشطوا للتعارف في ما بينهم وتوحيد الجماعات المبعثرة، كما يروي حسن عباس الكرباس، أحد مؤسسي الحزب، فيقول إن زميله، الطالب في مدرسة الصناعة، عبدالرحمن داود، وهو من أهالي الناصرية قد عرّفه بـ"الأسطه" وكان هذا لقباً يطلقونه في ما بينهم على من يريدون تبريزه من أصحابهم (والأسطه بالعامية العراقية رئيس العمل ومن يتقنه) والأسطه هذا كان يوسف سلمان يوسف الذي كان يلتف حوله الشباب الشيوعي في الناصرية والبصرة. ومن يومها اصبح الكرباس شديد الارتباط به. ويروى ايضاً ان يوسف سلمان كان هو الذي عرّفه بقاسم حسن وأوصاه بالعمل معه. عرفه بجميل توما ونوري روفائيل ومهدي هاشم وموسى حبيب. ويلوح أن يوسف سلمان بعد تركه الناصرية والتجائه الى بغداد نشط كثيراً في تعريف شيوعيي بغداد المبعثرين ببعضهم، وتوثيق روابطهم بشيوعيي الناصرية والبصرة، وحثهم على تكوين منظمتهم الموحدة وبالفعل ساروا في هذا الاتجاه وكونوا منظمتهم المنشودة (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) التي أبدلت اسمها بعد أشهر الى الحزب الشيوعي العراقي، والتي ضمت كل الشيوعيين في بغداد والبصرة والناصرية والديوانية والعمارة والنجف. هكذا ظهر الى الوجود الحزب الشيوعي العراقي.

ومع ذلك تظل هنا تساؤلات عديدة تتطلب الحسم قبل متابعة الطريق المجيد الذي سلكه هذا الحزب: كيف تم تأسيس الحزب، ومن هم مؤسسوه، ومتى تم تأسيسه؟

لا نملك، للأسف، من البينات المادية ما يكفي لتوفير الاجابة القاطعة على هذه التساؤلات. وتظل هناك حاجة الى مزيد من التقصي. وبصراحة، فإن الحزب الشيوعي العراقي لم يتعامل مع هذه المسألة تعاملاً علمياً. فلقد مرت على الحزب أوقات، كان بوسعه أن يدقق هذا الأمر وبسهولة. فعدا عن توفر الفرص للاطلاع على الوثائق لدى دوائر البوليس، كان المؤسسون المتعارف عليهم أحياء، وكان بوسعه الحصول على معلومات وافية منهم بشأن هذه المسألة او غيرها. لقد ظل الحزب يحتفل هو والجماهير المحيطة به، كل عام، بذكرى تأسيسه في الحادي والثلاثين من آذار 1934، فعلى أي أساس استند في هذا التحديد؟ حري بنا أولاً أن نذكر أن تقليد الاحتفال بميلاد الحزب أرسى لأول مرة في سجن بعقوبة المركزي عام 1954 حين كان يجتمع هناك معظم السجناء الشيوعيين الذين عاشوا مع يوسف سلمان يوسف (فهد) في سجن الكوت، وكان على رأس العمل الحزبي آنذاك حميد عثمان بما عرف عنه من ميل

الى اتخاذ القرارات العاجلة وغير المسببة المدروسة جيداً. ففي ذلك العام كتبت مجلة (كفاح السجين الثوري)(1) في عددها التاسع عشر الصادر من 23 نيسان 1954 أن الحزب الشيوعي العراقي تأسس في الحادي والثلاثين من آذار 1934. لا نذكر اليوم كيف ورد هذا التاريخ المحدد ومن الذي قال به، ولكن، كما هو واضح، أن هذا التحديد جاء اعتماداً على الذاكرة وحدها. بعد اسبوع من ذلك ظهرت جريدة الحزب المركزية في عددها الثالث والصادر من الأول من أيار 1954 وهي تحمل ذات الإشارة الى تأسيس الحزب استناداً الى ما ذكره الشيوعيون القدماء في السجن.

في التقرير الذي القاه يوسف سلمان يوسف (فهد) أمام الكونفرس الأول للحزب عام 1944، أي قبل عشر سنوات من تاريخ صدور العدد المذكور من (كفاح السجين الثوري)، والمعروف باسم (قضيتنا الوطنية) جاء: "لقد أدى نضال الطبقة العاملة العراقية لتأليف نقابات لها عام 1929 ولتأليف حزبها الشيوعي عام 1934 والقيام باضرابات جماعية ومظاهرات سياسية عديدة"(2). ان لهذا التحديد قيمة كبرى فيما نحن بصدده. فقائله، اولاً هو يوسف سلمان يوسف بالذات الشخص الذي لعب اكبر الأدوار في إرساء دعائم الشيوعية في العراق، وفي تأسيس الحزب الذات. وثانيها إن القول به يأتي في تقرير مهم ويخضع للتدقيق، وفي أول مؤتمر يعقده الحزب منذ تأسيسه؛ وثالثها إن القول جاء بعد عشر سنوات فقط من وقائع التأسيس وذاكرة القائل لا شك فيها هنا.

وإذا ما عدنا الى مذكرات حسن عباس الكرباس، وهو احد الذين أسهموا في التأسيس، نجد في هذا الشأن ما يأتي: "الحزب على حد فهمي – هو ظاهرة لنشاط وعمل اجتماعي معين وفق فلسفة معينة هي الماركسية – اللينينية لطبقة من الناس، لا يمكن أن ينبثق للوجود فجأة كعمل جاهز ومهيأ آنياً، وإنما هو ينمو ويظهر للوجود كظاهرة اجتماعية حية خلال فترات (زمن) تطول أو تقصر حسب مقتضيات البيئة التي يتكون فيها. وحزبنا مر في أول أمره بفترات ثلاث، سميتها فترة لقاح الأفكار وفترة المخاض، ثم إعلان الولادة. فالأولى انتهت عام 1933، والثانية استغرقت عام 1934 وهي التي حفلت بنشاط التأسيس وتهيئة المطبعة الأولى، والثالثة هي فترة عام 1935 حصل فيها الاعلان المادي لكيان الحزب بمنشوره الأول في 14 /3 /1935 ثم واصل جهاده تحت راية جريدته الأولى (كفاح الشعب)(3).

ويضع الكرباس قائمة باسماء الذين يعتبرهم مؤسسي الحزب وحسب أهميتهم في عملية التأسيس وهي على النحو الآتي:

1 – يوسف سلمان (فهد في ما بعد) 2 – عاصم فليح 3 – قاسم حسن 4 – مهدي هاشم 5 – نوري روفائيل 6 – حسن عباس 7 – يوسف اسماعيل 8 – عبدالرحمن داود 9 – موسى حبيب

ويعلق على القائمة قائلاً: "هؤلاء كانوا هم القائمين في الحركة في بغداد والتحضيرات خلال عامي 1933 – 1934 حتى قيام الحزب وعلى تماس مباشر بعضهم مع البعض، علماً ان يوسف سلمان كان له ايضاً بعض الاصدقاء والمجندين والمؤيدين في البصرة والناصرية. ومن الاسماء التي سمعتها في حينه اسم زكريا الياس وسامي نادر وظافر في البصرة، وربما كان لعاصم ايضاً من المؤيدين، ولكن حسب مشاهداتي لا استطيع أن أعتبر أحداً غير ذوي الاسماء التسعة، هم من المؤسسين القائمين". ويلاحظ كذلك أن ثلاثة من هؤلاء وهم يوسف اسماعيل ونوري روفائيل وموسى حبيب قد انسحبوا في "فترة

المخاض"، أي في عام 1934(4). ويشار هنا الى أنه استبعد من قائمته جميل توما، رغم أنه يعرفه جدياً وممن جمع يوسف سلمان بينهما. ونحن لا نستبعد أن يكون جميل توما قد نفر من الارتباط التنظيمي، لأنه كما قال هو عن نفسه "كنت فردي النزعة، وكنت أحب تعليم الآخرين ولا أحب تنظيمهم"(5).

على هذا النحو تتطابق رواية الكرباس مع ما جاء به يوسف سلمان (فهد) في تقريره الذي أشرنا اليه من أن عام 1934 هو عام التأسيس. ويضعنا القول بـ 31 آذار 1934 تحديداً امام إشكال آخر. فالثابت أن عاصم فليح الذي اختير كمسؤول أول للحزب لم يعد من موسكو حيث كان يدرس في (مدرسة كادحي الشرق)، إلا بعد منتصف عام 1934 (في 18 آب 1934 طبقاً لتقارير البوليس، وتتفق هذه مع رواية الرفيق محمود الأطرش الذي يقول "في أوائل صيف 1934 وصل الرفيق العراقي عاصم الى بيروت قادماً من موسكو بعد إتمام دراسته وتوجه عن طريق لبنان الى العراق"(6)). في المقابل لم يغادر يوسف سلمان يوسف قاصداً موسكو ليلتحق بمدرسة كادحي الشرق إلا في كانون الأول 1934 حسبما يروي الكرباس. وهكذا بالتأسيس إذن جرى بين هذين التاريخين. ومرة أخرى تؤكد لنا رواية الرفيق محمود الاطرش هذا الأمر. فيشير الى أن عاصم "بعد ذهابه الى العراق ببضعة شهور أعلمنا بمجيء فهد، سلمان يوسف، الى بيروت في طريقه للدراسة في موسكو. وبما أنني لم أتمكن من مقابلته سنة 1930 حين أتى الى فلسطين، لذلك صممت على مقابلته شخصياً للتعارف والاطلاع على حقيقة أوضاع الحزب الشيوعي العراقي. أتذكر أنه تم لقاؤنا بواسطة الرفيق نقولا شاوي قرب مبنى الكلية الامريكية. بعد التعارف جرى الحديث بيننا عن الوضع في العراق، وعلى احوال الحزب الشيوعي العراقي الفتي. وكان أول من أعلمني بتكوينه في العراق، بعد عودة الرفيق عاصم، كان تكوينه أول خطوة جيدة حققها الشيوعيون العراقيون". ويستطرد الأطرش ويقول: "كان الرفيق فهد او سلمان يوسف سلمان (الاطرش يلفظ الاسم على طريقة الجزائريين بتقديم اسم العائلة على الإسم الأول او الشخصي – المؤلف) متفائلاً جداً بمستقبل الحزب الشيوعي العراقي" (7). أما الاعتراض الذي يثيره بطاطو والذي يشكك بكون التأسيس قد تم في عام 1934، وإنما في عام 1935 استناداً الى أن قاسم حسن، أحد العناصر الأساسية في التأسيس لم يطلق سراحه من الاعتقال في الناصرية إلا في 24 كانون الثاني 1935 فمردود هو الآخر(8). ففي الاستمارة التي دونها قاسم حسن بنفسه في تاريخ 16 /7 /1935 للمشاركة في المؤتمر السابع للكومنترن ممثلاً للحزب الشيوعي العراقي والذي انعقد في 25 تموز – 20 آب 1935 يقول: "نشطت منذ عام 1932 مع مجموعة شيوعية، واشتركت في تشكيل مجموعة شيوعية وقدت المنظمة"، ثم يردف ذلك بقوله "بقيت في السجن لمدة 4 أشهر في نهاية عام 1934 حيث اتهمت بتأسيس حزب شيوعي في العراق، ووضعت في عام 1935 بسبب الانتفاضة تحت إمرة المحكمة العسكرية قبل أن اتمكن من الهرب" (9).

ومعروف أن حملة واسعة قد شنت في خريف 1934 ضد الشيوعيين في وزارة (علي جودت الأيوبي) ويعلق مؤلف (تاريخ الوزارات العراقية) على هذه الحملة بقوله: "انتشرت الأفكار الشيوعية بين الأهلين في بغداد انتشاراً كبيراً ايام هذه الوزارة، واشتبهت الشرطة بعدد من الكتاب والمحامين ببثهم هذه السموم في العراق، فقبضت عليهم في يوم 4 تشرين

الأول 1934 وساقتهم الى الناصرية لاجراء محاكمتهم فيها، وبعد أن لبثوا في السجن مدة، ظهرت براءة البعض منهم، وحكم على البعض الآخر بعقوبات منوعة"(10).

من مقارنة الأحداث والأقوال ببعضها يتأكد أن تأسيس الحزب قد تم في النصف الثاني من عام 1934، والأرجح أنه قد أخذ شكله النهائي بعد عودة عاصم فليح في آب 1934 وقبل الحملة التي يشير اليها الحسني في 4 تشرين الأول 1934، ان يوسف سلمان يوسف قد لعب فيه دوراً رئيسياً ومباشراً لكنه أثر أن لا يتصدر نشاط المنظمة الوليدة لأنه كان يخطط للسفر الى موسكو لغرض الدراسة، وقد تم ذلك فعلاً في كانون الأول من عام 1934 كما يؤكد الكرباس في قوله: "... وعليه أصبح القائمون على التأسيس في فترة صدور أول منشور للحزب هو ستة اشخاص بمن فيهم اللولب الأقدم يوسف سلمان (فهد) الذي سبق أن غادر في نهاية 1934" (11).

أطلق الشيوعيون المؤسسون على منظمتهم الوليدة اسم "لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار" كما يروي زكي خيري(12). لكنهم عادوا واستبدلوا هذا الاسم في العام التالي باسم "الحزب الشيوعي العراقي".

لا نملك أية وثيقة تشير الى الصورة التي أخذها تنظيم الحزب وقواعد العمل التي أخذ بها وتوزيع مراكز المسؤولية والمهمات التي أوكلت الى الرفاق القياديين ومواقع العمل التي نشط فيها الحزب... الخ. لكننا نفهم من مذكرات الشيوعيين الأوائل أن عاصم فليح كان على رأس الحزب. وظل يقود النشاط حتى اعتقاله في ايلول 1935، وكان في السجن يبعث من خلال أمه التي كانت تتصف بالذكاء والجرأة والاخلاص للحزب ملاحظاته الى رفاقه الذين تولوا قيادة النشاط. وكان قاسم حسن يساعد عاصم فليح في إدارة العمل حتى اعتقاله، كما لاحظنا في خريف 1934 وإرساله الى الناصرية مع عدد من الشيوعيين لمحاكمتهم مع آخرين بتهمة التحريض على انتفاضة فلاحي سوق الشيوخ والفرات الاوسط في مطلع 1935، وأن زكي خيري ويوسف متي قد ضما الى الهيئة القيادية في تموز 1935.

برغم ان الشيوعيين الأوائل نجحوا أخيراً في خلق حزبهم الموحد، وأوجدوا المركز المطلوب، إلا أن الحزب الذي أوجدوه كان يعاني من عيوب جعلت من السهل ضربه وتهشيمه وهو في سنيه الاولى. كان يفتقر اولاً الى القيادة القوية القادرة على إيجاد التماسك الضروري. وكان يعاني من الفردية وعدم الانسجام في قيادته وضعف الانضباط بين صفوفه. وكانت المقاهي، كما تكشف المذكرات، هي المكان المفضل للشيوعيين ليتبادلوا الافكار ويثيروا المناقشات والثرثرة في اغلب الاحوال حتى شاع من بعد مصطلح "شيوعيي المقاهي"، وقد اورثوا هذه العادة السيئة الى الجيل التالي. وتطلب الامر من الحزب من بعد نشاطاً دؤوباً لتخليصه من عادة الثرثرة في المقاهي. وقد التفت الحزب من ايامه الاولى الى هذا العيب وكتبت (كفاح الشعب) تنتقد الشيوعيين الذين "ترن" أصواتهم في المقاهي. وكان من السهل، والحال هذه أن تخترق قوى الشيوعيين. ومع أن البوليس العراقي لم يكن يملك البراعة والخبرة والتقنيات المتطورة لمطاردة الشيوعيين، إلا أنه كان يتمتع بمشورة الخبراء البريطانيين، وقد سارع هؤلاء الى تكوين وتطوير الكادر العراقي المتخصص في مكافحة النشاط السياسي، والشيوعي على الخصوص، وارسلوا اعداداً من ضباط البوليس العراقيين الى انكلترا حتى قبل تأسيس الحزب للتدريب على مكافحة العمل الشيوعي السري، وعادت أول دفعة من هؤلاء، وكانوا أربعة بعد تأسيس الحزب بقليل.

والحق، إن الحزب الشيوعي العراقي واجه منذ لحظة وجوده، بل وحتى قبل أن يتوحد الشيوعيون في منظمة واحدة، قمعاً بوليسياً استهدف قطع السبيل امام الشيوعيين للتغلغل بين الجماهير. فقد اعتقل أحد مؤسسيه، قاسم حسن، بعد اشهر قليلة من تأسيسه، ثم تلا ذلك اعتقال مؤسس آخر هو حسن عباس الكرباس وهو يوزع أول منشور يصدره الحزب في 14 آذار 1935 في بغداد، واعتقل رئيسه عاصم فليح حتى بدون حجة قانونية، واعتقل مهدي هاشم، المؤسس الرابع بذريعة توزيعه بيانات للحزب في الفرات الاوسط، إبان التمرد العشائري الذي نشب ايام حكومة ياسين الهاشمي. واعتقل العديد من اعضائه بذرائع مختلفة. وكان عبدالحميد الخطيب الذي نشط كعميل للبوليس يصطنع الحيل للايقاع بالشيوعيين وانصارهم. وقد وفق البوليس كما يذكر حسن عباس الكرباس وزكي خيري في تجنيد العديد من انصار الحزب الى مخبرين لاصطياد اعضاء الحزب وانصارهم. وقد أشرنا الى الحملة الواسعة التي شنتها حكومة علي جودت الأيوبي ضد عناصر الحزب بعد اشهر من تأسيسه بدعوى أن الحزب كان يحرض على انتفاضة الفلاحين في سوق الشيوخ والفرات الاوسط. لقد استهدفت اعمال القمع هذه تفويت الفرصة على الحزب، لكي يرسخ أقدامه، ويعالج نواقصه ويطور اعضاءه وعياً وتنظيماً. وكان كل ذلك يجري دون أن تكون هناك قوانين تحرم الشيوعية وتعاقب على ترويجها. واكثر من هذا أن الدوائر البريطانية كانت تغض النظر عن نشر الفكر الفاشي وتشجع عليه في تلك الفترة لتجعل منه مصدة في وجه انتشار الفكر الشيوعي في العراق.

لم يكن بوسع حزب صغير العدد (13) وقليل الخبرة ويفتقر الى الامكانيات المادية التي تعينه على التحرك الواسع بين الجماهير ان ينهض باعمال كبيرة في سنيه الأولى. ولكن مع ضآلة تجربته ومحدودية امكانياته والظروف الصعبة التي أحاطت بنشاطه ونقاط الضعف الآنيّة التي اشرنا اليها سعى حتى في تلك الفترة المبكرة جداً من حياته، الى أن يخوض في قضايا اساسية تواجه نضال الشيوعيين عادة. وفي رأس هذه القضايا يأتي السعي لاقامة روابط بالجماهير الكادحة، والعناية بالتحالفات الوطنية والسعي لتجميع القوى الوطنية في المرحلة المعينة من النضال الوطني، والجمع بين العملين السري والعلني، وتحديد الموقف من القضية القومية، العربية والكردية. لا يعني هذا بالطبع أن الحزب قد أرسى السياسات الصحيحة والدقيقة في كل هذه القضايا، لكنه حاول على أية حال، وبقدر ما سمحت له ظروفه الصعبة أن يوضح للجماهير العلاقة ما بين البؤس الذي تعيشه وسياسات الحكام واسيادهم المستعمرين. واتجهت بياناته وبشكل صائب نحو تبيان الأساس الذي تقوم عليه سياسات هؤلاء الحكام. ففي البيانات الاولى التي أصدرها الحزب في ربيع 1935، واعتقل عدد من اعضائه وهم يوزعونها في بغداد والنجف والبصرة والناصرية وغيرها، حدد الحزب الاهداف التي يتعين للجماهير الشعبية من عمال وفلاحين وجنود أن تناضل من اجلها، وأن تسعى لتمتين روابطها الكفاحية في ما بينها على أساسها، ويمكن تلمس هذا من البيان الأول الذي وزعته الجمعية (14). ونلاحظ هنا أن البيان ركز على مطلب العمال والفلاحين ويلوح لنا أنه عكس روحية سياسات الكومنترن آنذاك. وستكون لنا عودة مع هذا الموضوع.

بيان جمعية مكافحة الاستعمار
الى العمال والفلاحين، الى الجنود والطلاب،
الى كل المضطهدين

"على سواعدنا قامت الثورة العراقية الاولى، نحن جماهير العمال والفلاحين، ومن طبقتنا جاءت الالام والتضحيات وعشرات الألوف من الضحايا... وذهبت المنافع الى الرأسماليين والاقطاعيين وكبار الموظفين.. ولم يكن نصيبنا سوى الجوع والبرد والمرض الذي لا يرحم... وقطيع من محصلي الضرائب الذين ليست لديهم ذرة من الرحمة او الانسانية.

واليوم، فإن الانكليز والطبقة الحاكمة شركاء في اتفاق يهدف الى الابقاء على الاضطهاد والاستغلال اللذين نعاني منهما... ولقد اصبح النفط والمواد الخام الاخرى حكراً على الانكليز، وتحول العراق الى سوق لبضائعهم ولرأسمالهم الفائض، والى قاعدة حربية موجهة ضد الشعوب المجاورة وضد أي طموح للحرية يمكن أن تفكر فيه الاقطار العربية. إن الطبقة الحاكمة من ناحيتها، تنهب عائدات الضرائب، وتستحوذ على الاراضي وتبني القصور على شواطئ دجلة والفرات، في الوقت الذي تجوع فيه ملايين العمال والفلاحين، وينزفون دماً ويتلوون من الألم.

علينا أن نضع حداً لأوضاع وصلت الى هذا الحد من الظلم وصارت لا تطاق. إننا نطالب بتغيير أسس الحياة من جذورها لصالح كل الطبقات المنتجة.. لنرفع صوتنا ثانية في الارض، وليتقدم هادراً يزرع الرعب في قلوب مضطهدينا... وليتقدم ابناء المدن والقرى، العامل والفلاح لا يفرقه مذهب أو عرق، مؤيدين بالمفكرين الثوريين، جنباً الى جنب، لتحقيق المرحلة الاولى من النضال:

– لإلغاء كل الديون التي على الفلاحين، وإنقاذهم من الضرائب المرهقة، وتوزيع الاراضي الأميرية على فقرائهم وتأمين القروض اللازمة لهم.

– ضمان حرية العمل في الاجتماع والكلام... وإعادة فتح نواديهم ونقاباتهم؛ وسن قانون لحماية العمال... ضد الفصل الكيفي وتأمينهم ضد الجوع في شيخوختهم؛ وتطبيق يوم عمل بثماني ساعات في جميع موقع العمل العراقية وتلك التي يملكها الأجانب.

يسقط الاستعمار الانجليزي! تسقط كل المعاهدات الاستعبادية! عاشت الجبهة الموحدة ضد الامبريالية وضد مضطهدي الفلاحين والعمال" (15).

ويذهب البيان الذي وزع في النجف في 21 آذار 1935 الى تفصيل أكثر في الأهداف التي ينشدها الحزب. ويلاحظ في هذا البيان، أنه يتوقف اكثر عند المطالب السياسية العامة للشعب.

"ماذا نريد؟

لم نحمل السلاح ونثور ونقف بوجه المستعمرين وأتباعهم ممن فرضوا فرضاً على العراق وحسبوا من أبنائه، من أجل اشخاص معدودين غايتهم واحدة (وإن اختلفوا بالوصول اليها وكونوا صوراً بشكله بهذه البلاد، يغشون الجماهير فتحسب أن فريقاً منهم يعمل لصالحنا ونحن دافعوا الضرائب الجياع. إنما هي ثورة من الصميم، علة قوامها في صدورنا سنين عديدة، وهي الآن تتفجر لا لترضي وتشبع جشع اشخاص معدودين: الهاشمي، المدفعي، السعيد، الأيوبي، العسكري، وغيرهم، وغيرهم. كلهم جربوا وكلهم جاءوا الى الحكم فلم يحدث أي تبدل ملموس في حياة الملايين الكادحة من الجماهير. بالعكس، كل منهم قام بقسمه من اغلالنا بقيود العبودية، المعاهدات وذيولها، اتفاقيات النفط المجحفة بحقوقنا، مشاريع أصفر واللطيفية ومشروع الحبانية... الخ.

نحن نريد:
اولاً: قلع سن أم الذبان والهنيدي والشعيبة من الأساس، لا نريد اية قاعدة حربية للانكليز عندنا.
ثانياً: تعديل المعاهدة من الأساس وجعلها بشكل معاهدة بين الند والند، لا بين سيد وعبد، مصبوغة بالوان كاشفة.
ثالثاً: لا نريد أن توافق الحكومة بصورة باتة على مشروع سكة حديد حيفا – بغداد، إذ هو طريق استعباد وغل لنا وللأجيال الآتية.
رابعاً: نريد إبدال اتفاقية النفط بشكل يكون لصالحنا، على أن نقر ذلك نحن أبناء الشعب.
خامساً: تخفيض الرواتب الضخمة لكبار الموظفين والوزراء تخفيضاً محسوساً.
سادساً: توزيع جميع الاراضي الأميرية حالاً على فقراء الفلاحين.
سابعاً: الغاء جميع الديون المتراكمة على الفلاحين وتخفيض الضرائب تخفيضاً كبيراً.
ثامناً: سن قانون حماية العمال.
تاسعاً: نريد حالاً، الضرب على أيدي بعض الصحف المعلومة التي تتناول أجوراً من الجهات الاجنبية المعروفة في بغداد، للتبشير بالدعاية الاستعمارية لحكوماتها، وعلاوة على ذلك تتناول رواتب من المخصصات السرية التي هي نفس الضرائب التي جبيت منا بالسياط، هؤلاء الذين يشتمون الثورة ورجالها المخلصين وإلا فسيرون جزاءهم منّا، إن لم تتخذ التدابير الفعالة بحقهم.
عاشراً: نريد انتخاباً مباشراً حراً، أي من منتخبين ثانويين، الشكل الاستعماري الذي يلعب من ورائه الاستعمار.
الحادي عشر: نريد إخراج جميع العناصر التي تعمل على بث التفرقة بين أبناء الشعب العراقي الواحد المتكاتف الأفراد من البلاد.
اللجنة المركزية
لجمعية ضد الاستعمار(16)

كان من أبرز مساعيه للعمل بين الجماهير، التوجه نحو إيجاد علاقات بالعمال وخلق نقاط ارتكاز يستند اليها في نشر دعايته بينهم، لا سيما بين عمال السكك في بغداد والميناء في البصرة والنفط في كركوك. ويروي الرفيق محمود الاطرش، أن يوسف سلمان يوسف حين التقاه في بيروت عام 1935 كان متفائلاً بمستقبل الحزب الشيوعي العراقي، ويقول إنه "أخبرني بوجود بعض الصلات بعمال البترول، وبإمكانية تكوين حركة نقابية واسعة من مختلف المهن والصناعات في العراق"(17). ويتحدث الكرباس في مذكراته أنه كان ينشط في دعوته بين عمال السكك وبين عمال معامل التصليح الميكانيكي في منطقة (سيد سلطان علي) وشارع (العرصة) و(النعمان) في بغداد آنذاك. ويتحدث كذلك زكي خيري عن مساعيهم لايجاد علاقات مع عمال السكك.
لقد أظهرت الأيام أن تفاؤل يوسف سلمان يوسف لم يكن بلا أساس. فقد اضطرت حكومة ياسين الهاشمي الى اصدار قانون العمل رقم 72 لسنة 1936 تحت ضغط المطالبة العمالية التي كان الشيوعيون والديمقراطيون (الشعبيون) وراءها. واعترف القانون بحق العمال في التنظيم النقابي، وحقهم في التعويض عن العطل الاسبوعية والسنوية الرسمية، والتمتع باجازات اعتيادية مدفوعة الأجر. وخول القانون مجلس الوزراء بتحديد ساعات العمل لأصناف العمال حسب صناعاتهم وحرفهم وجنسهم واعمارهم. ومع أن كثيراً من هذه الحقوق لم توضع موضع التطبيق وجرى تجاهلها من بعد، إلا أن الإقرار بها قانوناً كان مكسباً كبيراً وسلاحاً يمكن أن يشهره العمال في مطالباتهم. وانعكست تحركات العمال، لا سيما مع الانفراج النسبي في الحريات، الذي أعقب انقلاب بكر صدقي في حملة من الاضرابات، كان الشيوعيون من أنشط

المحركين فيها، كاضراب عمال الميناء في 24 آذار 1937، وإضراب عمال الشركة الوطنية للسيكاير في بغداد، وعمال شركة نفط العراق في كركوك، وإضراب عمال القاعدة العسكرية البريطانية في الحبانية، وإضراب عمال إنشاء سد الكوت.. الخ. وقد اعترفت تقارير البوليس بنشاط الشيوعيين بين العمال؛ ففي تقرير بعنوان "حركات العمال والشيوعيين" جاء أن توزيع المنشورات داخل محطة غربي بغداد، قد ازداد لمحاولة بث الفتنة بين العمال، وحثهم على الاضراب عن العمل بمناسبة تخفيض أجور منتسبي السكك الحديدية، يضاف الى عدم فتح نقاباتهم وجمعياتهم، وأن الشيوعيين المتحدين مع هؤلاء العمال يحاولون استغلال هذا الاستياء" (18). وفي أيلول 1935 وزعت منشورات شيوعية في قاطرات سكك الحديد والمحطات تحث العمال على الاضراب بسبب التخفيض الذي أعلنته الحكومة من أجورهم بنسبة 5% كان المتهم الرئيس فيها المهندس الشيوعي جميل توما (19).

جاء تأسيس الحزب في الوقت الذي تحفزت جماهير الفلاحين الى الانتفاض في مناطق واسعة من البلاد، وكان عليه أن يحدد موقفاً واضحاً من تحركات الفلاحين. كان يدرك الدوافع التي قامت عليها سياسات الحكم في المسألة الزراعية. وهي في كل الأحوال لا تراعي مصالح الفلاحين. ولئلا يطيش سهم السخط الشعبي في متاهات الصراعات الحزبية والمصالح الشخصية لرجالات الحكم ومن يتحالف معهم من رؤساء القبائل، سارع الى إصدار عدد من البيانات بعضها بتوقيع اللجنة المركزية للجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار، وبعضها بتوقيع لجنة الفرات الاوسط للحزب، صاغ فيها المطالب التي يتعين على الفلاحين أن يناضلوا من اجلها الى جانب المطالب الوطنية العامة. وقد لعب الشيوعيون في الناصرية دوراً فعالاً في تحريك الفلاحين في سوق الشيوخ. وجدير بالذكر هنا أن تحريض فلاحي سوق الشيوخي يرجع الى سنوات سابقة كان يمارسه يوسف سلمان يوسف. فقد بذل مسعى لتعريف الفلاحين بجوهر الاستغلال الذي يتعرضون له والعوامل التي تدفع الى تشديده. وقد نشأت، كما يروي أخوه داود سلمان يوسف، صداقة خاصة جمعت ما بين يوسف سلمان يوسف وريسان الكاصد، شيخ بني خيكان، الذي قاد الانتفاضة الفلاحية هناك عام 1935(20). اتخذ الحزب موقفاً عملياً ومحدداً تحديداً واضحاً من مطالب الفلاحين. فطالب بتوزيع الأراضي الأميرية على الفلاحين، أي توزيع الأراضي التي يتصرف فيها الفلاحون فعلاً ولم تملّك بعد لأحد، وإن كان يجري الاستحواذ عليها بموجب القوانين التي أصدرتها الدولة آنذاك. كذلك هذه تؤلف أغلب الأراضي الزراعية. لقد أصدرت الدولة قانون تسوية حقوق الأراضي رقم 50 لسنة 1932 وقانون اللزمة رقم 51 لسنة 1932 أيضاً. وكانت تهدف منهما الى تمليك الشيوخ ورجالات الحكم وأثرياء المدن الاراضي الزراعية ـ التي توارث الفلاحون اباً عن جد زراعتها ـ وفقاً لحق العشيرة في الديرة المشتركة. فبعد ست سنوات فقط من الشروع في تطبيق قانون التسوية الأول استحوذ الملاكون على ما يزيد على مليونين ونصف المليون من الاراضي الاميرية. أضف الى ذلك، فإن الحكومات المتعاقبة كانت تشدد على الفلاحين لتسديد حصة ملاكي الاراضي: آل السعدون. والحصة التي فرضها رجال الاحتلال البريطاني بإسم "السركلة" الى رؤساء العشائر حتى قبل تسديد الضريبة الحكومية. وبالرغم من أن الشيوخ هؤلاء قد أعلنوا عن تنازلهم عن "حق" السركلة هذا(21). وطالب الحزب بقوة بالغاء جميع القروض والرهنيات

التي تتعلق بالارض. لقد كان إغراق الفلاحين بالديون جزءاً من الممارسة المألوفة والدائمة التي يلجأ اليها ملاكو الاراضي لإرغام الفلاحين على الخضوع إرادتهم وربطهم بالأرض ولكن بعد أن حرموهم من حق التصرف الحر فيها، حتى ولو كانت أراضي أميرية، والفلاح يزرعها بموجب نظام المحاصصة. ولم يكتف الملاكون بالاكراه الاقتصادي وحده وإنما شفعوه بالاكراه القانوني من خلال تشريع قانون حقوق وواجبات الزراع.

ولم يقصر الحزب خطابه على الفلاحين وحدهم، ايام الانتفاضة، وإنما تعداهم الى مخاطبة الجنود (الذين هم ابناء الفلاحين في الأساس) من أجل أن يقفوا الى جانب الفلاحين ويرفضوا الأوامر التي تصدر اليهم بضربهم، وخاطبهم ببيان خاص (22).

لقد أثار نشاط الحزب في صفوف الجيش هلع الحكام. كان هؤلاء يخشون أن يمد الشيوعيون أيديهم الى هذه الأداة الخطيرة التي اصطنعوها في الأساس، لتصبح القوة التي يرهبون بها الشعب. وقد جربوها فعلاً في قمع انتفاضات الفلاحين التي أشرنا اليها. وفي قمع تظاهرات الشعب الكردي المطالبة بالحقوق القومية في السليمانية في 6 أيول الاسود عام 1930. ويتحدث كل من زكي خيري وحسن عباس الكرباس عن نشاط الحزب بين صفوف فوج المخابرة في (الكرنتينة) في بغداد. وقد جاء بعض هذا النشاط محض مصادفة توفرت، كما يذكر زكي خيري في مذكراته لمخاطبة مجموعة من جنود فوج المخابرة كان يضمهم تنظيم خاص سري، تكوّن عفوياً من بين الساخطين على النظام الذين لا تتوفر لهم فرصة التعبير عن هذا السخط، بعد أن أغلقت أحزاب المعارضة الرسمية أبوابها (23). بينما جاء بعضه الآخر بفعل نشاط الشيوعيين الذين كانوا يجندون إجبارياً كما حدث للشيوعي القديم عبدالرحمن داود الذي شاءت المصادفة أن يجند الى ذات فوج المخابرة الذي يلتقي ببعض مراتبه زكي خيري ويوسف متي، ويركزان كثيراً من اهتمامهما بتثقيفهم وتنظيمهم. وتعطي الجهود التي بذلوها بين الجنود ثمارها وتمتد الخلايا الشيوعية في الجيش الى اللواء الثاني في كركوك، حتى قارب عدد الجنود والمراتب الذين التفوا حول الحزب الأربعمئة جندي وضابط صف. إلا أن هذا النشاط لم يكسب الى جانبه ضباطاً. غير أن العمل الدائب لكسب القوى في صفوف الجيش، لم يقترن بعمل جدي لمراعاة اوضاع الجيش الخاصة والاهتمام بتطوير الوعي والضبط الصارم، والالتزام بسرية العمل فيه. وهكذا استطاعت أجهزة الاستخبارات العسكرية أن تجمع المعلومات الكافية عن هذا النشاط، وتوجه له ضربة قاضية تأتي عليه من الأساس وتعتقل خمسة وستين جندياً وضابط صف، وتحيلهم الى المحاكم وتحيل معهم زكي خيري ويوسف متي وحسن عباس الكرباس. وتحكم على بعض الجنود بالاعدام ثم تخفض الاحكام الى السجن لمدد مختلفة. ولكي تحول دون اتساع النفوذ الشيوعي في الجيش مستقبلاً، سارعت حكومة جميل المدفعي الى تعديل قانون العقوبات البغدادي واستصدرت الفقرة 89 –آ سيئة الصيت التي تحكم بالاعدام على كل من يروج الشيوعية في القوات المسلحة، حاسبة أنها ستضع حداً والى الأبد للنشاط الشيوعي في الجيش، وهو ما لم يتحقق بالطبع، كما سنرى في فصول قادمة.

أعارت قيادة الحزب اهتماماً خاصاً بالنشر كوسيلة للتعبير عن رأي الحزب في القضايا العامة التي تواجهه، وسارعت الى تأمين أجهزة طباعة خاصة بالحزب، وكانت من النوع البسيط: جهاز رونيو وطابعة والورق اللازم.. الخ. وتولى أحد كوادر الحزب القدامى

ـ عبدالرحمن داود الذي تدرب في الناصرية على يد يوسف سلمان يوسف ـ تأمين إخفاء هذه الأجهزة والعمل عليها. وكانت طليعة نشاط الحزب في هذا الباب البيانات التي صدرت لدعم الانتفاضة الفلاحية في الفرات الاوسط وسوق الشيوخ. ولم يكتف الحزب بنشر البيانات وإنما قرر إصدار صحيفة سرية منتظمة. وفي نهاية تموز 1935 صدرت (كفاح الشعب) وعرفت الصحيفة نفسها بأنها (لسان حال العمال والفلاحين)، و(تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي) وكانت تلك أول مرة يعلن فيها الحزب هويته كحزب شيوعي. وزينت عنوانها بالمطرقة والمنجل وتحتها نجمة خماسية. وشعار ماركس "فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية، فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها وأغلالها، وتربح من ورائها عالماً باسره". ظهرت من الجريدة ستة اعداد؛ خمسة منها أعدتها قيادة الحزب أما السادس فقد أصدره الجنود الشيوعيون ووزعوه هم. طرحت الجريدة أهداف الحزب الأساسية في تلك المرحلة من كفاحه، وتتمثل بالغاء معاهدة 1930 العراقية – البريطانية، والغاء قاعدتي سن الذبان (الحبانية) والشعيبة العسكريتين البريطانيتين، وضمان حرية الشعب، وحق الشعب الكردي في الاستقلال الكامل، وضمان الحقوق الثقافية لكل الأقليات القومية في العراق، وتوزيع الاراضي على الفلاحين، والغاء كل ديون الارض ورهوناتها، ومصادرة ما يملكه المستعمرون من مصارف وحقول نفط وسكك حديد وغيرها ونزع ملكية العقارات الزراعية الكبيرة، وتركيز السلطة في أيدي العمال والفلاحين، واخيراً اطلاق الثورة الاجتماعية – بلا تأخير – في كل مجالات الحياة الاخرى وتحرير الناس من اشكال الخضوع المتنوعة. ووقفت الجريدة الى جانب نضال الشعوب العربية ضد المستعمرين الانكليز والفرنسيين، ولا سيما الشعب الفلسطيني الذي كان يخوض ثورة ضد الانتداب البريطاني معلنة احتجاجاً "بقوة سواعد عشرات الالولف من عمال وفلاحي العراق ضد السياسة الغاشمة والطرق الاجرامية التي تتبعها السلطات الاستعمارية البريطانية تجاه شيوعيي فلسطين والاحرار الثائرين" (24). وكانت (كفاح الشعب) تصدر بـ 500 نسخة علماً بأن النسخة الواحدة كان يجري تداولها من قارئ لآخر.

وتعلم الحزب الوليد أن يجمع بين العمل السري والعلني، وهو درس ثمين كرره في ما بعد في فترات تاريخية لاحقة. وابرز ما استطاع أن يحققه في هذا الشأن آنذاك التعاون مع بعض الصحف والاستفادة منها للدعوة الى افكاره وشعاراته. فعدا عن نشاطه في (الأهالي) كانت (عطارد) لصاحبها محمد القشطيني أولى المجلات التي وضعت نفسها تحت تصرف الشيوعيين، وقد نشط فيها كثيراً الشيوعي الشاب يوسف متي. وقد لقيت المجلة رواجاً كبيراً. وحين تعرضت للتعطيل بعد أن صدر منها سبعة أعداد صدرت (فينيس) في خريف 1934 للتعويض عن (عطارد) لكن هذه تعرضت هي الاخرى للتعطيل بعد ان هاجمت الفكر الفاشي والمساعي لترويجه في العراق. وفي 1936 وبعد أن تعطلت (كفاح الشعب) صدرت في الحلة مجلة (الحكمة) لصاحبها رؤوف الجبوري لتنشر الفكر الماركسي، ثم صدرت (الغد) لتعوض عن (الحكمة) بعد أن تعطلت هذه.

ويروي الكرباس أن الحزب ضم جهوده الى جانب جمعية الاصلاح الشعبي لإصدار صحيفة مشتركة عرفت باسم (الحارس)، وكرس زكي خيري ويوسف متي للعمل فيها. وقد استغل زكي خيري صفته كمراسل

للجريدة في البصرة للاتصال بعمال الميناء والسعي لتأسيس نقابة لهم. والى جانب العمل مع (الحارس) عمد الحزب الى دعم عبد القادر اسماعيل في إعادة إصدار (الاهالي) ودعم الجواهري في إصدار جريدته (الانقلاب).

ونظم الحزب بالتعاون مع الرفاق في الحزب الشيوعي اللبناني والسوري استيراد الكراريس الماركسية المطبوعة في بيروت، واستفاد، كما يروي الكرباس، من وجود الديمقراطي ناظم حميد كمعاون لكمرك بغداد والذي تربطه أواصر صداقة بقاسم حسن، لتسهيل أمر دخول الكراريس من سوريا.

من أخطر ما واجه الحزب في تلك الفترة هو تحديد الموقف الصائب والدقيق من مسألة التحالفات الطبقية والسياسية التي دعا اليها في ذلك الوقت، والموقف من جماعة (الشعبية) بوجه خاص. وكان اختبارا عسيراً لقدرة الشيوعيين آنذاك في رسم السياسة الدقيقة في هذا الشأن وهم يخطون أولى خطواتهم في العمل السياسي. والحق، إن هذا الاختبار لم يكن لهم وحدهم، وإنما هو اختبار مماثل لسياسة الشيوعية الأممية ولتعاليم الكومنترن في هذا الشأن.

كانت سياسات (الأممية الشيوعية) في البلدان المستعمرة والتابعة في مؤتمراتها الأولى تقوم على أساس دعم النضال المعادي للامبريالية الذي كانت تخوضه الحركات الوطنية، والسعي لربط هذه الحركات في حلف متين مع الدولة الاشتراكية (الاتحاد السوفيتي) وحركة الطبقة العاملة الثورية في البلدان الرأسمالية من جانب، ومن الجانب الآخر دعم النضال الذي يخوضه الشيوعيون لتكوين أحزابهم الثورية وربط النضال من أجل التحرر الوطني في بلدانهم بالنضال من أجل تحرير الفلاحين من قيود الاقطاع (كما رأينا في الفصل الرابع).

ولكن في المؤتمر السادس للأممية الشيوعية عام 1928، وتحت ضغط تطورات الثورة الصينية خرج المؤتمر السادس للكومنترن بسياسة "المواجهة الطبقية"، سياسة "طبقة ضد طبقة"، وكان هذا الخط يتفق والسياسة اليسارية المتشددة التي سار عليها ستالين في التصنيع المكثف وتشديد الصراع الطبقي في الاتحاد السوفيتي باتجاه تصفية كل العناصر الرأسمالية بسرعة. هذا الخط القائم على تشديد الصراع الطبقي امتد الى كل المستعمرات بغض النظر عن درجة تطور هذه البلدان ومدى نمو وتبلور الطبقة العاملة وقدرتها على منازلة البرجوازية الوطنية. أضف الى ذلك فإن الطبقة العاملة التي تخرج تواً من رحم الريف والأصناف الحرفية كانت عاجزة موضوعياً عن تحقيق "الطهر الطبقي" الذي تشدد عليه هذه السياسة.

انعكس خط الكومنترن هذا على سياسة الحزب الشيوعي العراقي. ولذلك جاءت (كفاح الشعب) في عددها الثالث (آب 1935) تدعو الى النضال من اجل "تركيز السلطة في أيدي العمال والفلاحين" ومن أجل "اطلاق الثورة الاجتماعية – بلا تأخير – في كل مجالات الحياة الاخرى وتحرير الناس من أشكال الخضوع المتنوعة". وكان بعض الشيوعيين الأوائل، حتى قبل أن يؤسسوا حزبهم ويصدروا جريدتهم وينادوا بهذه الاهداف، قد اتخذوا موقفاً متشدداً من القوى الديمقراطية اليسارية الاخرى كما عكس ذلك رد قاسم حسن على "الشعبية"، وكما عكست ردود يوسف متي المتشددة في مجلة (عطارد) على "الشعبية". لقد أثار الشيوعيين بوجه خاص، الهجوم الذي شنته "الشعبية" على مفهوم "الصراع الطبقي" وترديدها افتراءات الدعاية الاستعمارية عن موقف الشيوعية من الدين والعائلة. ومع ذلك فإن موقف

الشيوعيين من جماعة "الشعبية" لم يكن متجانساً. ففي حين كان قاسم حسن وحسن عباس الكرباس ويوسف متي يقفون موقفاً متشدداً من الجماعة ويرون فيها امتداداً لفكر الأممية الثانية في الحركة الثورية في العراق. كان يوسف سلمان يوسف وجميل توما ونوري روفائيل يتعاونون مع الجماعة المذكورة وينشطون في مراسلة جريدتها، الأهالي. من الجانب المقابل عمل كامل الجادرجي، كما يلاحظ زكي خيري، على ابعادها عن خطها الراديكالي وتحويلها الى الطريق اللبرالي(25). وقد سعى الى أن يحد من كتابات الشيوعيين في (الاهالي) لولا الموقف الرافض الذي وقفه عبدالقادر اسماعيل (26). ويروي محمود الاطرش أنه "كان بجانب الحزب الشيوعي العراقي الناشئ جماعة من الوطنيين الثوريين ملتفة حول جريدة (الاهالي) وعلى رأسهم المحامي عبدالقادر اسماعيل، وقد لاحظنا من رسائل ونشرات الرفاق الشيوعيين في العراق، وجود حملة انتقادات شديدة ونضال ضد هذه الجماعة من الوطنيين الثوريين. عندها توجهنا اليهم راجين منهم إعادة النظر في موقفهم هذا، وقلنا لهم نحن لا نود، ايها الرفاق الاعزاء التدخل في شؤونكم الداخلية وأنتم تفهمون قضاياكم خيراً منا، إلا أننا نلاحظ أن انتقاداتكم ونضالكم ضد هذه الجماعة من الوطنيين الثوريين، وإن كانت على حق في كثير من الأمور، إلا أنه يخشى أن تنسيكم العدو الأساسي، العدو الأكبر، ألا وهو الامبرياليون البريطانيون وعميلتهم الرجعية المحلية". ويضيف "منذ ذلك العهد لم نطالع لا في رسائل الحزب الشيوعي العراقي ولا في أدبياته أي تحامل على الجناح الوطني الثوري للحركة التحررية في العراق" (27).

للحقيقة، نذكر هنا أن الشيوعيين العراقيين عهد ذاك لم تنفع معهم نصيحة محمود الاطرش، بقدر ما فعل التبادل الذي طرأ على خط الكومنترن قبل انعقاد المؤتمر السابع والدعوات التي أطلقها جورجي ديمتروف وغيره من قادة الأممية الشيوعية والمتمثل بشعار "طبقة ضد طبقة"، واستبداله بشعار الجبهات الموحدة ضد الفاشية والجبهات الوطنية في المستعمرات والبلدان التابعة.

لقد كانت البرجوازية الصغيرة والمتوسطة تواجه في العراق وضعاً صعباً تحت تأثير الأزمة الاقتصادية التي عانت منها البلاد طويلاً. كذلك فان تدهور الصناعات الحرفية المتواصل كان يزيد من بؤس الحرفيين (البرجوازيين الصغار). لقد انعكست الأوضاع المتدهورة لهذه الفئات الاجتماعية على مزاجها وسلوكها السياسي، وسخطها ومعارضتها للهيمنة الاستعمارية ونشاطاتها الثورية. ورفعت شعارات سياسية واقتصادية كانت لها أصداء واسعة بين أوساط العمال لأنهم هم ايضاً كانون يعانون ذات الاوضاع الصعبة التي حاقت بالبلاد، لا سيما وأن وشائج اجتماعية كانت لا تزال تربط العمال بهذه الفئات الاجتماعية. إن ضعف التمايز الطبقي كان يدفع الى تشابك المصالح والنظرات والمواقف السياسية والايديولوجية عامة. وكانت الشعبية تعبيراً عن تشابك هذه المصالح والنظرات. من الجانب المقابل، فان الظروف الصعبة التي أحاطت بالحزب منذ نشأته الاولى لم تدع له الفرصة لكي يطور تجربته في هذا الشأن ولم توفر له الوقت المناسب لكي يتماسك كحزب للكادحين يشق دربه وسط هذه المصاعب السياسية والايديولوجية.

جاءت فرصة مشاركة الحزب في المؤتمر السابع للأممية الشيوعية (الكومنترن) مناسبة هامة بالنسبة له للتعرف المباشر على خبرة الاحزاب الشقيقة، لا سيما في البلاد التي تقارب ظروفها أوضاع العراق. كان المؤتمر

قد انعقد في ظروف بالغة الدقة؛ إذ استطاعت الفاشية في المانيا أن تقبض على السلطة، وشرعت تكشف عن أطماعها التوسعية وتدق طبول الحرب وتتوعد هذا وذاك، وتفاقمت النعرات العنصرية ونزعات التعصب القومي في كل مكان. وكان الشيوعيون في كل بلد يرون أنهم مقبلون على أيام صعبة بعد أن وضع الفاشيون وبتشجيع من الدول الرأسمالية الكبرى الاخرى، الشيوعيين على رأس قائمة اعدائهم الذين تنبغي تصفيتهم. ويجري الحديث عن العمل للتخلص من الدولة الاشتراكية الاولى. ورغم أن هذه الدولة كانت تتقدم بسرعة إلا أنها تحسست الخطر القادم وبدأت الحياة فيها تصطبغ شيئاً فشيئاً بألوان الحرب الداكنة. وفي العراق أخذت الدعاية للفاشية تتعالى كثيراً، ويتحرك غروبا، الوزير المفوض الالماني بنشاط ملحوظ، وينشر في أوساط الشباب "القومي" الحديث عن القوة والتسلح والافكار العنصرية، ويردد سامي شوكت واعوانه هذه الافكار بين طلاب المدارس.

في هذا الجو انعقد المؤتمر السابع للكومنترن. وكان الحزب قد قرر أن يوفد عاصم فليح المسؤول الاول للحزب ليمثله امام المؤتمر. ولهذا غادر في أواخر تموز 1935، لكن السلطات الامنية الفرنسية في حلب ميزته واعادته الى العراق، إذاك قرر الحزب استبداله بقاسم حسن، وقد سافر هذا فعلاً والتقى بيوسف خطار الحلو ورضوان الحلو في اسطنبول، وكانا يزمعان السفر الى موسكو لحضور المؤتمر السابع للأممية ممثلين عن الحزب الشيوعي السوري – اللبناني والحزب الشيوعي الفلسطيني على التوالي. وقد شارك في اعمال المؤتمر أحد عشر مندوباً عن الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية؛ ثلاثة من فلسطين، وثلاثة من سوريا ولبنان، واثنان من الجزائر، ومندوب واحد من كل من مصر والعراق وتونس.

وطبقاً للاستمارات التي يتعين على المندوبين إملاؤها ليحق لهم المشاركة، جاء في الاستمارة التي دونها قاسم حسن ما يأتي:

1 – البلد – العراق.
2 – الاسم الحزبي – قاسم حسن.
3 – الاسم في المؤتمر – ناشموف بيميل.
4 – القومية – عربي.
5 – سنة الولادة – مواليد 1910.
6 – المنشأ الاجتماعي – من منشأ برجوازي صغير مثقف.
7 – مستوى التعليم – لم أنه الدراسات العليا.
8 – هل درست في مدرسة حزبية.. أين ومتى؟ – لم ادرس في أية مدرسة حزبية.
9 – المهنة، ومنذ متى تعمل بها؟ – صحفي خلال 3 سنوات.
10 – مصدر المعيشة حاليا –
11 – في أي فرع من فروع الكومنترون تنشط ومنذ متى؟ – لم اعمل في فرع الكومنترن.
12 – هل كنت عضواً في حزب آخر؟ – لم أكن عضواً في اي حزب آخر.
13 – ما هي المهمة التي تقوم بها منذ المؤتمر السادس للكومنترن؟ – أنشط منذ عام 1932 مع مجموعة شيوعية، واشتركت في تشكيل مجموعة شيوعية وقدت المنظمة.
14 – هل لوحقت من الشرطة، وكم سنة امضيت في السجون؟ – بقيت في السجن لمدة 4 أشهر في نهاية عام 1934، حيث اتهمت بتأسيس حزب شيوعي في العراق، ووضعت في عام 1935، بسبب الانتفاضة، تحت إمرة المحكمة العسكرية قبل أن أتمكن من الهرب.
15 – هل اشتركت في مؤتمرات عالمية سابقا؟ – لم اشترك في أي مؤتمر.
16 – هل قدمت من بلدك أم من المهجر؟ – قدمت من البلاد.

17 – هل أنت عضو في البرلمان أم في مجلس بلدي؟ – لست عضواً في برلمان أو في مجلس بلدي.
18 – ما هي اللغات التي تعرفها؟ – العربية والانجليزية وقليل من الفارسية.
التوقيع التاريخ 16 /7 /1935 (28).
وحين قدم ممثل الحزب الشيوعي العراقي طلب الانتساب الى الأممية اعترض ممثل القسم المختص في الأممية الشيوعية بشؤون الحركة الشيوعية في البلدان العربية قائلاً: إن القسم المذكور لا يملك اية وثيقة عن الحزب الشيوعي العراقي، وطلب تأجيل البت بالطلب حتى يتيسر للجنة التنفيذية أن تدرسه، فوافق المؤتمر على ذلك وتأجل النظر فيه لمدة ستة أشهر، واعتبر مندوب الحزب مراقباً فقط. وبالفعل درس الطلب وتقرر قبول الحزب في الأممية الشيوعية عضواً كامل الحقوق في عام 1936. والى جانب المؤتمر السابع للأممية انعقد اجتماع للأممية النقابية الحمراء (البروفنترن)، وقد شارك فيه يوسف سلمان يوسف الذي كان يدرس في مدرسة كاحي الشرق ممثلاً عن العمال في العراق.
تكمن أهمية المؤتمر السابع للأممية الشيوعية في كونه تصدى الى مهمات غاية في الأهمية كانت تواجه الحركة الشيوعية العالمية يومذاك. إن صعود الفاشية الى دست الحكم في المانيا وايطاليا وتعاونهما مع العسكرية اليابانية كان يعني أن العالم أصبح يواجه خطر انفجار حرب عالمية مدمرة آخذة بالاقتراب بسرعة. وكان هذا يطرح على الحركة الشيوعية مهمة صوغ الستراتيج والتكتيك الضروريين للحركة العمالية لتحشيد أوسع قوى للوقوف في وجه هذا الخطر المحدق. على هذا الاساس طرح جورجي ديمتروف، القائد البلغاري في سكرتارية الكومنترن، مهمة العمل الحثيث والفوري لاقامة الجبهة الشعبية الواسعة في البلدان الرأسمالية ضد الفاشية والجبهة الوطنية ضد الاستعمار في المستعمرات والبلدان التابعة. كذلك ناقش المؤتمر طبيعة الفاشية والعوامل التي تدفع الى ظهورها، وابان ان الفاشية لا تدل فقط على ضعف حركة الطبقة العاملة وانما تدل ايضا على ضعف البورجوازية وعجزها عن الحكم بأساليب الديمقراطية البورجوازية المألوفة، ولذلك باتت تلجأ الى الارهاب والتضليل وسيلتين اساسيتين لتثبيت سلطانها.
ان الفاشية ليست سلطة فوق الطبقات، وهي ليست سلطة البورجوازية الصغيرة، رغم انها تستفيد من تحشيد البورجوازية الصغيرة وحثالة البروليتاريا حولها، انها سلطة رأس المال الكبير وهي منظمة الاضطهاد الارهابي ضد الطبقة العاملة وكل العناصر الثورية، وهي تعتمد الديماغوجية والتعصب القومي في تعاملها مع الآخرين. لذلك، ليس غريباً ادعاؤها الدفاع عن الحقوق المسلوبة والتظاهر بالديمقراطية والاشتراكية ومهاجمة الفوضى وفساد الجهاز البيروقراطي البورجوازي من اجل ان تستميل الى جانبها قوى الشغيلة غير الواعية.
وقد اعار المؤتمر السابع للكومنترن انتباها خاصا في القرار المفصل الذي اتخذه بعنوان "مهمات الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية في الكفاح من اجل جبهة شعبية ضد الامبريالية" الى وضع الاحزاب الشيوعية في المنطقة. فقد لاحظت سكرتارية الاممية ان هذه الاحزاب ظلت لفترة طويلة مجموعات بعيدة عن الجماهير بسبب انعزالية تاكتيكاتها، ودعتها الى ان تعمل بحزم على مساندة الحركة التحررية الوطنية، والوطنيين الثوريين على الخصوص. وانتقد القرار تعلق هذه الاحزاب بالثورة الاشتراكية والتعبير عن اهدافها بشعارات مجردة لا يفهمها الشعب، وهجومها

على الوطنيين – الاصلاحيين. واكد القرار ان على الشيوعيين في البلدان العربية ان يدركوا ادراكا عميقا انهم مسؤولون عن مصائر شعوبهم وبلدانهم وعليهم تقع مسؤولية النتيجة التي ينتهي اليها النضال من اجل الاستقلال الوطني والانعتاق الاجتماعي، وقال انهم ورثة وحماة افضل التقاليد الوطنية والثقافية لشعوبهم.

وخص الكومنترن الشيوعيين العراقيين بقوله: ان الهدف الاساس في العراق هو اقامة حركة وطنية – ثورية جماهيرية، وتوحيد العناصر الوطنية الثورية في حزب قانوني جماهيري يرفع برنامجا ديمقراطيا عريضا.

وكان من رأي السكرتارية ان القرابة واللغة المشتركة والتضامن الذي يجمع الشعوب العربية في النضال ضد الامبريالية وفي سبيل الاستقلال الوطني تطرح على الاحزاب الشيوعية في المنطقة مهمة تأمين صلات منظمة تنيظما جيدا بينها لغرض تبادل المعلومات والتجارب والمساعدة وتركيز الحملات واصدار النداءات والتعاون في نشر الادب السياسي والدوريات. وفي الوقت الذي اكد فيه ديمتروف اهمية الروابط المتينة بين الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية، عارض فكرة تكوين منظمة حزبية عربية عامة موحدة. كما عارض الطرح غير الناضج لشعار تأسيس جمهورية عربية موحدة فوراً. وكان يرى ان هذه الفكرة نابعة من تفكير قائم على الرغبة (29).

لقد كان الشيوعيون في بلدان المشرق العربي يعملون في اوائل الثلاثينات من اجل ايجاد شكل من التنسيق وتبادل الخبرة بين الاحزاب الشيوعية والمنظمات الثورية في الاقطار العربية في المشرق من اجل انتزاع اكثر ما يمكن من مطالبها اليومية والعمل لتحقيق الاستقلال الوطني والديمقراطية كخطوة اولى في طريق تحقيق الوحدة بين الشعوب العربية، كما يذكر محمود الاطرش في مذكراته. وقد بادر الحزب الشيوعي السوري – اللبناني الى عقد مؤتمر للمثقفين الثوريين العرب في زحلة سنة 1934 لوضع مشروع وحدوي عربي. وبمبادرة من الاممية الشيوعية صدرت في باريس في ايلول 1933 جريدة "الشرق العربي" كاداة اعلامية ثورية توجيهية وحدوية، وكانت تقوم بدور لسان حال للاحزاب الشيوعية لا سيما في سوريا ولبنان والعراق. وكانت تدخل سرا الى سوريا ولبنان لان السلطات الفرنسية منعت دخولها العلني.

وفي خريف 1935 اجتمع مندوبون عن مختلف الاحزاب الشيوعية العربية وتوصلوا الى ان الاتحاد العربي الاختياري بين الاقطار العربية المستقلة هو انسب الاشكال للتقارب والتعاون بين الاقطار العربية في الظرف القائم آنذاك.

عاد قاسم حسن من المؤتمر وهو مشبع بفكرة السعي الحثيث لعقد الجبهة الشعبية ضد الاستعمار. وكان قد تولى قيادة الحزب بعد أن شرع عاصم فليح بالانزواء عن العمل السياسي. اتجه قاسم حسن للعمل من اجل الجبهة الشعبية. وفي هذا الشأن تقول مذكرات حسن عباس الكرباس: " بعد مرور وقت من عام 1936 صار قاسم حسن ينقل الينا اخباراً عن صلات الحزب بالجماعات السياسية الأخرى والمعارضة وعلى الاخص الشعبيين منهم، ويصور لنا العمل معهم على اساس ما يسمى بالجبهة الشعبية. ويأتي في مقدمة الشعبيين هؤلاء جعفر ابو التمن ثم كامل الجادرجي وعبد الفتح ابراهيم وعبد القادر اسماعيل وغيرهم. والشعبيون بدورهم تضافروا مع حكمت سليمان، وهذا الاخير مع بعض ضباط الجيش، فتشكلت المعارضة

التي ادت الى حصول الانقلاب العسكري في 29 تشرين الاول 1936 الذي اسقط حكومة ياسين الهاشمي (30).

في 29 تشرين الاول 1936 حدث انقلاب بكر بكر صدقي. ان الانقلاب، إذا تغاضينا عن الطموح الشخصي لقائد عسكري، بكر صدقي، وسعيه الى الاندماج السريع بلعبة الصراع على السلطة التي استهوت عناصر الفئة الحاكمة في الفترة التي تلت انتهاء حكم الانتداب، واستخدام الجيش كأداة رئيسية لهذا الصراع، نقول ان تغاضينا عن هذا، فان الانقلاب كان تعبيراً عن سخط فئات واسعة، لا سيما من سكان المدن، على الاوضاع السيئة التي آل اليها العراق على ايدي الفئة الحاكمة التي تعاونت مع الاستعمار البريطاني بعد إعلان استقلاله الشكلي. بيد ان الانقلاب جاء من جانب آخر، تعبيرا عن فقدان الثقة لدى الشعب بأساليب الديمقراطية الزائفة والألاعيب "الانتخابية" التي اريد منها ان تكون مصيدة لشراء الذمم ومصدة تنتهي عندها ألوان المعارضة البورجوازية، وتعبيرا ايضا عن يأس البورجوازية الوطنية – الاصلاحية من القدرة على تبديل الوضع استناداً الى حركات جماهيرية واسعة لكنها عفوية في الغالب. كما لم يكن بوسعها الاستناد الى القاعدة الريفية وهي في وعيها المتخلف كانت تخضع للعلاقات القبلية الأبوية، وتورط رؤساء اغلب القبائل في لعبة المنافسة على الارض والمصالح والجاه. لذلك اتجهت هذه المعارضة صوب الجيش لتتخذ منه اداتها في التغيير الذي تنشده.

نجح بكر صدقي، الذي عرف قبل الانقلاب بقسوته في ضرب تمرد العشائر في الفرات الاوسط، وكان قد ابدى قبيل الانقلاب استعداده للتعاون مع جماعة "الشعبية" (31). وتألفت الوزارة الجديدة برئاسة حكمت سليمان الذي كان قد انضم الى الجماعة في عام 1935، وكان وسيطهم الى التعاون مع بكر صدقي (32). وجاءت حكومة الانقلاب لتجمع بين اتجاهين متناقضين: اتجاه ديمقراطي ليبرالي تمثله جماعة "الشعبية"، وآخر معاد للديمقراطية يمثله العسكريون وعلى رأسهم بكر صدقي. وقد تضمن بيان الانقلاب عدداً من المطاليب الشعبية كحرية الصحافة واجازة النقابات العمالية ووعوداً اصلاحية، لكنه سكت عن المعاهدة مع بريطانيا ومال الى تطمينها.

وجد الانقلاب الترحيب لدى القوى التقدمية في العالم، ووصفته صحافة الكومنترن بالحكم الوطني ذي المسحة التقدمية (33). وفي الداخل سارع الشيوعيون الى مساندة الانقلاب، واندفعوا الى تحريك الجماهير لتأييده، وسارعوا الى اصدار منشور باسم الحزب الشيوعي العراقي يعلن تأييده للانقلاب في الأول من تشرين الثاني (34). ونظموا بالتعاون مع جماعة الاهالي عدداً من التظاهرات في مدن مختلفة كانت اكبرها في بغداد والبصرة بقيادة الشيوعيين. ففي 3/ 11/ 1936 انطلقت مظاهرة كبيرة نظمها وقادها الشيوعيون من الكرادة الشرقية على قرع الطبول، وكان اغلب المشاركين فيها من الشغيلة الفقراء، وكانوا يرددون هتافات تطالب بالخبز للجياع والأرض للفلاحين، وتندد بالفاشية، والتقت بمظاهرة صغيرة للطلاب كان يقودها الشيوعيون أيضا عند جامع الحيدرخانة في شارع الرشيد (35). وقد سارعت حكومة الانقلاب الى الافراج عن الصحف المعطلة، واجازت جمعية الاصلاح الشعبي التي كان وراء تأسيسها كل من جماعة "الشعبية" والحزب الشيوعي العراقي، واطلقت سراح السجناء السياسيين، وفي مقدمتهم مهدي هاشم وزكي خيري، واجازت

ادخال الكتب التقدمية بما فيها الماركسية، وافرجت عن المحكومين في تحركات الفرات الاوسط وسوق الشيوخ والايزيديين والبارزانيين. لقد انعشت هذه الاجراءات من وضع الحزب، وزادت من قدرة الشيوعيين على التحرك. كذلك زادت من جرأة الحركة العمالية على التحرك؛ فقد أضرب عمال شركة بلفوربتي التي كانت تبني سد الكوت وعمال الحياكة في النجف وعمال شركة باتا للاحذية وعمال الميناء وعمال الفنادق والمطاعم في بغداد وعمال النفط وعمال امانة العاصمة وعمال شركة الدخان الاهلية وعمال البناء وغيرهم (36). وقد جاءت اضرابات العمال لترد على بكر صدقي الذي انكر وجود الطبقة العاملة وحاجتها الى حركة سياسية ثورية تمثلها. وقد سمح تدفق الكتب والكراريس الماركسية المطبوعة في لبنان باتساع نشر الوعي الماركسي بين الجماهير.

من المناسب ان نتحدث قليلا عن امتداد الوعي الماركسي الى اوساط جماهير اليهود الكادحة. لقد سبق لبعض اليهود المثقفين أن عمل في اطار الحركة الوطنية العامة، وأسهم بعضهم في النشاطات الجماهيرية ضد معاهدة 1930 العراقية – البريطانية، وكان سليم زلوف من بين الذين اعتقلوا لدعوتهم الى التظاهر ضد عقد المعاهدة. وكانت مجلة "الحاصد" التي اصدرها المحامي أنور شاؤول قد ضمت صوتها الى جانب الصحف التقدمية الداعية الى الاستقلال والتقدم الاجتماعي، إلا ان نشاطا لم يجر حتى منتصف الثلاثينيات لكسبهم الى صف الحزب الشيوعي. والقول بان مجموعة شيوعية من الشباب اليهودي العراقي قد تكونت برئاسة يهودا شالوم (37)، منذ 31 – 31 لا يعززه اي دليل ولا يؤكده أي مصدر آخر. بعد انقلاب بكر صدقي واتساع النشاط الثوري سعى الحزب الى أن يمد نفوذه الى أوساط الكادحين اليهود. وقد روى لي الشيوعي المعروف يعقوب مصري (ابو سرود) انه تعرف إلى الشيوعية والحزب الشيوعي في عام 1937 عندما كان يدرس في مدرسة الصناعة الرسمية. وفي ذلك الوقت أيضا استطاع حسن عباس الكرباس الذي كان يعمل آنذاك في جريدة "الاهالي" ان يكسب الى صف الحزب نعيم طويق الذي كان يعمل في جريدة "الزمان" المجاورة لجريدة "الاهالي". ومن خلاله ضم الكرباس الى الحزب كلا من يوسف مكمل وشوعة (لعله شوعة بطاط) ويعقوب كوهين (38).

لم تمض على الانقلاب سوى بضعة شهور حتى جاهر بكر صدقي ومن ورائه حكمت سليمان عن موقفهما المعادي للديمقراطية، وشرع يتهدد ويتوعد القوى الديمقراطية والشيوعيين بوجه خاص. وانطلقت حملة ضارية معادية للشيوعية في الصحافة والمجالس والبرلمان. والحق ان هذه الحملة لم تستهدف الشيوعيين وحدهم وانما استهدفت الاتجاه التقدمي بعامة: الاصلاحيين والديمقراطيين الثوريين والشيوعيين. وقد استخدم شعار محاربة الشيوعية لكي يسهل تحشيد أوسع القوى بمن فيهم المحافظون ضد الديمقراطيين. وقد اصطفت في الخط المناوئ للديمقراطية اتجاهات مختلفة؛ فبرغم ان الدوائر الاستعمارية البريطانية اطمأنت الى ان حكومة الانقلاب لن تمس المعاهدة العراقية – البريطانية بشيء وقد سكتت عنها تماماً في تصريحات المسؤولين. وان منهاج جمعية الاصلاح الشعبي قد غض النظر هو الآخر عن المعاهدة المذكورة، الا ان التغيير الذي حصل لم يجد الارتياح لديها. وجاء بالطريقة التي لا تطمئن لها لا سيما انها لا ترتاح الى تدخلات ضباط الجيش الكبار في توجهات سياسة البلاد. وأبدت السفارة البريطانية عدم

ارتياحها بوجه خاص من المنهاج الذي طرحه وزير المالية، جعفر ابو التمن، المتعلق بتعديل ضريبة الدخل، ومراقبة المصارف، وادخال تشريع يضمن استثمار اموال العراقيين المودعة لدى التأمين في العراق. واعتبرت انها "تتضمن خططاً قد تسبب صعوبات لمصالح بريطانيا التجارية" (39). زد على هذا، فان وجود التيار التقدمي في الحكم لا ترتاح له البتة.

ولم تكن تحركات الدكتور غروبا، الوزير المفوض الالماني، تتفق اساساً مع اتجاه القوى الديمقراطية. لقد كان يلتقي يومياً عملياً مع حكمت سليمان وبكر صدقي. كما كانت له علاقات مع عبد اللطيف نوري، الشخصية العسكرية الثانية، ومع ناجي الاصيل وزير الخارجية. وكان يدعم بقوة الضباط العسكريين القوميين في الجيش بزعامة صلاح الدين الصباغ. لقد ابدى غروبا استياءه من الهتافات واللافتات التي حملها المتظاهرون في شوارع بغداد التي نددت بالفاشية، إلا ان حكمت سليمان ووزير خارجيته سارعا الى الاعتذار منه، ووصفاها بـ"الاخطاء المؤسفة" (40).

وجاءت المعارضة الاشد لبرنامج وخطط القوى الديمقراطية من جماعة ملاكي الاراضي الكبار وشيوخ العشائر التي شرعت تتخوف مما يحمله هذا البرنامج بشأن الارض، على الرغم من ان برنامج جمعية الاصلاح الشعبي لم يتجه بوضوح الى تصفية ملكية هؤلاء الملاكين الكبار أو يتخذ ما يحول دون سعيهم الى الاستحواذ على مزيد من الاراضي الاميرية، وفقا لقانوني تسوية حقوق الاراضي ومنحها باللزمة، وتصفية اساليب الاستغلال الاقطاعي، وانما جرى الحديث عن احياء وتوزيع الاراضي الموات فقط (41).

ولكن اشد النار التي وجهت للتيار الديمقراطي، جاء من "القوميين" ودون ان يكون هناك أي مبرر لهذا العداء سوى الخلاف الايديولوجي والحقد المتأصل على الشيوعية. ولم يكن هذا التحامل بمعزل عن دسائس غروبا. لقد خرج صراع "القوميين" مع جماعة الاهالي والشيوعيين عن حدود الصراع الفكري الى مجابهة يومية وتحريض لا ينقطع، واستغلوا طموح بكر صدقي الشخصي وعداءه للديمقرطاية، للايقاع بين تياري الانقلاب المتناقضين اصلاً. وقد بلغت ذروة مساعيهم في هذا الشأن بالمقابلة المعروفة التي تمت في وزارة الدفاع بين محمود الشيخ علي وبكر صدقي، والتي صرح الاخير بعدها بقوله "ليس العراق تربة صالحة للشيوعيين" (42). وبهذا يكونون قد ارسوا تقليداً للتنافر والعداء والصراعات الدموية، امتد الى عقود تالية من تاريخ العراق الحديث، دون ان يكون لذلك ما يبرره، فلا الشيوعيون ولا الديمقراطيون عادوا الوحدة العربية كما سنرى. كما لم يكونوا اقل اخلاصاً او اندفاعاً من غيرهم في الدفاع عن الحقوق القومية للشعب الفلسطيني. ولم تثبت الايام عملياً من بعد صحة الخط "القومي" في كلتا المسألتين مثلما لم يثبت خطأ الخط الذي سار عليه الشيوعيون فيهما. وحتى في تلك الايام، اي في عام 1936 و 1937، كان الشيوعيون والقوميون ممثلين بقاسم حسن ويونس السبعاوي، يعملون سوية على تهريب السلاح الى ثوار فلسطين حتى الحدود الاردنية، ليتكفل فؤاد نصار، الشيوعي الاردني، الذي اصبح من بعد زعيماً للحزب الشيوعي الاردني، ايصالها الى المواقع المطلوبة في فلسطين، علما ان السبعاوي اثبت اخلاصه لخطه القومي وضحى بحياته في سبيل هذا الخط، دون ان يقلل ذلك من قناعته بالتعاون مع الشيوعيين واليساريين عامة (43).

بالمقابل، فان حدة العداء الذي قوبل به الانقلاب حتى منذ ايامه الاولى من القوى التي تضررت منه دفعت اليسار من جانبه الى رد فعل مقابل تمثل في المبالغة في اضفاء الصفة الشعبية على الانقلاب، وعدم الانتباه الكافي الى التناقض الجذري الذي انطوى عليه هذا الانقلاب، ولم يعط الانتباه الكافي الى ان الجناح الذي يقبض على السلطة، فعلا، هو جناح معاد للديمقراطية، ويتحين الفرص لتصفية شريكه في الحكم. وقد رمى هذا اليسار بكل ثقله الى جانب قيادة الانقلاب، ودعا الى تشديد الخناق على معارضيه. وكان الجواهري صادق التعبير عن هذا اليسار بقوله:

وضيق الحبل واشدد من خناقهم

فربما كان في ارخائه الضرر

انطلاقا من العمل لتحقيق شعار الجبهة الشعبية، كرس الشيوعيون كل طاقاتهم للعمل في "جمعية الاصلاح الشعبي"، برغم ان حكمت سليمان وبكر صدقي سعيا الى التدخل في شؤونها، وحاولا تحويلها الى حزب حكومي بعد اعادة النظر في منهاجها والتخفيف من راديكاليته (44). ويبدو انهم تخلوا أو كادوا ان يتخلوا عن العمل لتنظيمهم الخاص، وانصرف حتى قادتهم للعمل في صحف جمعية الاصلاح الشعبي؛ إذ انصرف كل من زكي خيري ويوسف متي الى العمل في جريدة "الحارس" التي اصدرتها الجمعية. وانصرف مهدي هاشم الى العمل في جريدة "الانقلاب" لصاحبها محمد مهدي الجواهري، والتي كرست نفسها لذات الاغراض، وقاسم حسن وحسن عباس الكرباس الى العمل في "الاهالي" حين اعيد اصدارها.

لقد وقع قادة الحزب الشيوعي جميعهم في سوء تقدير للوضع السياسي الذي نشأ. وربما تكون قد اثرت عليهم تقديرات صحف الاممية الشيوعية و"النصائح" التي يشير اليها محمود الاطرش، كما ذكرنا من قبل، وساعدت في دفعهم في هذا الاتجاه. فلقد وصفت القيادة المدنية للانقلاب بأنها ذات "مطامح اشتراكية"، وبعضها ذات "مطامح اشتراكية علمية"، والآخرون "طوباويون" ولكن النظام ككل "تقدمي بوجه عام" (45).

ونشأ عن هذا أن بعضهم صار يرى ان ما استجد فيه الكفاية، ولذلك آثر ان يكف عن العمل اصلاً. فقد آثر عاصم فليح الانزواء عن العمل السياسي، وفضل الدعة وراحة البال! ورأى آخرون "ان حكومة الانقلاب ستحقق للطبقة العاملة كل ما تصبو اليه من السعادة والرخاء .."، و "ان لا حاجة للبروليتاريا العراقية للنضال المنظم" الذي من شأنه "ان يثير غضب بكر صدقي والعناصر الملتفة حوله"، كما تحدثت "الشرارة" عنهم من بعد (46). حتى فاجأهم بكر صدقي في تصريحاته المعادية للشيوعية. وكان لا يريد منها الشيوعية وحدها وانما اليسار بمجموعه، حتى بلغ الامر بحكمت سليمان، رئيس الوزراء، ان اعلن في مجلس النواب تخوفه حتى من استخدام كلمة (الفقراء) لئلا يفهم ان المقصود بها هو الشيوعية. وقال: "وبصفتي رئيس الحكومة اقول يا جماعة ان هذه الحكومة بعيدة كل البعد عن الشيوعية، وعن كل كلمة يشتم منها رائحة الشيوعية"، ما دفع النائب الشاعر معروف الرصافي الى أن يرد عليه قائلاً: "ان الذي افهمه من كلام فخامة رئيس الوزراء في هذه المرة وفي غيرها هو انه يتحفظ ويتحذر كل الحذر من ان يسمع او ان يتكلم بكلمة تدل على الشيوعية او يشتم منها رائحة الشيوعية وافهم ايضا ان هناك اناسا يريدون في طي الخفاء ان يضعوا تحت اقدام الحكومة مزالق من ثلوج الشيوعية. ان هذا الشيء غريب. الشيوعية مبدؤها معلوم، ومبدؤها عال وسام جداً، فليت شعري من هم هؤلاء الذين يريدون ان يقاوموا هذا المبدأ

السامي. ان هذا المبدأ لا يقاوم الا بشيئين اما بثقافة عالية او بقوة غاشمة عظيمة جداً.." (47).

بعد استقالة وزراء جماعة (الاهالي) من حكومة حكمت سليمان وسقوط حكومة الانقلاب بعد مقتل بكر صدقي في الموصل، شددت القوى اليمينية من هجومها على اليسار الديمقراطي عامة والشيوعيين خاصة، ولجأت الى اساليب الاغتيال في تصفية خصومها من اليسار. وقد تعرض عبد القادر اسماعيل الى ثلاث محاولات للاغتيال، واخيرا اسقطت عنه وعن اخيه يوسف اسماعيل الجنسية، واسقطت الجنسية عن مهدي هاشم وسُفر مخفوراً الى ايران ليُعتقل هناك حتى دخول الجيش السوفيتي في إيران في بداية الحرب العالمية الثانية. وزاد في الطين بلة ان دبت الخلافات الشخصية العميقة بين قادة الحزب. ولم تفلح المساعي التي بذلت في الاطار الحزبي الى تسوية المشاكل الداخلية ذات الطابع الشخصي (48)، ولم يعد يجري التقيد بقواعد العمل السري والضبط الحزبي. وفي هذه الاجواء جاءت الهجمة التي شنتها الاستخبارات العسكرية لتصفية التنظيمات الشيوعية بين الجنود في كركوك وبغداد واعتقال قرابة 65 جندياً وضابط صف، واعتقال زكي خيري ويوسف متي وحسن عباس الكرباس وعبد الرحمن داود، والدور المشين الذي لعبه قاسم حسن في تأليب بعض الجنود المتهمين ضد خصميه، زكي خيري ويوسف متي، وحبس الجميع في النهاية. جاءت كل هذه لتصفّي عمل الحزب المنظم والممركز في تلك المرحلة. وسارعت الحكومة في هذه الاجواء ايضا الى ادخال تعديل على المادة 89 من قانون العقوبات البغدادي؛ باضافة فقرة تقضي بالحكم بالاعدام على كل من يروج الشيوعية، وبأية وسيلة كانت، بين القوات المسلحة، والتي استخدمت من بعد، كما سنرى، لمحاربة الشيوعية بشكل فظ.

ولكن، وبرغم الدمار الواسع الذي لحق بالحزب، وفي المركز منه بالذات، خلفت هذه المرحلة من نضال الحزب امرين: ذكرى نضال مجيد للشيوعيين، ظل عالقاً في الاذهان ولعب كحافز حي ساعد في استعادة حيويته وتنظيمه بعد سنوات قلائل. والثاني بقاء مجموعات شيوعية تواصل العمل فعلا في عدد من المواقع كالسكك الحديد في بغداد وعمال النفط في كركوك ومثقفي وطلاب بغداد، وفي النجف والعمارة وكربلاء والديوانية والناصرية، ولا سيما في البصرة.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 297/ تشرين الثاني – كانون الاول، 2000. ص 6 – 32.

الهوامش

(1) اصدر الشيوعيون السجناء في (سجن نقرة السلمان) صحيفة حائطية باسم (السجين الثوري). وقد صدر منها بضعة اعداد، وكان ذلك عام 1953. وعندما نقل السجناء الشيوعيون من السجون المختلفة الى سجن بعقوبة المركزي، اصدر هناك مجلة "كفاح السجين الثوري" وكانت بحجم (فول سكوب)، وتكتب باليد بنسختين، احداهما يحتفظ بها داخل السجن ليطلع عليها السجناء الشيوعيون، اما النسخة الاخرى، فتهرب الى الحزب في خارج السجن. وقدر صدر منها ما يزيد على عشرين عدداً. وكانت تحوي معالجات فكرية وسياسية وتاريخية. وفي غمرة الهجمات البوليسية على بيوت المناضلين في خارج السجن، وكذلك في الغارة التي شنها البوليس على السجناء الشيوعيين في سجن بعقوبة عام 1954، والتي صادر بها كل ممتلكاتهم، احتجزت دوائر الامن كل ما صدر من هذه المجلة من اعداد.

(2) يوسف سلمان يوسف (فهد)، مؤلفات الرفيق فهد، بغداد، مطبعة الشعب، 1973، ص 100.

(3) مذكرات حسن عباس الكرباس – المخطوطة، ص 34، ص 35.

(4) المصدر السابق ص22 . والحق ان موسى حبيب استمر يواصل العمل في الحزب الشيوعي كما يشير زكي خيري ص94.
(5) بطاطو، مصدر سابق، الترجمة العربية، الكتاب الثاني، ص81.
(6) محمود الاطرش، فصول مختارة من ذكرياته، جريدة (النداء) البيروتية، 1 تشرين الاول 1989.
(7) المصدر السابق.
(8) بطاطو، المصدر السابق، الكتاب الثاني، ص83، هامش 44.
(9) ماهر الشريف، من الارشيف السري للكومنتيرن، استمارات المشاركين من البلدان العربية في المؤتمر السابع للكومنتيرن، مجلة (النهج)، العدد 33، سنة 1990، ص103.
(10) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الرابع، ص 34.
(11) حسن عباس الكرباس، مخطوطة المذكرات، ص23.
(12) زكي خيري، صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم، ستوكهولم، 1994، ص80، ويسميها حسن الكرباس في رده على تساؤلاتي في هذا الشأن بـ "جمعية مكافحة الاستعمار"، ويؤكد ان لا زيادة على ذلك، لكنه في مذكراته يقول ان اول منشور اصدره الحزب كان بتوقيع "لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار"، وابقى على "لجنة مكافحة الاستعمار" فقط (الكرباس، المذكرات، ص33). اما بطاطو فاستنادا الى تقارير البوليس يسميها بـ "الجمعية ضد الاستعمار". ويؤكد هذا ايضاً ان المنشور الذي كان يحمل عنوان "ماذا نريد؟" والذي وزع في النجف في 21 آذار 1935، والمحفوظة نسخة منه في المركز الوطني لحفظ الوثائق – ملف وزارة الداخلية – سجلات البلاط الملكي كان بتوقيع (اللجنة المركزية لجمعية ضد الاستعمار) (مجلة الثقافة الجديدة، العدد 132، تموز 1981). وفي مقال نشره س. بيتيوخان في مجلة (الشرق الثائر) في عددها الرابع سنة 1935 بعنوان (انتفاضة ثورية في العراق) يرد ان "اللجنة المركزية للجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار" وزعت بيانا مطولاً تحت شعار "الى الثورة، الى السلاح، الى الكفاح" (الثقافة الجديدة، ايار 1971). يبدو من هذا ان الحزب وقع منشوراته بتواقيع عديدة. والتسمية التي اوردها زكي خيري، كانت متداولة بين عديد من رفاق الحزب في منتصف الاربعينيات وقد سمعتها من عديدين.
(13) طبقا لما اوردته مجلة (كفاح السجين الثوري) في عددها الرابع عشر – 1954، ان عدد الشيوعيين في البصرة والناصرية كان حوالي 60 رفيقاً في عام 1933، ويقدر حسن عباس الكرباس عدد اعضاء الحزب في بداية تأسيسه (ربما في بغداد وحدها) بخمسين رفيقا (من رسالة الى المؤلف). ويلاحظ بطاطو، استنادا الى تقارير البوليس والمقابلات التي اجراها، ان جريدة كفاح الشعب كانت توزع 500 نسخة في عام 1935 (بطاطو، الكتاب الثاني، ص91). ويؤيد ذلك زكي خيري في مذكراته ص96.
(14) ينفي حسن الكرباس ان يكون هذا البيان الاول ويصر ان البيان الاول الذي وزعه بنفسه في ليلة 14 آذار 1935 واعتقل على اثر توزيعه تضمن كمطلب اول قلع قاعدتي سن الذبان والشعيبة البريطانيتين. وهو مطلب تضمنته فعلا البيانات الاخرى التي سنشير اليها، وربما يعود الالتباس الى دوائر البوليس التي ضبطت هذه البيانات وحفظتها في ملفاتها.
(15) مترجم عن النص الانجليزي لبطاطو، ص32/ 433.
(16) نشرت مجلة (الثقافة الجديدة) في عددها 132 تموز 1981، صورة البيان نقلا عن نسخة مخطوطة في المركز الوطني لحفظ الوثائق، ملف وزارة الداخلية، سجلات البلاط الملكي. والمواقع التي يشير اليها البيان كانت قواعد حربية بريطانية (سن ام الذبان – قاعدة الحبانية) و (الهنيدي – معسكر الرشيد).
(17) من مذكرات محمود الاطرش، جريدة النداء البيروتية، 1 تشرين الاول 1989.
(18) الثقافة الجديدة، العدد 132 تموز 1981.
(19) فؤاد الوكيل، ص354.
(20) من حديث لداود سلمان يوسف للمؤلف. وبشأن الانتفاضة وتطوراتها راجع كتابنا: نصير سعيد الكاظمي، الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، 1986، ص 140 – 146.
(21) المصدر السابق، الفصل الخامس.
(22) وزعت جمعية ضد الاستعمار في منطقة ابو صخير البيان الآتي: "ايها الجنود والضباط.. يا من نشقوا نسيم هذه البلاد ونشأوا على حب الاخلاص لها، انتم يا من يدخركم الشعب للذود عن كيانه وليس لتحطيم هذا الكيان – انتم يا من تعهدتم الامة لتعزيز قواها وليس لقلعها وتحطيمها، لا تغرنكم الحكومة والاوامر والحكام الذين لا يتكلمون إلا باسم الاستعمار ولا يمثلون الا مصالحهم. فاستهينوا بهم ولا تجعلوا للظالمين الجائرين طريقاً في ان يغرروا بكم ويدفعونكم الى قتال اخوانكم وآبائكم واهلكم

وذبح اطفالكم. هؤلاء الثائرون هم انفسهم رجال الثورة العراقية الذين عرفوا بتضحياتهم وهم لا يثورون اليوم إلا في سبيل استرجاع حقوقهم المغتصبة واسترداد حرياتهم المسلوبة. ولا تتبعوا اقوال الظالمين الذين لم يكونوا بالامس إلا جواسيس للاستعمار فانبشوا عن ماضيهم، وها هم اليوم يقومون بقسطهم من معاضدة الحركات الاستعمارية التي تحاول استعبادنا وخنق حريتنا خنقاً نهائياً.. اعلموا ايها الجنود والضباط بان النار التي توجهونها على اخوانكم لا تقع إلا على جماجمكم، فضررها واقع عليكم. وان الطعنة التي تصوبونها على بني جلدتكم وأمتكم لا تتجه إلا نحو صدوركم ولا تمزق إلا احشاءكم، هيا وجهوا قواتكم نحو عدوكم الحقيقي الذي هو كائن موجود بين ظهرانيكم، والى الانضمام الى صفوف الثوار وضرب المستعمر بما عندكم من قوة وايمان، وارجعوا كيد عدوكم في نحره، والى النضال لأجل الاستقلال الناجز أيها الابطال". (الثقافة الجديدة، العدد 132، تموز 1981، نقلا عن النسخة المحفوظة في المركز الوطني لحفظ الوثائق – ملف وزارة الداخلية – سجلات البلاط الملكي).

(23) زكي خيري، مصدر سابق، ص 89.

(24) كفاح الشعب، العدد 2 آب 1935.

(25) زكي خيري، مصدر سابق، ص78.

(26) كامل الجادرجي، مذكرات كامل الجادرجي، دار الطليعة، بيروت، 1970 ص45.

(27) يوسف خطار الحلو، اوراق من تاريخنا، ج2، دار الفارابي، بيروت ، 1992، ص167.

(28) ماهر الشريف، الارشيف السري للكومنترن، مجلة النهج، العدد 33، 1990، ص105، 113.

(29) أ. ريزنيكوف، الكومنترن والشرق، ترجمة نصير سعيد الكاظمي، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دار الفارابي، بيروت، 1987، ص342.

(30) مذكرات حسن عباس الكرباس، مخطوطة، ص57.

(31) فؤاد حسين الوكيل، جماعة الاهالي، دار الرشيد، بغداد، 1979، ص367.

(32) لم يكن جميع قادة "الشعبية" راغبين في التعاون مع بكر صدقي، فقد رفض عبد الفتاح ابراهيم ذلك وانسحب من الجماعة بعد ان رفضت الاخذ بنصيحته بعدم التعاون (بطاطو، الكتاب الاول، ص340)، فؤاد الوكيل، المصدر السابق، ص367.

(33) س. عبود (محمود الاطرش) مجلة المراسلة الاممية، الاممية الشيوعية، شباط 1937 .

(34) حسن عباس الكرباس، مذكرات، ص 59.

(35) فؤاد الوكيل، ص 385، زكي خيري، ص 102، بطاطو ، الكتاب الثاني، ص 94.

(36) المصدر السابق، ص 418.

(37) Rony Gabbay, Communism and Agrarian Reform in Iraq, Grom Helm, Lo-don, 1978. P. 50.

ويذكر كباي ان من هؤلاء يوسف بلبول وفؤاد عجمي.

(38) مذكرات حسن الكرباس، ص 79.

(39) نجدة فتحي صفوة، العراق في الوثائق البريطانية، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1983، ص 438.

(40) الوكيل، مصدر سابق، ص 432.

(41) انظر كتابنا: نصير سعيد الكاظمي، الحزب الشيوعي والمسألة الزراعية في العراق، ص 135.

(42) الوكيل، مصدر سابق، ص 423.

(43) بطاطو، الترجمة العربية، الكتاب الثاني، ص 112 و 113.

(44) فؤاد الوكيل، مصدر سابق، ص 424.

(45) روني كباي، مصدر سابق، ص 52، نقلا عن: ر. فيتول، في صحيفة (الشرق الثائر) العدد 1، 1937، ص 31، و س. عبود في صحيفة (الاممية الشيوعية)، شباط 1937، ص 151. (وسليم عبود هو محمود الاطرش).

(46) د. كمال مظهر احمد، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، ص 119، نقلا عن (الشرارة)، العدد 21 تشرين الثاني 1942، ص 7.

(47) الوكيل، مصدر سابق، ص 430.

(48) مذكرات حسن الكرباس.

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (9)
رسائل في أرشيف الحزب الشيوعي العراقي في الكومنترن *

ترجمها عن الروسية د.عبد الله حبة

رسالة (9)

28/ 5/ 1936

معالي رئيس مجلس الامة

بعد تقديم الاحترام اللائق بمقامكم الرفيع، نتقدم الى معاليكم والى مجلسكم العالي، نحن الموقعين في أدناه بعريضتنا هذه، رافعين ظلامتنا، وراجين عرضها على المجلس، لتجرى بشأنها التدابير القانونية من وجه، والمقترحة من وجه، وذلك بدافع التصرفات والاضطهادات التي عانيناها ونعانيها اليوم نحن الخمسة عشر شخصاً المتهمين في قضايا سياسية في عهد هذه الحكومة. انها من ما لم يسبق له مثيل في كل تاريخ الحكومة العراقية الوطنية وهي مما تستثير الوجدان النزيه وتستنفر ذوي الاحساس الحيَ أمثالكم.

إننا يامعالي الرئيس موقوفون منذ أربعة أشهر وبعضنا خمسة، وواحد موقوف وهو في أخذ ورد مع الشرطة منذ تسعة أشهر. وان شكوانا الآن ليست مقتصرة على التوقيف، بل تلك المعاملات الفظيعة والظلم الذي أصابنا على أيدي الشرطة، وتحت سمع حاكم التحقيق، مما لم يحدث له مثيل إلا في عهد الاحتلال ونحن لا نلقي الكلام على عواهنه، فان كل ما سند انما يسند مؤيداً بالحقائق المرة. واننا نورد هنا مجمل المخالفات القانونية والدستورية التي ارتكبتها الشرطة معنا، بعلم واطلاع حاكمي التحقيق، مما ستفضحه التحقيقات النزيهة المقترحة مؤخراً.

أولا – عدم الاسباب المبررة للاعتقال وابرز مثال لذلك ما حدث للمهندس جميل توما وعاصم فليح وغيرهما.

ثانيا – التهديد الذي قام به كل من المعاونين بالشرطة عبد الرزاق العسكري وسعيد صفار والمفوض عبد اللطيف سالم ولطفي مصطفى، على كل من الموقوفين يوسف متي وموسى حبيب وموسى ساوا وصادق اسطيفان وزكريا الياس ووديع مروكي، باستعمال العنف والضرب والتعذيب، مهددين اياهم بالقتل والاغتيال، حتى لو برأ القضاء ساحتهم.

ثالثا– أ: تعذيب الموقوف يوسف متي الطالب بكلية الحقوق، والصحفي المعروف، بالضرب من قبل المعاون عبد الرزاق، ضربا وحشيا مبرحاً، سبعة ايام بلياليها في سرداب رطب بدائرة التحقيقات، واستعمال مذاب الملح لجروحه لزيادة

التعذيب، وركله باخماص البنادق واقدام الشرطة على جميع انحاء جسده، ومنع الطعام عنه ثلاثة ايام متوالية.
ب: تعذيب الموقوف الاستاذ المهندس بدائرة المساحة من قبل عبد الرزاق وغيره بشكل فظيع.
ج: ضرب الموقوف موسى ساوا العامل بمستشفى القطار بالعصا والقضبان الحديدية، وركله بالاقدام، ولكمه بالايدي، وصفعه من قبل المعاون سعيد صفار والمفوض عبد اللطيف سالم، حتى رضّت اضلاعه وجرحت اذنه اليسرى جرحاً بليغاً، ولا يزال القيح والدم يسيلان منها.
د: ضرب الموقوفين زكريا ألياس الموظف بدائرة الميناء وصادق اسطيفان بكل وحشية من قبل المفوض عبد اللطيف والمعاون سعيد صفار.
هـ: الاعتداء على الموقوف موسى حبيب بالضرب القاسي من قبل المعاون عبد الرزاق وربطه بالسلاسل واجباره على قضاء ليلة بكاملها واقفاً ومعرضاً للبرد القارس، واجاعته (وهذا كله مخالفة بيّنة لنصوص الدستور).
رابعا – العمل على افساد الاخلاق وقيام المعاونين احمد المحفوظ وسعيد صفار ولطفي مصطفى وعبد الرزاق ومحاولتهم افساد اخلاق قسم من المتهمين، وهم زكريا الياس ووديع مروكي وموسى حبيب وشمعون بشو وموسى ساوا وحثهم على التجسس، وارشائهم لاداء شهادات زور ضد اناس لا يعرفونهم (وهذا مخالف لروح الدستور).
خامسا – التهديد بالفعل الشنيع وتهديد الموقوف موسى ساوا بارتكاب الفعل الشنيع معه، من قبل المفوض عبد اللطيف والمعاون سعيد صفار وافراد شرطتهما وتجديفهما في معتقده الديني تجديفاً اثيماً.
سادسا – زج الموقوفين جميعهم تقريباً كلا على انفراد نكاية بهم، وتنكيلاً، مع تمديد توقيفهم وكأنه امر واجب من دون أية مواجهه لاي مرجع رسمي، ودون تبليغنا أو اعلامنا بمصيرنا. كل ذلك في غرفة ضيقة مظلمة تملأها العفونة والرطوبة. وقد سببت لنا مختلف الامراض، ولم يستثنوا واحدا من ذلك؛ فلقد رموا المحامي يوسف اسماعيل في اقذر محل وانتنها رائحة، ومنعوا عنه الاكل إلا اكل الموقف، ولولا اضرابه عن الطعام واحتجاز قسم من المحامين لاستمر ذلك وربما افظع. وهكذا قضينا اكثر من شهرين في مثل هذه الاماكن، ذلك عدا عن سوء المعاملة التي لاقيناها من الشرطة وحاكمي التحقيق، مما لم يتلقها اي مجرم عادي من القتله والسراق وغيرهم. ومنعنا من عيادة الطبيب تلك المدة الطويلة، ومنع اتصال اي بشر بنا، وعدم تمكيننا من الاتصال بالقضاء مع اننا موقوفون سياسيون.
سابعا – بث روح التفرقة الدينية والطائفية والاقليمية بيننا من قبل المعاون عبد الرزاق، حتى امام محكمة الجزاء وبحضور نخبة من المحامين وهذا ممنوع في الدستور.
ثامنا – التحري الذي اجرته الشرطة على دور البعض منا، بدون حضورنا، بينما كنا موقوفين وبدون حضور المختار وهذه مخالفة ايضاً.
تاسعا – اجراء التحقيقات معنا في بيوتهم الخصوصية في محضر من الزوار.
عاشرا – رفض اعطاء الكفالة مع عدم وجود أي من الادلة او شبهها على الاقل على خمسة من الموقوفين.
هذا ولما كان المجلس النيابي هو المرجع

الاعلى الذي اوكل إليه امر المحافظة على القوانين والدستور وتطبيقها بالوجه الذي يضمن حتى الافراد وحرياتهم، لذا نحن نسترحم الاسراع في امر تأليف لجنة بصورة قانونية تكفل اظهار الحق وانصافنا ممن اعتدوا علينا، وعلى الحق والقانون، وذلك منعا من تكرار امثال هذه الحوادث المؤسفة التي هي ولا شك تقتضي اسفكم وتستفز مشاعركم، وردعا لأولئك الموظفين الذين يأتون مثل هذه الاعمال مما لا ينبغي على اي غيور على بلاده ان يغض الطرف عنها. ولا بد لنا ان نذكر ان قسماً غير قليل من سوء المعاملة المارة الذكر، يرجع الى عدم وجود تشريع يخص المسجونين السياسيين. وهذا نقص بارز في حياتنا السياسية والاجتماعية؛ اذ لا يخلو تشريع دولة راقية من مثله، وكيف يستوي المجرم العادي ذو الشهوات الشخصية الوضيعة والمتهم السياسي ذو المبادئ العالية السامية. هذا ولا بد لنا من ذكر نقطتين اساسيتين: اولاهما: شخص النص الدستوري المتضمن (المحاكم مستقلة والتدخل فيها ممنوع) فنحن نرجو التحقيق ايضاً عن المدى الذي يبقى فيه هذا المبدأ الاساسي مطبقاً، ان بقي على الاطلاق.

وثانياً: عن الموقف الذي نحن فيه الآن، فإن قمله وأوساخه وقاذوراته البشرية وبوله كل ذلك يختلط أتم اختلاط مع حياة الموقوف واكله ونومه.

وفي الختام نكرر استرحامنا حول تأليف لجنة تحقيق في المظالم التي اصابتنا باظهار الحق، وما ذلك بكثير على وجدانكم وروحية اعضاء مجلسكم الموقر العزيز.

هذا وما ذكر لم يكن الا جزءاً ونحن مستعدون للحضور امام مجلسكم العالي للتفصيل والافادة بما يجب.

ان رجاءنا ان يخطو المجلس خطوته لسن مثل هذا القانون خاصة وقد سمعنا عزم المجلس على تبديل تشريع السجونٍ وان املنا لوطيدٌ بتلبية ندائنا، وعلى كلٍ فالأمر لكم.

عن:

المحامي يوسف اسماعيل	المهندس جميل شماس توما	نوري انور روفائيل
عاصم فليح	زكي خيري	يوسف متي
مهدي هاشم	موسى حبيب	جرجيس يوسف
وديع مروكي	زكريا الياس	سليم زكريا
صادق اسطيفان	شمعون بشو	موسى ساوا

حول الارهاب في العراق
28/ 03/ 1936

يجتاح العراق ارهاب لم يعرف له مثيل. ويرزح في زنزانات سجن بغداد اكثر من 100 سجين سياسي، بينما تتواصل الاعتقالات. وجرى اعتقال الوطنيين الثوريين والمناضلين الصامدين ضد الامبريالية الذين رفعوا صوتهم في اثناء ثورة الفلاحين في عام 1935 دفاعاً عن الديمقراطية، وحقوق الشعب العراقي، ضد الامبريالية البريطانية التي نكّلت بوحشية بالثوار بواسطة القصف الجوي للقرى المسالمة وبنصب المشانق.

وتعرض الثوار العراقيون الذين اعتقلوا في كانون الأول 1935 الى التعذيب الوحشي ويحتجزون في سجن بغداد من دون توجيه أي تهم اليهم أو محاكمتهم. ان افعال القمع هذه ضد العناصر التقدمية تلتزم الصحافة الرجعية العراقية الصمت التام عنها.

يجب على الحزب الشيوعي والعناصر الديمقراطية حقاً في بريطانيا ان ترفع صوتها دفاعاً عن ابناء الشعب العراقي الابطال الذين تلاحقهم الامبريالية البريطانية بواسطة "الحكومة الوطنية" المزعومة.

نحن نناشد (المنظمة الاممية لدعم الثوريين MOPR[1]) تقديم المساعدة فوراً الى ضحايا الارهاب الامبريالي في العراق.

*****

منهج المظاهرة

الى الاجتماع في جامع الحيدرخانة في الساعة الثالثة زوالية من يوم الاثنين المصادف 2 تشرين الثاني 1936 حيث تلقى الخطب ثم تسير مواكب المتظاهرين من الجامع الى الباب المعظم ثم الباب الشرقي، حيث هناك ينفض عقد المظاهرة والاجتماع.

ان المحافظة على السكينة والهدوء هما دليل على تآزر الشعب الحي والاجماع.

لجنة الاصلاح التقدمي الوطني
مطبعة النجاح

*****

نداء مطبوع
9/ 12/ 1936
الى الشعب العراقي

ان الانقلاب الكبير الذي جرى باتحاد جيشنا الباسل وجماهير الشعب على اختلاف طبقاته المتوثبة التي أرهقها ظلم أفراد قلائل آثروا مصلحتهم الخاصة على المصلحة العامة، قد أثَر أثراً حسناً جداً في النفوس ولأجل الاستمرار على اظهار الشعور بتأييد هذا الانقلاب وابداء الاعجاب بالجيش ولأجل الاشتراك فعلياً في اظهار الاستياء من الاعمال الفظيعة التي جرت سابقاً ولزيادة التماسك بين الشعب والتعبير الصارخ عن الابتهاج بزوال الطغيان الفردي وعودة الحرية، ندعو الأهالي الى القيام بمظاهرة كبرى لتحقيق الشعب الآتية:

1- MOPR (وبالانكليزية International Red Aid) هي منظمة اجتماعية تأسست في موسكو عام 1922 بهدف تقديم الدعم والمساعدة للثوريين والسجناء السياسيين وعوائلهم، كما كانت تقوم بحملات احتجاجية عالمية، وبلغ عدد اعضائها 14 مليون عضو. وفي عام 1947 تم حلها واخضاعها للاممية الشيوعية. (المحرر)

1 – ازالة آثار الظلم الماضي.
2 – تقوية الجيش تقوية تامة.
3 – العفو العام عن المسجونين السياسيين.
4 – فتح النقابات والصحف التي أغلقتها الحكومة السابقة.
5 – تخفيف ويلات الفقر وايجاد الاعمال للعاطلين وتشجيع الصناعات الوطنية.
6 – توحيد الحركات الشعبية في الاقطار العربية لتأمين تقدم هذه البلاد.
7 – التساوي في الحقوق بين العراقيين والتمسك بوحدتهم ونشر الثقافة والوقابة الصحية في جميع العراق.

*****

البيان مطبوع على الآلة الكاتبة باللغة العربية

9/ 12/ 1936

انتصار جبهة الشعب

امام انتباه الجماهير العاملة تنهزم الرجعية المتوحشة، مخلفة وراءها آثارها الدموية، واشلاء ضحاياها الكثيرين. نأمل من الوزارة الشعبية القائمة ان تقضي على هذه المخلفات دون هوادة، لتسجل في التاريخ صفحة نضال عنيد جديد في تاريخ هذه الامة اليقظة، وتخطو المرحلة التاريخية المحتمة في سبيلها الى التحرر الاجتماعي المنشود.

ان الشعب الذي انهكه الاضطهاد زمناً طويلاً وفرضت عليه عبودية البرابرة الطامعين بقوة السلاح من قبل رجال العهد البغيض السالف، ان هذا الشعب الكريم يؤيد وزارته ودستوره ويطالب بحرياته الديمقراطية ويتعهد ان يقف متحداً يسند وزارته ابداً اذا ما سارت مؤيدة الثورة الاجتماعية التحريرية التي يحتمها التاريخ والتي تقضي نهائياً على كل العناصر الرجعية الدموية التي تقف حائلاً دون اي تقدم اجتماعي، يعاكس مصالحها الاستغلالية الخاصة، وتستحل في سبيل جشعها اراقة دماء ألوف الابرياء (كما فعلت الوزارة السابقة).

ان الشعب بما فيه من الجيش الذي يعتبر القوى الدفاعية عن حركتنا التحريرية، والذي هو جزء لا يتجزأ من قوة الشعب الكبرى، ومن العمال المستثمرة جهودهم والفلاحين البؤساء الذين انهكتهم الاقطاعية الجائرة واجزاء الشعب الاخرى غير التي تعيش متطفلة على امتصاص الدماء تقف ايضاً لتطل آملةً مبتهجة على هذا الفجر التاريخي الجديد، وهي عازمة على أن تناضل حتى النفس الاخير في سبيل اسعاد المجموع.

يعيش الشعب متحداً متآزراً

يعيش النضال الشعبي ضد السفاكين الخونة

تعيش الحريات الديمقراطية

تعيش الحكومة الشعبية الديمقراطية

جماعة التحرير الوطني والاجتماعي

---

* من وثائق الكومنترن

حـــــــــــوارات

الشاعر عبد الكريم كاصد: هل أصبح واقعنا نفسه مصطنعاً؟

اجرى الحوار: خالد السلطان

عُرّف عن الشاعر العراقي عبد الكريم كاصد اهتماماته المعرفية غير التقليدية، التي ابتدأت من حقبة دراسته الأكاديمية للفلسفة - في كلية الآداب، جامعة دمشق - مروراً بتعامله المتواصل مع المتون الفلسفية، بلغتها الفرنسية والإنكليزية، أي بتجاوز التوسط المشكل لترجمة تلك المتون إلى اللغة العربية.
في هذا الحوار طرحنا على الشاعر عبد الكريم كاصد بعض الإشكاليات، ذات الخاصية الفلسفية، والتي تعامل معها بمعرفيته الفلسفية واجتهاداته الفكرية والجمالية القيمّة.

*** من المعروف ان عدداً من مفكري ما بعد الحداثة أكدوا في طروحاتهم التنظيرية على ان الحياة المجتمعية والثقافية المعاصرة باتت خاضعة للواقع الافتراضي، وتحول الواقع المعيش إلى ما فوق - الواقع، أو الواقع المجتمعي المشهدي كما يقول (جان بودريار). في ضوء ذلك هل ما زال للفلسفة أي دور تعقيلي إزاء الاعتباطية التي ألغت المرجعيات الفلسفية والإيديولوجيات والمسافات بين الدال والمدلول؟**

– المفارقة الأولى في السؤال المطروح هي أن من كشف عن هذه الاعتباطية هم الفلاسفة أنفسهم. والمفارقة الأخرى هي أن جان بودريار ذا التأثير الكبير في عصره، بلا شكّ، كان من الفلاسفة الذين ناصبتهم المؤسسات العداء، ولعلّ الاعتباطية لا تزال مثار جدل داخل الفلسفة وخارجها، ومثالنا الأقرب هو الصراع الذي دار بين هابرماس وفلاسفة ما بعد الحداثة، ما يدل على أن الفلسفة حاضرة ابداً حتى وإن تأخر الفلاسفة عن المجيء إلى الحدث بعد انقضائه، أو على حدّ تعبير ماركس بعد أن تحدث المجزرة.
وما يجعل الأمر نسبياً هو هذه الهوة التي

تفصل الكثير من المجتمعات بعضها عن بعض ما يجعل التعميم ذا طابع نسبيّ ونافلاً أحياناً. وهذا ما يقر به بودريار نفسه بإشارته إلى أن هذا ألصق بالمجتمعات الغربية، لانّ المجتمعات الأخرى لا تزال محافظة على رمزيتها في الحياة والاجتماع. لم تلغ الفلسفة المسافات بين الدال والمدلول. إنها كشفت ما هو مخبوء في هذه المسافات وهي لم تستطع القيام بذلك إلا لأنها على نقيض ما يجري في الواقع من غياب للعلاقة بين الدال والمدلول.

حتى في الواقع المجتمعيّ المشهديّ، كما أشار إلى ذلك بودريار نفسه، ثمة فسحة للنقد يعكس ما يحدث في علاقة الواقع بما فوق الواقع حيث المسافة عدم، ما يعني أن ثمة مجالاً للفلسفة حتى لو انسدّت كلّ الأبواب أمام فعلها أو دورها.

لم يستطع ما فوق الواقع (المصطنع) أن يلغي الواقع تماماً ومثالنا الملايين التي خرجت تتظاهر في الشارع ضد الحرب.

الفلسفة لا تقدم حقائق مطلقة. إنها تقدم مقاربة للواقع وقد تتصادم الفرضيات والمقاربات وكلها طرق عديدة لمعرفة الواقع.

ليست الفلسفة حضوراً فقط. إنها ماض واسترجاع للبحث عن هويتها عبر الاختلاف. لقد اتسعت لتشمل فضاءات واسعة أخرى في الفكر والواقع. وقد ترى أغلب الفلاسفة المعاصرين ليوتر، آلان باديو، بودريار، سارتر، باشلار هم فنانون وفلاسفة وشعراء في الوقت نفسه.

حتى لو كانت الفلسفة مسرحاً، وليس واقعاً فإنها ستكون بلا شك مسرحاً مثيراً أكثر إثارة من الواقع، وهنا نرجع ثانية إلى الدال والمدلول وسعة الشقة بينهما، ولكنه مسرح يشير إلى الواقع على أية حال. إنها إبداع التصورات على حدّ تعبير دولوز.. هذه التصورات التي لم تخلُ منها مرحلة من مراحل التاريخ. أما الحديث عن نهاية الفلسفة امتداداً للحديث عن نهاية التاريخ، ونهاية الماركسية إلخ.. فهو لم يشغل بال فلاسفة كثيرين كالفيلسوف الكبير دولوز مثلاً.

ما يحدث هو العكس لقد اخترق السياسيّ ما هو فلسفيّ حتى أن البعض رأى في بعض فلسفات عصرنا سياسة مقنعة وهذا ما اتهمت به فلسفة هابرماس مباشرة.

*** ألغت الميديا المعاصرة واقعية الواقع وأنتجت واقعاً مصطنعاً. ففي الفيلم الدعاوي الأمريكي "عاصفة الصحراء" غيبّت تراجيديا ضحايا تلك الحرب، الذين لا نعرف أعدادهم حتى اليوم، وصَنّع الفيلم حرباً مماثلة لألعاب "play station". ألا تعتقد بضرورة ان يعنى الفكر الفلسفي، في البلدان العربية، على نقض "مصطنعات" تلك الميديا. وليس بعيداً عن ذاكرتنا طبعاً طروحات هربرت ماركوز في "الإنسان ذو البعد الواحد" و"إيروس والحضارة" وطروحات تيودور أدورنو ويورغين هابرماس ... الخ؟**

– لعل مدرسة فرانكفورت، ممثلة بأدورنو وهوركهايمر وماركوز وهابرماس، هي من أوائل من تنبهوا إلى تحول الثقافة إلى صناعة، هدفها تغييب الوعي بتغييبها الواقع الحقيقيّ الذي يعيشه الناس، واستبداله بواقع آخر هو واقع النهايات السعيدة الذي يعيشه الناس في الأفلام ومصطنعات الميديا.

في هذه الثقافة صار الإنسانيّ، كما يذكر ذلك أدورنو في كتابه الهام "الإنسان

الصغير"، غريباً عن البشر، إذ اضمحل التوتر بين الثقافة والفن الاستهلاكي، ولم تعد الثقافة "تجرّ وراءها خصومها العزّل الذين تزدريهم، بل اصبحت تنزلهم ضمن برنامجها، معلنة القطيعة مع ما هو إنسانيّ". وقد اصاب أدورنو حين أكد أن الوضع الذي يزول فيه الفرد هو في الوقت نفسه الوضع الأكثر تكريساً للفردانية المنفلتة من قيودها حيث "يكون كلّ شيء ممكناً". وهذا قد يقودنا إلى الحديث عن مجتمعاتنا التي تفتقد الآن الشخصية المؤثرة، على سبيل المثال، إذ حلت الأقنعة محلّ الوجوه، وقد تكاثرت وتشابهت، ولم نعد نتعرف على الفرد بصفته شخصاً أو إنساناً، فكأننا لسنا في مجتمع بل في سيرك.

لقد أصبح المجموع أحزاباً، أو طوائف، أو منظمات مدنية، أو غير مدنية رحماً لتوليد كلّ ما هو فردانيّ مقيت. آنذاك تبدو الحدود الفاصلة في أشدّ اختلاطها وتشوهها، فباسم الجميع يؤكد الفردانيّ هويته، بجشعه وفراغه، لا بزهده وامتلائه، يدعمه في ذلك حاضر ملتبس هو الماضي ذاته، ومستقبل أشد التباساً ما يجعل مهمة الفكر الفلسفي في البلدان العربية، إن كان ثمة فكر فلسفيّ في هذه البلدان، في نقض مصطنعات الميديا في غاية الصعوبة.

إذا كانت الفلسفة في أوربا تُتهم بأنها سياسة مقنعة كما ذكرت ذلك في ردّي على سؤالك السابق، فماذا سنقول إذن عن الفلسفة في عالمنا العربيّ وهي تواجه واقعاً أشدّ تعقيداً يستدعي اقترابها أكثر مما هو سياسيّ قائم.

من جهة أخرى ليس على الفكر الفلسفيّ بالضرورة أن يكون بمنأى عن الواقع المصطنع حين يكون مفارقاً لواقعه، أو يكون غير قادر على تمثل هذا الواقع الملتبس بتقاليده، وطوائفه، وحروبه، وفنه المسيطر وسلطاته الموروثة التي يبدو هذا الفكر ملمحاً من ملامحها الأخرى التي يصعب التعرف عليها لما طالها من تشويه كبير.

إن قوة التقاليد من الرسوخ ما يجعلها في كثير من الأحيان قادرة على الانتقال بمفكر مثل عبد الرحمن بدوي، أو جلال صادق العظم، أو محمد عابد الجابري من موقع إلى آخر هو نقيضه تماماً. وليس غريباً علينا كُتب عبدالرحمن بدوي الأخيرة الفاقدة لقيمتها والمستلبة للموروث، أو مديح الجابري للسلطات القمعية كمديحه لتجربة النظام البعثيّ في العراق، أو إعجاب العظم بتجربة حزب العدالة والتنمية في تركيا. هذه التجربة التي أعلنت عن فشلها بعد أشهر من كتاباته، ومقابلاته الحماسية لها، والتي يمكن أن يعود القارئ إلى بعضها في "الحوار المتمدن". أما علاقة النخب الثقافية بالسلطات فهي أوضح من أن يشار إليها.

ولعلّ ما نخشاه حقّا هو أن يكون فكرنا الفلسفي هو ذاته في أغلبه جزءاً من هذا الواقع المصطنع الذي يتم الاحتفاء به يومياً من خلال الأعراس المصطنعة، والجوائز، وتبادل المديح ودخول أفواج الريفيين فيه عبر مؤسسات متخلفة غير معنية بما حولها من تغيير في العالم يضاف إليها أفواج أخرى من منتفعين نقلوا خدماتهم من سلطات سابقة إلى سلطات حالية. أولئك يعيشون أعراسهم باقترابهم من سلطة كانوا محرومين منها، ولا يحلمون بالاقتراب من مؤسساتها، وهؤلاء يقتربون من سلطة هي في أمس الحاجة لخبرتهم في التزلف والتشويه.

هل أصبح واقعنا نفسه مصطنعاً؟

*** ما رأيك بالزعم القائل بأن الفلسفة تحولت، اليوم، إلى مجرد أفكار متمضية، أو فكرانية زمن ماض. أي مفرغة من الفاعلية الآنية والبراكسس الثقافي والمجتمعي. فـ "اللوغوس" صار عاجزاً عن نقل ما هو معرفي وتواصلي وتعلّمي، طبعاً في ضوء هيمنة ما يسمى بالثقافات الجماهيرية؟**

– يرجع التشكك بقدرة الفلسفة في رأيي إلى التصور الوحيد لنموذج معين مفارق للواقع وتحولاته.
لا أحد يستطيع أن يحدس ماذا ستكون الفلسفة في المستقبل. ولكننا لا نشك أبداً بحضورها في ما هو قائم من مراحل بشرية لأنها هي الألصق بالإنسان في بحثه عما هو أبعد من الظواهر التي نراها في الواقع وتجلياته: سواء في بنيته التحتية أو في بنائه الفوقي من علوم ومذاهب وطوائف.. إلخ.
إن دور العقل الفاعل على حدّ تعبير هبرماس لن ينتهي على الإطلاق، لأن ثمة ما تسعى إلى إخفائه هذه السلطات القائمة في النظام الرأسمالي وتشويهه. وهنا يأتي دور الفكر والفلسفة في الكشف عمّا هو مخفيّ في ظلّ هذه الهيمنة التي تتخذ فيها الأشياء أشكالاً أقرب إلى التجريد، وقد فرغت من معانيها الأصلية فالديمقراطية شكل، والحرية أيضاً وقد يمتدّ التجريد إلى الثقافة والفلسفة ذاتها، لذلك يبقى الاحتمال المطروح في سؤالك قائماً، لكن ينبغي ألاّ يغيب عن بالنا أن للواقع ديالكتيكه الذي يشق طريقة بمنأى عن رغبات هذا الواقع نفسه وتحولاته العابرة.
فلا غرابة أن نجد حتى لدى الفلاسفة الاكثر سلباً في موقفهم من القيم عامة كجان فرانسوا ليوتار ما يؤكد على فلسفة الفعل بقيمها المرحلية المؤقتة.

كيف يتمّ الكشف عن التمثلات الإيديولوجية في العلم أو في الإيديولوجيا وحتى في النظريات الفلسفية من دون الفلسفة مستندة إلى ما يكتشفه العلم؟
كيف نفهم، من دون الفلسفة، التحولات الإيديولوجية المفروضة على العالم من قبل قوى مهيمنة لها قدراتها في التحكم بالدلالات وتأويلها مثلما تشاء من أجل مصالحها التي تقود العالم إلى الخراب؟
كيف نستطيع مواجهة الأوهام، ولا سيما في مجتمعاتنا المتخلفة، من دون الفلسفة التي تستطيع، حتى في خصوصيتها، أن تكون ذات أبعاد تتجاوز وضعها الخاص إلى ما هو أرحب وأعم، من خلال توغلها العميق في تربة الواقع وثقافته السائدة؟
وأخيراً كيف يمكن تأسيس خطاب جديد سابق مهيمن من دون فلسفة؟

*** هل تتفق مع الفيلسوف (جاك دريدا) في مؤلفه "أطياف ماركس" بأن شبح ماركس ما زال شاخصاً ومقلقاً للرأسمالية الغربية المعاصرة، أي أنه مقارب لظهور شبخ "الملك/ الأب" في مسرحية هاملت؟**

– لم يقل دريدا طيف ماركس وإنما قال أطياف ماركس مثلما لم يقل لنا كيف تتجسد هذه الأطياف بعدما حل بها من تشويهات على أيدي السلطات التي تعاقبت رافعة راية الاشتراكية.
في تصريحه بعودة هذه الأطياف ثمة اعتراف بوجود هذه الأطياف، وحضورها، وانحيازه لها. كيف يتجسد الشبح وماركس نفسه صرح ذات مرة أنه ليس ماركسيا؟ وحين يتعدد هل سيكون نقيضاً لماركس الواحد الذي حلّ في جسد ليس في مقاسه، هو السلطات بكلّ تدرجاتٍ ألوانها المقيتة

المجسدة في أوربا الشرقية وفي عالمنا العربيّ؟
لماذا لا يكون هذا التعدّد موازياً للتعدّد الذي نراه في الرأسمالية؟ لماذا لا تكون هناك أطياف كثيرة لا طيف واحد، برامج يسارية عديدة في مواجهة هذا النظام الرأسمالي البشع الذي تتعفن فيه الديمقراطية على حدّ قول هارولد بنتر بدلاً عن التشكيك الذي رافق دراسات ما بعد الحداثة الذي يشبه في موقفه العدميّ أحيانا التوقف عن الحكم وإهمال البراكسيس الذي أكد عليه ماركس ومن جاء من بعده كألتوسير.
لن ينتهي التاريخ والأطياف لن تنتهي، مادام ثمة بشر، وقيم تلوح وراء صورها المشوهة الزائفة التي ترفعها القوى الدينية والرأسمالية معا في شكل تظاهرات جمعية لا حضور فيها للفرد، لأنه رقم تماماً كأرقام السجناء، ولكن سجناء خارج سجون هذا العصر.
ما دام ثمة نظام رأسماليّ فإن اقتصاد السوق لن يختفي أبداً، وهذا يعني أنّ الكثير من مقولات ماركس ستبقى قائمة: التشيؤ، صنمية السلعة، هيمنة العامل الاقتصادي، وهيمنة القيمة التبادلية في كلّ شيء حتى في العلاقات الاجتماعية، ولن تجد عندئذ عزاءً إلا في الشبح القادم. قد لا يكون الشيوعية أو الاشتراكية ولكنه بكلّ تأكيد سيكون شبح الفلسفة والتساؤل والحفر في ما هو ظاهر زائف.
ولعل من بين المفارقات الغريبة أن ماركس الذي استحال شبحاً شاخصاً هو ذاته ماركس الذي أوضح في بداية كتابه "رأس المال" كيف كان ينبغي عليه أن ينغمس في الضباب ليبيّن أن ليس ثمة أشباح ولا ألغاز عميقة، كما أشار إلى ذلك فوكو نفسه في أحد مقالاته.
يرى دريدا في كتابه الهام "أطياف ماركس" أن التفكيك كان مستحيلاً ولا يمكن التفكير فيه قبل الماركسية، ولم يكن له معنى إلا ضمن تقاليد نوع من الماركسية. كما يعتبر نفسه وارثاً للماركسية، بل إنه يذهب أبعد من ذلك ويعتبر أن كلّ البشر فوق الأرض جميعاً هم اليوم بمعنى من المعاني ورثة ماركس والماركسية، سواء أرادوا ذلك وعلموه أم لا، وهذا يعني أنهم ورثة الفرادة المطلقة لمشروع – أو لوعد – ذي شكل فلسفيّ علميّ غير دينيّ أو أسطوريّ أو قوميّ. ثم يضيف أنه ليس ثمة وارث لا يتضمن نداء للمسؤولية، فالميراث هو تأكيد دائم للدَيْن ولكنه تأكيد نقديّ، انتقائيّ، واصطفائيّ أيضاً.
هذه العودة في رأيه تحرير من كلّ دوغمائية، وحتى من كلّ حتمية ميتافيزيقية، بصفتها وعداً ليس مجرداً أو روحياً، وإنما هو وعد "ينتج حوادث، وأشكالاً جديدة للفعل، وللممارسة، وللتنظيم، إلى آخره، فإن يحدث المرء قطيعة مع "الشكل الحزبي"، أو مع هذا الشكل أو ذاك من أشكال الدولة، أو العالمية، فهذا يعني التخلي عن كلّ شيء من أشكال التنظيم العملي أو الفعال. وما يهمنا هو العكس من هذا بالضبط". كما جاء في كتابه في الترجمة العربية ص ١٧٢.
ولعلّ من الضروري التوقف قليلاً عند فكرة مهمة يطرحها دريدا في الفصل الثالث من كتابه (أطياف ماركس) هي "العالمية الجديدة" في مواجهة العنف في عصرنا هذا والذي لم يشهد تاريخ الأرض والبشرية مثله من قبل.. عالمية تدعو إلى صداقة تحالف من غير مؤسسة بين أولئك الذين ظلوا يستوحون على الأقلّ من فكرة واحدة من أفكار ماركس، أو من الأفكار الماركسية، وإن لم يعودوا من الآن فصاعداً يعتقدون

بها، أو وإن لم يعتقدوا قطّ بالعالمية الاشتراكية – الماركسية، وبدكتاتورية البروليتاريا... وذلك لكي يتحالفوا حول طريقة جديدة، عملية، وواقعية، حتى وإن لم يعد هذا التحالف يأخذ شكل الحزب أو العالمية العمالية في نقد دولة القانون الدولي ونقد متصورات الدولة والأمة ومن أجل إعادة تجديد هذا النقد وخاصة من أجل تجذيره.

ينهي دريدا كتابه بالقول إنّ الأطياف حتى وإن لم تكن موجودة فإنها تهبنا إعادة التفكير بالـ "هنا" غير أنّ الشبح كما يقول في مكان آخر من الكتاب "لا يموت أبداً، إنه يبقى على الدوام مما سيأتي، وسيعاود المجيء".

*** هل بمقدور الفكر الفلسفي، في عموم البلدان العربية، اقتحام قلاع "المقدس" نقدياً وتفكيكيا، وبخاصة العوالق التي سيّجته بالأطر الخرافية والسرديات التدينية الشعبوية، والتدين كما تعلم غير الدين؟**

– لا أرى أن المسافة بين التدين والدين واسعة تماماً وخاصة وإن كلّ دين يتضمن أدياناً وتأويلات شتى، وناسخاً ومنسوخاً، قد نتفق أو لا نتفق عليه، بالإضافة إلى الفقه الذي لا نهاية لاجتهاداته وتأويلاته وتمسكه الحرفيّ من جهة أخرى، أي أن ثمة شيزوفرينيا في الاجتهاد، وقد تبدو الفوارق أحياناً على اختلافها وكأنها شكل وليس جوهراً إذ سرعان ما تتفق الأطراف المختلفة جميعاً، ولاسيما على الصعيدين: السياسيّ والاجتماعيّ، على جوهر واحد هو الإرهاب لا بمعناه الضيق، وإنما الإرهاب بشكله العام: التضييق على الحريات الفردية وتطبيق أقسى الأحكام حتى في أرقى المجتمعات العربية، كقتل تارك الصلاة بعد تحذيره ثلاثاً، أو من دون تحذير. ما يدهشني ليس الاختلاف الذي نشاهده في الأشكال وإنما الاتفاق على جوهر يتقاسمه الجميع سنة وشيعة، ومذاهب أخرى، وما مرونتها إلا تعبيراً عن هذه الأشكال المتشبثة بجوهر واحد تتمسك به، وكأن فقدانه فقدان لوجودها أي لمصلحتها كفئات تعيش على حساب المجتمعات القائمة.

لا يستطيع الفكر الفلسفيّ وحده على اقتحام قلاع المقدس وما يحدث الآن من اقتحام لا يعود إلى الفكر الفلسفيّ، وإنما إلى ما يجري من أحداث جعلت الناس مرعوبين من آثار التدين التي لا يمكن التعامل معها بمبعدة عن الدين، لأنهما في علاقة أيضاً كعلاقتهما معاً بالواقع ذاته. وما يجري في واقعنا هو نقيض ما يراه هيغل كل واقع معقول وكل معقول واقع.

وفي حين ينحسر الدين في أوربا نرى ما يحدث في محيطنا هو العكس، حيث يتشظى الدين ويولد أدياناً وفي الوقت الذي تُنتقد فيه النظريات الكبرى كالماركسية وتعتبر أشكالا أخرى للدين، نرى أننا نرتد إلى ما قبل هذه النظريات التي ننقلها فكراً وممارسة إلى ما هو غابر في تاريخنا، وكأننا خارج الزمن، وكأننا شعبٌ منقرضٌ ولعلّ الحروب الطائفية إذا ما استمرت ستعود بنا إلى الكهوف، وإن كان هذا محالاً ولكن قد يحدث هذا بأشكال أخرى لها خبث الواقع الذي انتجها والذي لا نستطيع أن نلحق بحركته مما يجعلنا مفصولين عما يحدث أو يأتي بمئات السنوات.

*** الجماعات الإرهابية والسلفية - أياً كان مذهبها - أسست ما تسميه جهاداً على اضمامة من الفقهيات والفتاوى الإسلاموية،**

المتقاطعة في أغلبها مع النص التأسيسي (القرآن) وبخاصة السوّر المكّية، أي أنها مجرد إجتهادات بشرية غير معزولة عن تاريخية إنتاجها أو زمكانيتها. وعليه ألا تعتقد بضرورة قراءة الإرهاب والفقهيات السلفية المعاصرة فلسفياً؟

– بلا شك ثمة ضرورة لذلك ولكن لماذا تحصر القراءة فلسفياً في الإرهاب والفقهيات السلفية؟ وتُحظر قراءة النص التأسيسيّ نفسه؟ ألا يحق للفكر الفلسفيّ قراءة النص أيضاً؟ هل تعتقد أن الفقهيات السلفية مفارقة للنص تماماً؟ وكيف نقرأ هذه الفقهيات السلفية، من دون قراءة النص وإشكالاته في منظومته المتشابكة، وتأويلاته المختلفة، ودعوته إلى ما هو عام في التطبيق، وإنكاره لأية خصوصية تستدعيه أن يقف عند حدّ ما إذا ما توفرت السبل لانطلاقه ثانية في هيمنة ما أو انتصارات ما، ليس لها طابع الفتوحات السابقة وإن تماثلت معها في الجوهر؟

*** ألا تجد مقاربة مابين الطروحات الفلسفية، ما بعد الحداثية، لجان فرانسوا ليوتار، المتمحورة حول التفتت المجتمعي وتقسيم الموحد عبر تعزيز الخلاف - لا الاختلاف - بين مكوناته، وما يسمى بالربيع العربي؟**

– لا يبتعد ليوتار كثيراً عن نيتشة في تأكيده على العدمية في صراعه مع القيم بما فيها قيمة العمل في المجتمع الرأسمالي، ولكنه من جهة أخرى يدعو إلى السرديات الصغرى في مواجهة السرديات الكبرى الممثلة بالماركسية والفرويدية والسيميائية، ويرى أن من الممكن أن تحتوي هذه السرديات الصغرى على أهداف، وقيم موقتة عابرة، على النقيض من الشمولية التي سادت قيم السرديات الكبرى السابقة تقوم بها جماعات أو تجمعات معينة ليس لها أهداف بعيدة أو قيم شاملة.

من هذا المنطلق الأخير هل يمكن النظر إلى الربيع العربيّ باعتباره تجمعاً ذا أهداف مؤقتة وقيم مرحلية تم الالتفاف عليه من قبل القوى الإسلامية التي لم تشارك فيه إلا في اللحظات الأخيرة لإجهاضه، وهذا ما شهدته التجربة في مصر؟ عندئذ ستتخذ إجابتي مساراً آخر غير المسار المفترض في السؤال، رغم موقف ليوتار القريب من نيتشه في إنكاره القيم بعامة.

قد يذكرنا الربيع العربي بالمثال الذي يطرحه دائما ليوتار عن أحداث ثورة الطلاب في فرنسا تلك الثورة التي احتوت على أهداف معينة لم تتحول إلى مطالب شمولية.

الخلاف لدى ليوتار يكاد يكون مطلقاً خارج اللغة، فلا قواعد ولا غاية هناك. إنه اختلاف غير قابل للحلّ، مُرجعاً ذلك إلى ألعاب اللغة غير المتكافئة. إن أيّ تسوية لن تجدي، في رأيه، سوى في إطالة أمد الحلّ، لأنّ طرق الحكم تفتقر إلى المعيار المشترك مما يجعل تبرير الممارسات المختلفة ممكنة، بالقدر نفسه من ناحية ربطها بالأحداث أو العبارات. وحين تتنازع ممارستان من هذه الممارسات التي تحكمها ألعاب اللغة غير المتكافئة، حول الحدث نفسه، يحدث صراع غير قابل للحلّ، أي يحدث صراع لا يمكن حله بشكل عادل من وجهة نظر كلّ من نوعي الممارسة، ويسمي ليوتار هذا الصراع بالخلاف كما يلخص ذلك تقريباً جيمس وليامز صاحب كتاب "ليوتار: نحو فلسفة ما بعد الحداثة".

لقد أشار الكثير من الباحثين ومن بينهم جيمس وليامز الذي ذكرناه قبل قليل إلى ميل

ليوتار إلى "تقديم صورة مجملة لما يهدف إليه دون التفات كبير للدراسة المفصلة التي تستلزمها".
يعتبر ليوتار أيضاً معرفة المجتمعات الأقلّ تطوراً معرفة حكائية، نقيض المعرفية العلمية التي هي من اختصاص المجتمعات المتطورة مما يجعلنا أشد حذراً في تقبّل مفاهيمه المتشابكة.

*** طبقاً لميشيل فوكو فالنقد الفلسفي يشتغل على نقض أو نفي مشروطية الإكراه والخضوع لمبدأ السلطة أو الحقيقة المهيمنة والحاكمة. وعليه هل يمكن الحديث عن وجود بوادر للنقد الفلسفي في الثقافة العراقية؟**

– فوكو يهب السلطة هيمنة كاملة في سيطرتها على الواقع حتى يكاد أن يكون تصوره لهذه الهيمنة ميتافيزيقيا عبر خلق الفراغ للسيطرة على الناس وخلق الوهم باستقلالهم عن السلطة وهذا التصور كان موضع انتقاد حاد لدى هابرماس ونعته بالمتافيزيقي هو تعبير لهبرماس نفسه، ولكن في تحليله أيضا الكثير من الصحة.
ما يجري في واقعنا وهْم بديل للواقع فالأشخاص لم يعودوا من لحم ودم، لأنهم أسماء بلا وجوه لا يعرفهم أحد تختارهم الأحزاب أدوات لأغراضها، بعيداً عن أي سمات حقيقية لنمط أو نموذج، والأحزاب ذاتها وهم أيضا لا تستمدّ حضورها من واقع، وإنما من رموز وماض وتاريخ هو نفسه وهم.
إننا في غمرة أوهام يتطلب اجتيازها التضحية بعشرات الروّاد الشجعان إن وجدوا ولكن التضحية لم تعد سهلة في زمن لا بطولة فيه، وحتى التضحية لم تعد فردية مرتبطة ببطولة أو مواقف كبرى، فبالإمكان أن تبيح دم إنسان عاديّ لأنه لا يصلي. وللتدليل على هذا الوهم الشائع هو أن الأحداث الاجتماعية والوقائع لم تعد ذات أهمية في المجتمع العراقيّ، فأن يكون الإنسان خائناً لا أهمية له، فهو قادرٌ أن يكون داعشياً وعضواً في البرلمان، يخطط لتفجير ويدينه أيضاً، يحرّر منطقة ويدين المحرر.. بل أن اللاخيانة تتجسد في براءة الجميع. لقد احتلت مدن وأقيمت سلطات احتلال ولم يعلن عن خائن واحد .. أين حدث هذا في التاريخ؟
لم يعد الجدل نافعاً حتى لو أتيت بكلّ الوقائع لأن ثمة واقعاً آخر أشدّ من الواقع الحالي كثافة هو الوهم، ولو حدثت انتخابات قادمة لتصحيح هذا الواقع سينتصر الوهم ثانية، وتعود آلة الوهم ثانية لعملها المكرور الممل: القتل.
ماذا تفعل الفلسفة في هذا الوضع؟
كيف تضفي المعنى على واقع غائب؟
كيف تزيل وهماً يعيشه الجميع؟
نعم إنها مهمة الفلسفة ولكن يالها من مهمة شاقة؟
ولعلّ مهمتها أشدّ شقاء حين نرى هذا الحشد من المثقفين وهم يتبادلون الوهم وسط الاحتفالات الكرنفالية السائرة بلا توقف، كأنها خارج الواقع والتاريخ.
هل رأيت مرحلة يكرم فيها الجميع كمثل هذه المرحلة الغارقة في وحولها.... وكيف يُكرّم الجميع وسط فضيحة هي الهزيمة، ومآتم تمتدّ طولاً وعرضاً في هذه البلاد الباكية ابداً.
يقول ميرلو بونتي بصدد سقراط: "كان يوجد مبررات للخضوع للقوانين" فما بالك بأناس ليسوا هم بسقراط. ألن يجدوا مبررات أكثر بمئات المرات للخضوع لهذه

القوانين؟ وهم الخاضعون أصلاً لما ليس هو بمبدأ أو قانون. إنهم بكلّ تأكيد سيجدون المبررات للخضوع ثانية وثالثة، لأن ثمة أوهاما تدعمها مصالح ومصالح تدعمها أوهام. وهذه المرحلة قد تطول ولكنها بكلّ تاكيد أيضاً لن تقصر، وفي عبارتي هذه كثير من التفاؤل ولعل ما يؤكد شكي في هذا الكثير هو أن أحداث الواقع لاترى على ضخامتها ونحن نشهد هذه الجموع وهي تتخذ التدين منهجاً بديلاً للدين رغم كل هذا الرعب الذي يحيط بها ويجعلها في فزع دائم.

ويبقى السؤال: هل يمكن أن تنخرط الفلسفة في هذه المهمة بدون الدخول في الصراع؟ وحين تدخل الصراع ما مدى علاقتها بالنظام القائم والمؤسسات الاجتماعية المعنية بالصراع؟

نعم، يمكن أن يكون هذا السؤال أقلّ إلحاحاً في المجتمعات المتقدمة، أما في مجتمعاتنا العربية المسكونة بهاجس الطائفية والقومية والدين نرى أن تحقيق ذلك يبدو ليس بذلك الأمر السهل.

*** من المعروف ان الفيلسوف مارتن هيدغر اشتغل فلسفياً على شعر (هلدرلين)، وان لم يخلُ ذلك الاشتغال من شوائب أيديولوجية قومانية، واشتغل جان بول سارتر على (شارل بودلير)، برغم نقده اللاحق لذلك الاشتغال، واشتغل الفيلسوف الفرنسي ألان باديو على شعر (مالارميه)... الخ. وعليه إلاّم تعزي غياب النقد، والتنظير، الفلسفي للمنجزات الشعرية، في البلدان العربية. وأسمح لي ان أعيد السؤال على نحو مشاكس: هل ان منجزات الشعراء العرب لا تمتلك جدارة القراءات الفلسفية، أم ان المعنيين بالفلسفة، في تلك البلدان، لا يمتلكون جدارة تقويم تلك المنجزات فلسفياً؟**

– في دراسة هيدجر لهولدرلن يدين هيدجر الحضارة الأوربية، ويمجّد الشرقيّ ممثلاً باليونان في شعر هولدرلن باعتباره البدء العظيم لكرنفال السماء والأرض والبشر والآلهة، ويحيل إلى مرجعيات فلسفية أوربية، فحين ترد لفظتا (العلم والحنان) في شعر هولدرلن يحيلهما إلى أصولهما لدى فختة وهيجل.

كانت الآلهة لدى هيدجر بحاجة إلى قول الشاعر لتظهر، ولكن حين تختفي الآلهة ماذا يفعل الشاعر؟ في عصر خلا من الآلهة وحلت فيه الشياطين التي لم تكتف بطرد الآلهة، وإنما هي تبتغي أن تطرد الشعراء ايضاً؟ وحين لا يمتد كلام الشعراء إلى زمن مقبل أيمكن التغني كما تغنى هولدرلن: "مديد هو الزمن"؟.

ما يقوله هيدجر عن هولدرلن هو درب من دروب كبيرة في طريقها إلى الشعر، وقد يكون درب هيدجر مؤدياً إلى متاهة. فهو ينطلق من مثالية مرجعها مثالية أيضاً: فختة وهيغل ويرى أن الشعر "ليس واقعاً" إنه لعب وليس رصانة فعل ثم يقول النقيض.

أما جان بول سارتر فقد انطلق من ثنائية الوجود والكينونة اللذين تأرجحت حياة بودلير بينهما منتقلاً إلى أدقّ التفاصيل الحياتية في حياة بودلير في مختلف مراحلها، أي أنه لم يبق في حدود الميتافيزيقيا، أو في حدود التفاصيل الصغيرة، بل مزج بينهما مزجاً بارعاً وكأنه يمزج الأدب بالفلسفة، ترفده في ذلك خلفيته الفلسفية من جهة، وتجربته الشبيهة بتجربة بودلير في طفولته، وفي بعض التفاصيل التي يذكرها سارتر مواربة وكأنه يتحدّث عن نفسه لما بين الاثنين من قواسم مشتركة، وهو بذلك قد يكون شبيهاً بهيغل في منطقه الذي

يبدأ بالتجريد لينتهي بأشدّ المحسوسات حضوراً.
ويبدو السؤال حصيفاً في الإشارة إلى آلان باديو الذي قاده التفكير في عالم الغياب في شعر مالارميه إلى التحديق في ظاهرة الغياب في تجارب الشعراء الآخرين ليجعل حضوره لدى القارئ محسوساً.وهذا ما فعله حين قام بدراسة الغياب في معلقة لبيد العامري مقارناً إياها بقصيدة مالارميه: ضربة نرد.
هل تعتقد أنّ هناك في وسطنا من يذكّر بهؤلاء؟
ثمة أسباب عديدة بلا شك تحول دون ذلك من بينها التخلف الشامل في كلّ شيء، والجهد الأكاديمي الضحل في تطبيقاته وأحاسيسه، إذ لا تعدو عملية النقد لديه أكثر من عملية وظيفية حسب، بالإضافة إلى عدم استقلالية الناقد، وتخلف مناهجنا، والشللية، والأنظمة الفاسدة حكومةً ومؤسسات.. إلخ.
لم يتحولَ النص النقدي لدينا إلى نص إبداعيّ وبقي نصاً وظيفياً مدرسياً صحفياً فاقداً الأهمية والإقناع.

*** هل هناك من قرأ منجزك الشعري فلسفياً، أو بحث عن المضمومات الفلسفية في ذلك المنجز؟**

ـ نعم، أستطيع أن اقول أن هذه القراءة تحققت في ما كتبه "كاتب عصرنا" المفكر الكبير جون بيرجر التي احتفت الأوساط العالمية ببلوغه التسعين هذا العام فهو تناول قصيدة صغيرة قد لا تلفت أنظار الكثير من نقادنا ليجد فيها أبعاداً أخرى خافية على الكثيرين:
المقطع هو:

سأمسكُ في يدي حجرين
من ماضٍ ومن مستقبلٍ ناءٍ
وأركضُ..
حين يلمسني الهواءُ أطيرُ
أدعو الريح أن تأتي إليّ
فلا أرى أثرا
سأجلسُ كاليتيم على الطريق
وأندبُ الحجرا

يستهل جون بيرجر مقاله بالقول: "منذ فترة قصيرة شرعت بقراءة الشاعر العراقيّ عبد الكريم كاصد وأعدت قراءته مرات عديدة فوجدت في صوته عمقاً مؤثراً وارتباطاً وثيقاً بما يجري في عالمنا حالياً.
صوته والقصص التي يستدعيها وطريقة طرحه الأسئلة جعلتني أفكر في تجربة العيش في صحراء. ثمة مواضع في الصحراء يبدو فيها الفضاء بين الرمل والسماء لا نهائياً ومواضع أخرى تبدو وكأن لا فضاء هناك، وكأنّ الأرض والسماء امتزجتا.
إن سار أحدنا في هذه المواضع فإنّ لمسة الهواء على أجسادنا المنتصبة هي ذاتها في كلا الحالين.
وما لمسة كلمات كاصد على مخيلتنا إلاّ كلمسة الهواء.
قصيدة إثر قصيدة يصف الشاعر وحدتنا وعجزنا لكنّ القارئ في كلّ قصيدة يؤخذ بحضور الماضي والمستقبل معاً.
ثم ينهيه بالقول:
لقد هُمش، إنْ لم نقل استأصل، أيُّ إحساس بتاريخ يربط ماضياً بما يأتي، فالناس يعانون من الشعور بالعزلة المستجدّة تاريخياً. يشير الفرنسيون إلى أولئك الذين يعيشون في الشارع بلفظة SDF – sans domicile fixe أي بلا سكن دائم. ونحن تحت وطأة هذا الإحساس قد نكون يوماً مشردي التاريخ

بلا سكن دائم. وقد لا تتوفر لنا أيّ فرص معترفٍ بها لاستقبال الموتى ومن لَم يولدواً بعد. مع ذلك فإن ما يحيط بنا في حياتنا اليومية هو الفراغ.. الفراغ الذي يعيش فيه الملايين منا الآن في عزلة مطبقة بمقدورها أن تحيل الموت رفيقاً لنا.

إنّ كاصد، كما الموروث الذي ينتمي إليه بصفته شاعراً، لا ينتابه الحنين إلى ماض، مثلما هو لا يعاني من شأن المستقبل باعتبارًه يوتوبيا، لأن كاصد يصطحب التاريخ كما لو كان مكان لقاء وليس للتدليل على حجةٍ ما.

إنه يصطحبه من أجل الرفقة حسب.

مقهىً بعيد
أستعيدهُ شجرةً
سقفُها ورقٌ وغصون
وكراسيّها خشبٌ
والذين يؤمّونها
يُؤثرون الجلوسَ خفيفينَ
فوق الغصون

من النادر أن تعثر على ناقد عربيّ يتناول قصيدة تبدو فنّاً ذاتياً خالصاً لينطلق منها إلى ما هو في صميم العصر من ظواهر شتّى: فلسفية واجتماعية واقتصادية كالتي تناولها هذا المفكر الكبير، ولا سيما هذا الجدل القائم بين الحاضر والماضي والمستقبل، بين هذا الفضاء اللانهائيّ ونقيضه، دون أن يفقد الشعر لمسة الهواء: "حين يلمسني الهواء.." ، ثم يكتشف التاريخ، في جرأة نادرة، مكانَ لقاء من خلال نص عن المقهى هو في غاية المفارقة للواقع كما يبدو في ظاهره. إنه ليس نصاً تحليلياً وإنما هو نص مبدع باعث على التفكير أيضا، ومثير للقلق حقاً على مستقبل الإنسانية التي تعيش الآن أسوأ لحظاتها فالعزلة لم تعد عزلة كما السابق وقد أحالت الموت رفيقا لنا يصطحبنا في الحياة. كل هذا نتيجة طبيعية لما هو أعم من ذلك: "فالنواب البرلمانيون أضحوا بلا حول. كلّ ما يستطيعون فعله هو الكلام. وكذلك وسائل الإعلام بلغتها الفارغة البلهاء، فتعابير مثل "أوربا" و"التضامن الأمميّ" و "الاستقلال" أصبحت باليةً فاقدة المعنى، كما إنّ تكاثر الألفاظ المختصرة (كلفظة NATO)، في هذا الاختزال الشامل، يعكس الاتجاه ذاته حيال الابتعاد عن الجوهر. ما يسيّر العالم الآن هو الكسب العاجل المقبل: الصفقة التالية، وقروض التمويل، ومشتريات المستهلكين اللاحقة".

إنها دوغما الليبرالية الجديدة التي جعلت السياسات الكلاسيكية بلا معنى، ابتداءً من تسعينيات القرن الماضي: "حين غدت الوكالات واللوبيات والمنظمات المتعددة الجنسية للرأسمالية المالية القائمة على المضاربة هي صاحبة القرار الأعلى المعنيّ بتطور كوكب الأرض". أي عند حلول العولمة. كما يشير بيرجر أيضاً في مقالته هذه.

في تحليله هذا يتبدى جون بيرجر امتداداً للتراث الأوربي الإنساني الذي تمّ تناوله في حوارنا هذا.

لمحة من حياة الشاعر عبد الكريم كاصد

• ولد في البصرة سنة ١٩٤٦.
• حصل على ليسانس في الفلسفة من جامعة دمشق سنة ١٩٦٧، وعلى الماجستير في الترجمة من جامعة ويستمنستر – لندن سنة ١٩٩٣، وبكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة نورث لندن سنة ١٩٩٥.
• عمل مدرساً لعلم النفس واللغة العربية في العراق والجزائر، وفي سنة ١٩٧٨ غادر العراق إلى الكويت هارباً عبر الصحراء على جمل، ثمّ إلى عدن حيث عمل محرّراً في مجلة الثقّافة اليمنية، وفي نهاية ١٩٨٠ رحل إلى سوريةٍ ثمّ إلى لندن أواخر ١٩٩٠ حيث يقيم حالياً، مع طفليه زياد وسارة بعد رحيل زوجته حذام سنة ٢٠٠٢.
• تُرجم شعره إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية في أول أنطلوجيا للشعر العربي أعدّتها الدكتورة سلمى خضراء الجيوسي، كما أدرج اسمه وأعماله الأدبية في (معجم الكتاب المعاصرين) و(معجم البابطين)، و(أنطولوجيا الأدب العربي المهجريّ المعاصر) للدكتور لطفي حدّاد.
• أقيم باسمه مهرجان المربد لسنة ٢٠٠٦.

إصدارات الشاعر
مجموعات شعرية

١– الحقائب، الطبعة الأولى ١٩٧٥ دار العودة – بيروت.
الطبعة الثانية ١٩٧٦ دار الأديب – بغداد.
الطبعة الثالثة ٢٠١١ دار تموز – دمشق.
٢– النقر على أبواب الطفولة، الطبعة الأولى ١٩٧٨ مطبعة شفيق – بغداد.
٣– الشاهدة، الطبعة الأولى ١٩٨١ دار الفارابي – بيروت.
٤– وردة البيكاجي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ دار العلم – دمشق.
٥– نزهة الآلام، الطبعة الأولى ١٩٩١ دار صحارى – دمشق.
٦– سراباد، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ دار الكنوز الأدبية – بيروت.
٧– دقّات لا يبلغها الضوء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، دار الكنوز الأدبية – بيروت.
٨– قفا نبك، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، دار الأهالي – دمشق. الطبعة الثانية ٢٠٠٣، دار الأهالي – دمشق.
٩– زهيريّات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، دار الكندي – الأردن.
١٠– ولائم الحداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، دار النهضة العربية – بيروت.
١١– الديوان المغربيّ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، دار الحرف – المغرب.
١٢– الفصول ليست أربعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين– البصرة. الطبعة الثانية، ٢٠١٣، دار الفراشة – الكويت.
١٣– هجاء الحجر، الطبعة الأولى، ٢٠١١، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة
١٤– حذام، الطبعة الأولى،٢٠١١، دار تموز – دمشق.
١٥– ديوان الأخطاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة – القاهرة.

مختارات شعرية

١٦– نوافذ (مختارات شعرية)، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، دار المأمون الثقافية – بغداد.
مجموعات قصصية ومسرحية:
١٧– المجانين لا يتعبون، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، دار الكندي – الأردن.
١٨– حكاية جندي، مسرحية عُرضت على مسرح (أولد فك) بلندن في مطلع سنة ٢٠٠٦.

نصوص

١٩- جنة أبي العلاء (نص سرديّ)، ٢٠١١، دار التكوين – دمشق.
٢٠- أحوال ومقامات، ٢٠١١ دار فضاءات – الأردن.
أدب رحلات
٢١- باتجاه الجنوب شمالاً، ٢٠١١، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.

دراسات

٢٢- غبار الترجمة، ٢٠١١، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.
ترجمات شعرية عن الفرنسية
٢٣- كلمات لجاك بريفير١٩٨١، دار ابن رشد – بيروت.
٢٤- أناباز لسان جون بيرس١٩٨٧، دار الأهالي – دمشق.
٢٥- قصاصات ليانيس ريتسوس ١٩٨٧، دار بابل – دمشق.
٢٦- عن الملائكة لرفائيل ألبرتي، ٢٠١١، دار التكوين – دمشق.

ترجمات عن الإنجليزية

٢٧- نكهة الجبل، ٢٠٠٥ دائرة الثقافة والإعلام – الشارقة.
٢٨- ربة الشعر هي الكومبيوتر،٢٠١١، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.
٢٩- أفكار موجزة عن الخرائط، ٢٠١١، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.
٣٠- البحث عن صورة هيجل، ٢٠١١، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.
٣١- هربرت زبغنييف (مختارات شعرية)، ٢٠١٤، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.

حوار

٣٢- الشاعر خارج النص: كتاب صدر سنة ٢٠٠٧ عن المطبعة السريعة في المغرب. وهو حوار طويل أجراه معه الشاعر والمترجم المغربي عبد القادر الجموسي.
٣٣- عبد الكريم كاصد من الحقائب إلى رقعة شطرنج، حوارات أعدّها الشاعر عبد الباقي فرج، ٢٠١١، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق.
٣٤- أيهما الوطن؟ أيهما المنفى؟ (حوار طويل أجراه معه الشاعر معتز رشدي)، ٢١١٣، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق.

تحقيق

٣٥- الأجنبيّ الجميل للشاعر مصطفى عبد الله،٢٠٠٤، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد.

كتب في بعض المجلات:

٣٦- صورة مراكش، "نص نثريّ نشر في مجلة (أدب ونقد) المصرية ٢٠١٣".
٣٧- من برديات مصر، "مجموعة نُشرت في مجلة (أدب ونقد) المصرية ٢٠١٣".

كتب في لغات أخرى:

٣٨- مقاه، مختارات شعرية باللغة الإنجليزية، ٢٠١٢.
٣٩- مقاهٍ لم يرها أحدٌ، باللغة الفرنسية، ٢٠١٣.

أدب
و
فن

الملف الثقافي وصناعة السلطة

علي حسن الفواز

ذاكرة الثقافة العراقية تحمل معها الكثير من الشجون، والكثير من الأسئلة والفواجع، إذ ظلت هذه الثقافة قرينة بالأزمة، والطوارئ، وربما بالصراعات التي طالما تورطت فيها السلطة، وهو ما انعكس على صورة المثقف، وعلى طبيعة السلطة التي ظلت حاملة لذاكرة الرعب، أو لذاكرة الشر كما تقول حنا أرندت، والتي سعت الى فرض رهابها الثقافي، والى أنموذج عصابها المركزي الذي ينظر للمشروع الثقافي وكأنه جزء من صناعات السلطة، ومن مشاغلها واهتمامها وإشاعاتها.

هذا المعطى يضعنا أمام رعب الحديث عن الثقافة المستقلة، وعن مدنية المؤسسة الثقافية وحريتها، إذ بات الأمر ملتبسا وسط حروب ومهيمنات طاردة، ومواقف إقصائية، ووسط أوهام مركزية لا تؤمن بوجود المختلف والآخر، ولا تطمئن لأي شكل من الصناعات المضادة للمُقدّس البدائي الذي تعوّد على ممارسة طقوسه وأحكامه العقل السلطوي والعقل المركزي.. فهل يمكن القول إن الاعتراف بوجود صناعة ثقافية سيكون بداية الاعتراف بأهمية الملف الثقافي في الأجندة السياسية؟ وهل سيكون لوجود هذه الصناعة ضرورات تخص الحريات والأمزجة والخصوصيات، مثلما تفترض وجود التكنوقراط الثقافي المؤسسي؟ هذه الأسئلة وغيرها تبدو مهمة مع بداية الزمن السياسي العربي، مثلما تبدو ضرورية لإمكانية وضع الملف الثقافي على طاولة الكابينة الحكومية، وإمكانية إخراجها من التعويم، ومن الشرعة الطائفية، لان العرب يتشابهون بعد كل محنة، لكنهم يفترقون حينما تتسع جيوبهم للأعطيات و(المكرمات) فيبدؤون لعبة البيع والبيع المضاد.

فهل يمكن للمثقف ان يعيد ترتيب أوراقه وأفكاره في ضوء هذه الطموحات؟ وهل يمكن ان نفكر بجدية حول إمكانية إنتاج بنيات ثقافية قابلة لمواجهة عوامل التعرية السياسية والدينية والتاريخية، وهل يمكن التفكير جديا بشرعنة وجود بنيات تحتية للصناعة الثقافية كما يسميها الاقتصاديون، تلك التي تملك استشرافا لرسم خارطة طريق للتنمية الثقافية، باتجاه وجودها ضمن مستويات متقدمة من التنميات الوطنية، لصيانة المشروع الثقافي، ولتعزيز دور الثقافة والمثقف، والتي يمكنها أيضا الاسهام في تأمين رأسمال ثقافي وقاعدة تقوم على أساس تراكم المنتجات الثقافية على مستوى

السوق، وعلى مستوى وجود رأي عام يدافع عنها، ووجود قوانين تحميها، وتحمي (حصون) العقل الثقافي من أي إنقلاب عسكري أو سياسي أو أيديولوجي قد يرميه إلى النهر أو إلى المزبلة؟

هذه الأسئلة المستفزة والمثيرة والمفارقة، قد تكون أمام الجميع، لكن الحديث قد يرتبط بالحديث عن (أي جميع!)، وبعيدا عن تحولها إلى فوبيا ضاغطة، وإلى إيهامات بخطورة ما يجري، وما يمكن أن تصنعه الانقلابات على اطمئنان العقل الثقافي، رغم أنّ تاريخنا الثقافي (القومي) للأسف حافل بالانقلابيين أكثر من صنايعية الوعي، وعامر بالإستبداديين أكثر من مروجي الحريات.

ما ورثناه منذ عقود من العسكرة الفاشية وحتى نزعات المزاج، ومن الصناعات الثقيلة للحروب القومية وشعاراتها الفاقعة، وصولا إلى وكالات الفقه الأسود، والانتحاريين والتكفيريين وضعنا أمام رعب خطير لفوبيا الثقافة بوصفها صناعة للوعي المضاد، او بوصفها صناعة جمالية مريبة ومخالفة للشرع، والتي لا تفارق تهمتها القديمة باليسار واللبرلة الشغوفة دائما برفض الهيمنة والظلم والمركزة.

كراهية الثقافة تحولت للأسف الى سلوك عنفي من قبل الكثير من الحكام والمسؤولين الأيديولوجيين والعسكر والفقهاء، حدّ أن البعض يبدو كأنه يعيد صورة غوبلز النازي في التعاطي مع صورة المثقف والثقافة، وهذه الكراهية عطلت الكثير من برامج العمران الثقافي، اذ ان الذين يكرهون الثقافة والمثقفين، يتحسسون من أية عمل لشرعنة أي معطى عقلاني او تأسيسي للصناعة الثقافية، تلك التي قد تسهم في انماء العقل، وفي تحسين شروطه في التعاطي مع قيم الحرية والمواطنة والجمال والفكر والدولة والحداثة..

قطار الأدباء من البصرة الى أمّ الربيعين

كلمة الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق الشاعر إبراهيم الخياط التي ألقاها مساء السبت 4 شباط 2017 في الحفل الختامي لمهرجان المربد الثالث عشر على قاعة فندق الشيراتون بالبصرة:

أساتذتي الأفاضل

زميلاتي العزيزات

زملائي الأعزاء

أيها الضيوف الأحبة الأكارم

يا أهلنا في البصرة يا خير أهل وأنعم..

السلام عليكم..باسم أدباء العراق وكتّابه أبارك لاتحاد أدباء البصرة رئيسا وهيئةً ادارية وأعضاء مبدعين عضويين فاعلين على سخيّ ما بذلوه جهدا ووقتا وأعصاباً لعقد المربد الثالث عشر، وقد آلينا على أنفسنا أن نكون معهم عاملَ نجاح لهذا المهرجان الوطني، فكنّا وكانَ.

بالأمس كنّا في نعمانية المتنبي، واليوم نقطفُ نجاح مربد البصريين وعكاظهم، وغداً نغنّي لجمال الدين مشتبكاته في سوق الشيوخ والشمائل، كما سنذهبُ كرّة ثانية للموصل البيضاء ولفندقها الفخم الحميم الذي إرتفعَ عليه، قبل أيام قلائل، علمُ العراق الحبيب..

فتحية لأبناء قواتنا المسلحة البطلة كافة من الجيش والشرطة والحشد الشعبي والبيشمركة وكلّ المتطوعين الباذلين المُهجَ دون مهجة العراق وبهجته، وما كرنفالنا اليوم الّا رسالة مفادها أنّ الإرهابيين سننتصر عليهم في ميادين القتال فيما

سننتصر على الإرهاب كونه فكرا أسود، سننتصر عليه وعلى التطرّف والظلام في ميادين الفكر والفن والأدب،.. هم يشيعون الموت والذبح والكراهية والحقد والطائفية، ونحن نحاربهم بإشاعة الحياة والحبّ والمحبة والشعر والإنسانية..
وستنتصرُ مدرسة الحياة..
وما عقدُ مربدنا هذا ونجاحُ فعالياته الاّ خطوة واسعة في انتصار مدرسة الحياة...
يا جمع الأدب والإبداع..
بإسمكم نطالبُ (لجنة الثقافة البرلمانية) أنّ تدرج مهرجان المربد مهرجانا وطنيا وأن تُخصصَ له مبلغا سنويا في مفردات الموازنة العامة للدولة في فقرة منفصلة بيّنة واضحة، وأن لا تتركه تحت رحمة وزارة الثقافة التي درجته منذ سنين في سجل شعبة المهرجانات ضمن إحدى مديرياتها وتصرف له أقلّ مما تصرفه على فعاليات أية منظمة مجتمع مدني وهمية.
ونقول للجنة الثقافة البرلمانية، أنّ هذا المهرجان هو أهمّ وأنفع وأجدى وأكرمُ من منظمات مهنية يُخصصُ لها برلمانكم الموقرُ مليارات – وليس ملايين – مليارات من الدنانيرِ في كلّ سنة.
أيها الحضور الكريم..
إننا اليوم في بصرتنا الأثيرة، في مربد الشعر والحضارة، وغداً سنكون في الموصل الحدباء المحررة.. في مهرجان أبي تمام بدورته الجديدة.. سنكون ربيعا ثالثا لأمّ الربيعين، وننتظر وإيّاكم دعم مجلس الوزراء ووزارة الثقافة ولجنة الثقافة البرلمانية وقيادة العمليات المشتركة، أما نحن فلن نتمنى فحسب بل نعملُ من أجل أن تتلألأ أضواءُ مهرجان أبي تمام في قابل الأيام....
أيها الأحبةُ الأحبة..
الطائفيون يقتلون بعضهم البعض
النفعيون يقتلون بعضهم البعض
اللصوصُ يقتلون بعضهم البعض
الساسةُ التجارُ يقتلون بعضهم البعض
الشعراءُ يقتلون الظلام
الشعراءُ عليهمُ السلامُ
وعليكمُ السلامُ....

عمر السراي .. إعادة بناء الملاحم في الضفاف العتيقة

عبد العزيز لازم

كاتب وإعلامي، بكالوريوس في اللغة لانكليزية كلية الاداب جامعة بغداد، عضو اتحاد الادباء والكتاب في العراق، عضو جمعية المترجمين العراقيين، ترجم كتاب الأمن المفقود لصالح جريدة البينة البغدادية،عضو النقابة الوطنية للصحفيين العراقيين، اصدر كتاب " أدب الحكمة والنصيحة في العراق القديم ، ترجمة حياة".
نشر له العديد من المقالات النقدية حول السرد والشعر والمواد المترجمة في الصحف العراقية وبعض الصحف العربية، اشتغل محرراً في القسم الثقافي لجريدة "طريق الشعب"، اشتغل على نقد ادب الشباب من خلال تحرير صفحة اصوات في "طريق الشعب" ويكتب مادة نقدية اسبوعية في زاوية "عين صغيرة" في الجريدة ذاتها.
مارس التدريس في العراق والبلاد العربية، اضطر الى تأجيل مشروعه الثقافي بسبب القمع الذي مارسه النظام المباد ضده.

نشأ هذا التوصيف للشاعر في مجرى القراءة الاولى لقصائد "من الأعمال الشعرية الى 2016 ". وحَمَلنا العنوان الذي يحمله الغلاف الامامي "وجه الى السماء، نافذة الى الأرض" في تحليق مدهش عالي الإنفلات نحو اتجاهات لا حصر لها. لم نعثر في "الأعمال" على قصيدة تحمل هذا العنوان، لكننا واجهنا فيه احتدام الشعر وامتلاء ثناياه بالمعنى الأعلى. إنه قصيدة مفتوحة فاغرة الوجه فارهة السجايا ترعرعت في كنَف الحفر في الذاكرة لاستحضار وقائع القول القصي والداني.

إن الشاعر يدفع بشرايينه المثابرة لابتلاع ما تقدمه الملاحم الشعبية العفوية على مر العصور مستثمرا عناصر الدهشة المختزنة في اللغة التي بين يديه. وفي ظننا قد يمثل الوجه المرفوع نحو السماء وجه الملك السومري العليل "اتينا" كما تصوره الأسطورة العتيقة. اما عين النسر الذي ارتقى الملك صهوته حسب صفقة عقدت بين الطرفين فهي "النافذة" التي تتفحص الأرض وتصفها اثناء عملية التحليق كما طلب الملك.

فيحتفظ بعينيه موجهتين نحو الأرض. إنه يريد أن يصل الى الذي (رأى كل شيء) ليشكو له فجيعته المتمثلة في عدم القدرة على الإنجاب (استمرار الخليقة) فبعد أن استطاع معالجة جناح النسر الجريح (سطوة المعرفة التي يمتلكها الملك) مقابل رفعه الى السماء، صار النسر مثابرا على فتح (نافذته) صوب تضاريس الأرض ليصفها للملك اتينا بناء على طلبه. كان المؤرخ الالماني دينيكين قد وصف عين اتينا بأنها تشبه الكاميرا المثبتة في المركبات الفضائية الحديثة في دقتها في التصوير. الطريف ان دينيكين اعتقد ان أولئك العراقيين كانوا قد هبطوا من السماء فلا يعقل ان يكونوا بشرا وهم يطلقون مثل تلك المعجزات ! إذ كيف يستطيع إنسان على

الأرض ان يصف تضاريسها من مكان يقع في عمق الفضاء وهو لم يرتق الى هناك؟!
يدون الشاعر في الغلافَ الخلفي لـ "من الأعمال" بخط قرآني مهيب قديم جزءا رئيسا من قصيدة "هو" الواردة في "الأعمال" مع تغيير مقصود في الأشطر والنقاط التكميلية فيها:

أنوه بأن هذا الماثل أمامكم ..
منذ ثلاثة آلاف والفين وثلاثة عشرة سنة ..
ليس هو ..
فقد جلدته الملاحم حين رأى كل شيء ..
واشتبكت على جلده كل الأشكال الهندسية ..
حين قرر أن يكون مدورا ..
وكما دحرج صخرته من أعلى أطلس فيه ..
دحرج الطغاة رؤوسهم بعضهم عليه ..
وظل ..(فقط) ..
– وكشمعة من رخام..
ذاب خيطها مسمارا في حائط من ورق .. –
باختصار أكيد ..
ليس (هو).

قصيدة الغلاف الخلفي تشيّد جهودها اللفظية الرمزية باتجاه محسوب، فالذي رأى كل شيء هو العراق نفسه. وقد يكون هو رمزا لوجود آخر أعلى من الوجود المادي. كما ان الكتابة القرآنية تمنح القصيدة الميزة القدسية المطلوبة كي يرتفع الوطن الى مصاف المقدس.

يلجأ الشاعر الى التنويه في مبدأ خطابه "انوه بأن هذا.." وليس التصريح بما لديه، وهي مفردة تفيد التلويح من بعيد وسنجد تفسير ضرورتها في باطن النص. فيقول ان هذا الذي بين أيدينا لم يبق كما هو منذ خمسة آلاف وثلاثة عشرة سنة. وهو تاريخ قد يؤشر الزمن السومري والذي تلاه من أزمنة أسهمت في تكوين بقايا وجه العراق المرهق بعد أن أمعنت الخطوب المتعاقبة في تكسيره وتغيير كينونته ثم جاءت الملاحم والأساطير على رواية تفاصيله وقلبت ما بدا ثابتا رأسا على عقب حتى صار (ليس" هو.."). وبعد أن أصبح بإمكاننا الحديث عن الجانب الرمزي في المتن الشعري على انه العراق صار لدينا الحق في الدخول في تفاصيل ما جرى على مصير البلاد وكينونتها. فمن فرط قدرته على مد مجساته نحو وقائع التاريخ يتوجه الشاعر نحو الميثولوجيا العالمية لإغناء دعواه الحزينة، وعاد الى "التنويه" مرة أخرى حول التفاصيل بتأشير اسطورة سيزيف حامل الصخرة الثقيلة الذي عليه ان يرفعها الى قمة الجبل كي تسقط مرة اخرى ويضطر هو الى رفعها مجددا ثم تعاد لعبة الرفع الى القمة ومن ثم السقوط الى القعر إمعانا في تيئيس الضحية، والمعروف عن هذه الحركة المفروضة داخل الاسطورة إنها تمثل عقوبة مقررة من قبل الآلهة بحق كائن متمرد ضد إرادتها، لكنه استمر في تمرده. وقد تنطبق صفة التمرد على العراق نفسه، فيحتل بدوره مكان بطل الاسطورة الاغريقية سيزيف. ويحاول الشاعر بهذه الاستعارة من الميثولوجيا العالمية أن يثبت ان إشكالية منع العراق من ان يكون عراقا صافيا بسجاياه هي ذات طابع كوني. وكأنه يتحدث عما يجري اليوم في حربه الكونية ضد الارهاب وضد القوى التي تستهدف استنزاف طاقته التاريخية وتشويه هويته لغرض ادامة نبوءة قسرية تقول انه "ليس هو" بعد أن (اشتبكت على جلده كل الأشكال الهندسية..) لكن الشاعر أطلق علينا حزمة ضوء توضح ان الطغاة الذين نشبت اظافرهم في وجه العراق قد فقدوا رؤوسهم على ارضه وبقي هو .. (فقط) اي ظل محافظا على ذلك النوع من البقاء الهش لكن الواضح، (كشمعة من رخام ذاب خيطها مسمارا في حائط من ورق..) وهذه الجملة هي مقتبس من مصدر آخر وهي تشكل نوعا من الرد على الظلم الهائل الموجه لقصم ظهر العراق.

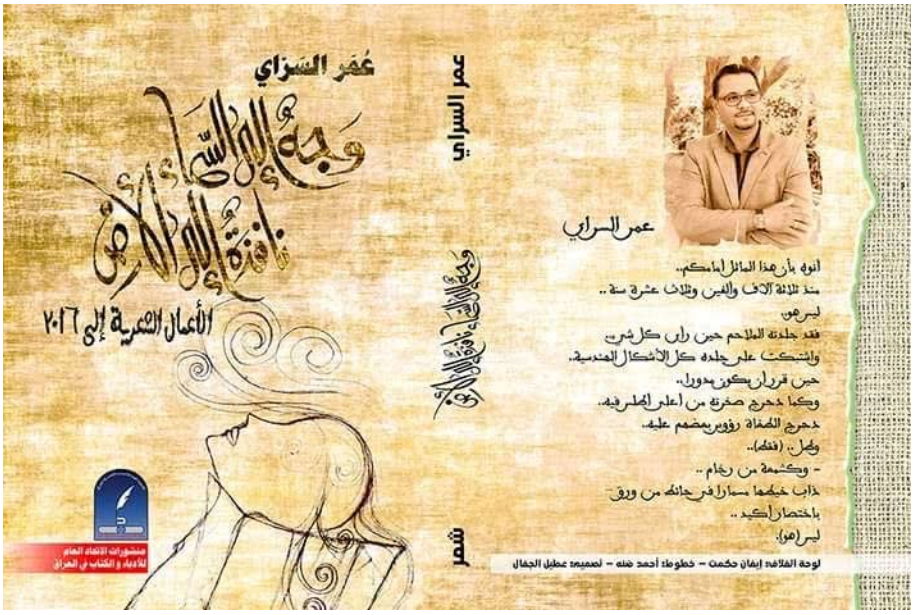

إشكالية الإيقاع

ينغمس الشاعر في اكتشاف الرنين النادر في بنائه اللفظي عبر نافذتين، الأولى الإيقاع الداخلي الذي تختزنه الأشطر، والثانية هي المفردة الشعرية الفخمة بعيدا عن الزخرف المعتاد في فن الشعر، وكأن عمرا يرمي بحجر مسطح على صفحة ماء راكد بقوة تدفع بالحجر الى قفزات متقاربة المساقط أو متباعدة، أو متدرجة في البعد والقوة. وتتكون حول كل مسقط دوائر من المياه تتمدد وتتوسع ثم تلتقي مع بعض محققة اندماجا إيقاعيا قبل ان ترتطم بالضفاف أو تغوص في المياه وتستقر بعد ذلك في طيات الأثير. في الاصل هي لعبة كان اليافعون من أهل المياه في العراق يمارسونها حيث تكثر المسطحات المائية الراكدة والجارية. يتسابقون على إطلاق اكبر عدد من المساقط بقوة الدفع اليدوي للحجر المسطح وبالتالي تكوين المزيد من الدوائر المائية التي تواصل الاندماج وتطلق المزيد من الحان الماء. كان سكان المياه كثيرا ما يمزحون مع الماء بلعبة الحجارة فيرتجلون عناقا ورقصا متواترا يحقق المزيد من المتعة. إنها حركة عشوائية تعتمد على قوة العضلات من جهة وعلى مهارة الإطلاق من جهة أخرى. نحن أمام شاعر شديد الحرص على انتقاء مفرداته وعالي الانتباه في أن يجعل الرش الناتج عالي النشاط لإدامة الرنين المطلوب. إنه يستعمل سلطة "الأرغن" في رمي المقذوفات المخزونة في شغله اللفظي كي يحقق وحدة كونية داخل موجودات النص من جهة وبين الموجودات في الأصقاع الخارجية من جهة أخرى. انه يواصل الاغتراف من منتوجات ازمان الغناء دون توقف فمن تفاصيل عمل الأرغن ان شغله اللحني لا ينقطع تماما حتى وان رفع العازف يده عن المفاتيح. وهذه الميزة هي إحدى وسائل الشاعر في دأبه على إطلاق الطاقة اللحنية القصوى من جسم المفردة الشعرية المرتبط بالشطر الشعري.

وما دمنا تحدثنا عن اسلوب صنع اللحن وفق تخطيط عياني مفترض قائم على زحلقة الحجارة المسطحة على صفحة

الماء، سندرس نشوء كينونة ذلك وفق عمل تطبيقي بسيط على جزء من قصيدة (خرافات نيئة) إن هذا العنوان يفسر استمرار تفعيل الخرافة في تصوير حياة الناس الراهنة. فلدينا روايات خرافية راهنة (نيئة) تستمد سخونتها مما يجري في حياة سكان ما بين النهرين التي لا زالت نشطة في خلق الخرافة الشرعية. يصف الشاعر حركة السكان واوضاعهم مدونا:

ساروا على برعم للموت .. ما تعبوا ..
× مسقط الحجر الاول
وهم سبايا ..
ومهد التيه يحملهم للنائحات ..
وضوء .. ليله عتب .. ×
مسقط ثان

وهم صغار ..
خطى أجفانهم نضجت ..
فعلقتهم على أوتارها السحبُ .. ×
مسقط ثالث
ورغم كل رباب الحياة بهم ..
علمتهم كيف هذا الموت يرتكب .. ×
مسقط رابع
لكنهم اثلجوا أحلام سوسنهم ..
وأطفأوا الموت رغم الجوع يا حطب ..
× مسقط خامس
لأنهم طينة تحت النخيل غفت ..
ستأكل الماء حتى يسقط الرطب .. ×
مسقط سادس

احتوت المساقط الستة جميع الشواغل اللحنية في هذا المقطع او الفقرة الشعرية، رغم إن توازن المساقط نفسه يغطي كامل القصيدة.هنا لا تتوفر لدينا سطوة الباء المضمومة في هذا المقطع في مفردات التفعيلة: تعبوا- عتب- السحب- يرتكب - حطب - الرطب فحسب، بل ظهر في المقطع ومعه ما تبقى من القصيدة نوعان من المفردات، وهما مفردات الظلام: الموت، سبايا، النائحات ربابات، الجوع، ومفردات الضوء: ضوء، نضجت، السحب، أثلجوا، أحلام، سوسنهم، طينة،، النخيل، الماء، الرطب. إن هذه المفردات تتيح بناء الألحان الداخلية التي تنبع وتتولد من الإيقاع الرئيسي المتولد عن مفردة التفعيلة، اي مسقط الحجر المسطح. وهناك الحان فرعية: (وهم السبايا ../ ومهد التيه يحملهم للنائحات ..)، (وهم صغارٌ../خطى أجفانهم نضجت..) وغيرها داخل النص وبهذا يقيم الشاعر الهيكل واللحم والعصب للبنية اللحنية للمقاطع كي تندمج فيما بعد بالمجرى العام للرنين الأرغني.

الجهد الملحمي في "من الأعمال"

من المفيد ان نحدد الاختلاف بين الملحمة والأسطورة. فالملحمة تقليديا هي رواية شعرية مليئة بالحوادث المستمدة من الواقع لكنها معززة بالخيال البشري وابطالها في الغالب بشر بعضهم معروف لدى الشعب من خلال الحكايات التي يتداولها الناس عل مر العصور. أما الاسطورة فهي تستند الى توضيح حقائق مغلقة غالبا ما تتعلق بالدين وعلاقة الانسان به وغالبا ما يكون الشخوص كائنات خرافية وليست بشرية. لقد سادت في (من الاعمال الشعرية) الحركة الملحمية رغم اننا قد نعترض على عنوان (خرافة نيئة) لكن ما يجعلنا نحجم عن اعلان اعتراضنا هو ان التعبير يمكن ان يقع ضمن حالة التهكم الممكن الذي تطلقه اجواء القصيدة وهو ما يتيح تطويع الجهد اللحني الخارجي. حاول الشاعر بنجاح الغور عميقا في دواخل البؤر الملحمية للبنى اللفظية للقصائد لدرجة تحقيق الاندماج الكامل بين الابطال الملحميين والشاعر نفسه وسنزعم بان ذلك يعكس

مهارة حاذقة للشاعر، لأنه يقنع القارىء في كل قصيدة بأن جزءا من دمه وروحه صار غذاءا ساخنا لقصائده. نلمس ذلك في قصيدتي (للحسين .. ودمع العراق) و(ملحمة انكيدو) نقرأ في الأولى:

بكبرٍ أرتّقُ عين الذهول ..
وكلَّ لسانٍ سواي خجول ..
لأني سكبتُ المنايا ..
على كلِّ من لا يرى ضوءَ هذي العقول ..
عليٌّ أبي ..
والحسينُ أخي ..
والنوائب صهري ..
وجدي الرسول ..
وجوع النخيل.. يرضّعني ..
تمرَ دمعاته من حليب البتول ..
وها أنا ذا .. والحسين وحيدان ..

إن ثيمة "الحلول" هي في الأساس مسألة من مسائل الصوفية الأولى (الصوفية مرت بمراحل تحول عديدة) وهي تعني ضمن ما تعني ان المتصوف يحل نفسه محل القوة الروحية الأكبر عندما يبلغ وضعا وجدانيا عالي التحليق. إن الشاعر يمتلك أسبابا عقلية ونفسية لممارسة حالة التصوف فيكتشف أجواءه الخاصة التي تؤهله لعيش الحالة النادرة. يمهد الشاعر بالتعريف بالبطل الملحمي "الحسين" بطريقين، الاول طريق النسب الذي يمارس هو الذوبان فيه والثاني طريق المشكلة (والنوائبُ صهري ..) لنلاحظ إن شطر النوائب قد تم التمهيد له في كيان العنوان الرئيس من خلال الربط بين تراجيديا الحسين و"دمع العراق" اي إن هذا الربط تحول الى محور متأجج يقوم على ثيمة الاندماج بين الحسين والعراق ويواصل رش نيرانه المروعة التي يزداد أجيجها بعد التحول الى مرحلة الاندماج بين الشاعر وشخصية البطل الرئيس فينتهي الى (وها أنذا.. والحسين وحيدان..) ويبدأ بممارسة التعبير عن همومه الخاصة عبر تحويل قضية الحسين الى قضية عراقية تحت وطأة السخونة الجامحة لأحداث العراق (كأن العراقَ حسينُ الزمان ../ وقلبُ الحسين عراقٌ يجول) فضلا عن وقائع الجغرافيا: (ثغر المياه فرات ../ كان صافحها دم الحسين ../ فروّاها ..). في ذلك يحلُّ علينا (اندماج) جديد يجمع ثلاثة بؤر هي الحسين والشاعر والعراق. وتتكون بهذا الإندماج بؤرة تراجيدية مدوية ومتواصلة البث. ومن شخصية الحسين يتفرع اندماج آخر وهو أكبر من الشخوص الثلاثة كلها وأكثرها قدرة على الإشعاع والاحتواء: (كان صافحها دم الحسين ../ ومنه ظمئوا / لأنه كان رأس الله./ فابتعدوا / وقبّلوا كل شيطان ../ له قدمُ). إذن وصل الشاعر الى رأس الله وعشعش في قمة الفكرة الأعلى وراح يطلق خطابا مشتعلا بالتطلبات: (قد انزلوني فارفعني.. أيا علم). إنه استصراخ عالي الصوت للوطنية العراقية رغم اننا لا نستطيع وضع القصائد المطروحة في خانة الهموم السياسية. لان الخطاب الشعري يتكثف حول فن الشعر عبر استلهام الجهد الملحمي والتراث الشعري التاريخي وقد يطوي في داخله شواغل سياسية وطنية بإسكانها في البؤرة الشعرية وفق منطقها الملحمي الخاص.

يمكن تصنيف "خرافة نيئة" على حساب الملاحم، لأن الخرافة تاريخيا قدمت خدماتها دائما لتصوير شواغل الملحمة وهي غالبا ما تكون من إطلاقات الخيال التعليمي المحسوب. وسنلاحظ معالجات مختلفة في قصيدة "ملحمة انكيدو" فقد كمنَ الشاعر في زوايا مختلفة لإعادة تقليب قصص الدهشة التي قلبت الاماكن والمكانة التاريخية للشخوص المعنية حيث إنقلب عنوان ملحمة كلكامش الى ملحمة "انكيدو":

ذنب من أن تكونَ نائباً للقدرِ..

الذي ابصرت الصدفةُ في جلجامش أقصى حذافيرها..؟
أما أنت .. فصرخةٌ دوت في عقل أبٍ أعلى
..
حين كل الكفوف تستغيثُ ..ولا تواجهُ..
وحين تهديك الفلسفة الطفلةُ شعراً ..
من سنابلَ وأسماك ..
لتبقى وحدكَ ..
تجوبُ فيكَ المدنُ المستقبلية ..
.....
فأية معضلة تلكَ التي وضعتك قطرةً أخيرة في قنينة
صاحبة الحانة ..؟!

إذن فنحن أمام مشهد جديد يعيد رسم الادوار التاريخية لشخصيات الملحمة المعروفة باسم ملحمة "كلكامش" وليس ملحمة "انكيدو" كما تقترح "من الاعمال الشعرية" لكن ذلك ليس بدون ثمن فالشاعر ينتصف لانكيدو لأن دوره جاء يحتل الرقم اثنين بعد كلكامش: "ذنبُ من أن تكون نائباً للقدر..". والمعضلة ان كلكامش كان نصف إله وكان ملكا جبارا وهما ميزتان لم يملكهما انكيدو، كما ان معاناة الفقدان التي ألمّت بكلكامش بعد مقتل صديقه "انكيدو" تضيف بريقا عالي القوة الى شخصيته وقد كان "...رئيس مثقوب ظلم ناسه فأحبُّوه ../ وظلمك .. فأحبُّوه ../ وظلمك فأحببتُه ..". من هنا قد تظهر المعادلة بين ما يحمله كلكامش من مؤهلات البطولة الأولى وبين تلك التي يحملها انكيدو في غير صالح الأخير لنيل ذلك الموقع.

فكيف تعامل الشاعر مع المسألة؟ تستطيع شخصية "انكيدو" الانتصاف لنفسها في حمى المنافسة بين أولوية دوري الشخصيتين أو ثانويتهما بالادعاء بان انكيدو لم يكن ظالما كما كان كلكامش وهي نقطة تسجَّل لصالح شخصية انكيدو، وهذه الثيمة هي جزء من هموم العالم والعراق بخاصة. لكن الشاعر يعلم ان الامر محفوف بالمخاطر فعليه ان يحسب حساب الجوانب الفلسفية والتاريخية والدينية والسياسية فضلا عن الشروط التراجيدية الفنية. فماذا فعل لعبور المأزق الصعب؟ "ذ نب من أن تكون نائباً للقدر ../ الذي أبصَرت الصدفةُ في جلجامش أقصى حذافيرها..؟" إذن يكون موقع الدور الثاني لانكيدو من نتاج الصدفة، والصدفة حسب الفكر العلمي تحتوي مضمونا موضوعيا مستقلا عن وعي الإنسان، اي انها ليست دلوا فارغا. إنها تحتضن مخبوءات لم تعد قادرة على البقاء خلف استار العتمة فتنطلق بشكل محمولات قد تغير العنوانات السابقة في تيار الاحداث العامة. وهكذا كُتبَ في داخلها على انكيدو ان يكون الرقم إثنين بعد كلكامش كما يذهب الشاعر. فوضع ضمن شواغله تغيير المعادلة لصالح الضحية. وقد ارتبط هذا الواقع مع شكوك في نوايا "الفلسفة الطفلة" وهي "تهديك..... شعرا/ ..... لتبقى وحدك ../ تجوبُ فيك المدنُ المستقبليةُ..". فعلم الفلسفة يختلف عن الشعر لأنه يحقق ذاته وفق خطوات معلومة وخاضعة للجدل وغير مفاجئة وهو يُخضع كل شيء للتفسير. لكن الفلسفة كانت في بداية نهوضها في عصر نشوء شخصية انكيدو خاصة عندما كانت الرواية الملحمية شفاهية يتداولها الناس ويضيفون تفاصيل متجددة عن أحداث متوالدة. فكان الشعر، وليس الفكر هو صاحب السطوة الأولى في اطلاق الحكايات الملحمية مع إن الفكر يحتفظ بدوره كظهير ثابت يعزز صور المعاني العليا في التضاريس العامة وكذا التفصيلية للملحمة. لكن الشعر كما يقترح النص الشعري في "من الأعمال" هو الذي منح انكيدو الخلود المعنوي الخالد كما منحت تبدلات كلكامش التراجيدية خطوط شخصيته المميزة. لايكتفي عمر

السراي بفحص مظلومية انكيدو بل يعود الى ممارسة نوع من"الحلول" غير المباشر فيحاول الاقتراب من الكيان الوجداني للشخصية وهو يختلف عن ذلك النوع من الحلول الذي مارسه في قصيدة "للحسين .. ودمع العراق"، فلجأ الى مخاطبة الشخصية الملحمية باسم الصداقة محاولا تفعيل المفهوم الفلسفي ومن ثم الوجداني لعلاقة الصداقة بعد سرد مغامرة انكيدو مع غانية الحانة التي ارسلت له لغرض ترويضه وانتشاله من عالم الوحشية ومن معاشرة الحيوانات:

ورائحةُ حوَّاء ..
دخانٌ يطردُ عنك صغارَ الفهود ..
التي نعمت بالسباق معك ..
صديقي .. أنت ..
لا صديقهم ..
فقد تآمروا عليكَ يوم اختاروك سوطاً ..
لترويض نارهم ..

يحدد الشاعر هوية الصراع بعد أن يفرز قواه الى معسكرين، يحدد من خلالهما سمات الضحية بالارتياط بالقوى التي الحقت الحيف بها "... أب اعلى .." وهي اشارة الى الآلهة وكلكامش الذي هو نصف إله وملك مستبد وفتاة الحانة التي ارسلت لترويض الضحية "انكيدو". استخدم "الاب الأعلى" اداة اخرى لترويض الضحية وهي الثور السماوي الذي كان ارسل في الأصل بناء على مناشدة من قبل "إنانا" التي يطلق عليها ايضا اسم "عشتا" لأبيها كبير الآلهة للإنتقام من كلكامش بسبب رفضه الإقتران بها. يحاول الشاعر رسم البيئة الوجدانية اللازمة لثيمة الصداقة التي توصل اليها هو عبر التعبير عن إنحيازه لدرجة احتكار الصداقة مع البطل المخاطَب باعتباره صديقه وليس صديق من ألحقَ الظلم به. يعود لتوصيف انحيازه الى البطل في مجال العلاقة الخاصة به فيقول في مكان آخر من القصيدة:

فيا صديقي ..
ولست صديقهم ..
هل كنت تعلم أن كرةً من رأسك سيدحرجونها
في وديان من ضباب..؟!
وإنك .. سترضى ..
– رغم أنك أفضل – ..
أن تكون ثانياً..
ثانياً من عزمك أمامه ..

حرف "فاء" تفيد الأستئناف، اي ان الشاعر كان عرض دعواه في قضية الغبن الذي لحق بالبطل "انكيدو" محددا القوى التي قررت ونفذت الغبن، لذلك يحمل حرف "الفاء" وظيفة أخرى هي احتضان الأسباب التي حكمت مواضيع العرض السابق وهي ما يدعوها علماء اللغة بفاء السببية. ثم يضعنا الشاعر في حالة من الالتباس حول "كرةً من رأسك" قد تجعل المتلقي يتساءل عن وجود عدد من الكرات في رأس "انكيدو" والحال ان الرأس بأكمله قد تم دحرجته بأداة الثور السماوي الذي ارسله "الأب الأعلى.." ولدينا تجارب مع بعض الشعراء العالميين في المقدمة منهم وليم شكسبير في طرح ما يمكن تسميته بالطلاسم. يلعب "الطلسم" هنا آلية فنية لخلق الدهشة لحين العثور على اجابة او إجابات ممكنة للأسئلة المتولدة عنه. ولا نستطيع ايضا تجاهل ذلك الجناس الجميل الظاهر في المقتبس الأخير: "أن تكون ثانياً ../ ثانياً من عزمك.." فيكون الشاعر قد اكتشف علاقة في المعنى العام بين (ثانياً) الاولى والثانية رغم الاختلاف في المعنى التقليدي بينهما.

يؤكد الشاعر قدرته على التواصل مع اسرار اللغة وتوظيفها لخدمة الشواغل الفنية الجمالية. فهو يعمل بسهر حقيقي على تكوين الأوعية اللغوية المدهشة القادرة على احتضان الأفكار المؤرِّقة

المبثاثة ويحرص بنجاح على تجنب التبذير في إطلاق مخزونات اللغة دون حساب. لذلك كثيرا ما تنجح المفردة الشعرية في العثور على مهدها المناسب لنشر ألحانها الطرية مع حركة اهتزاز المهد ضمن النص الشعري. وهذا هو ما اكسب المفردة الشعرية القدرة على إدامة البريق وانتاج المتعة. إن ذلك بالضبط هو ما دفع الكيان اللفظي الى أن يخرج من رداءه المألوف ليطوف في مياه شاسعة ذات رش ملون باعثةً كنوزاً فكرية جديدة. القصائد مفعمة بالمعاني العليا وتضج بالالحان الظاهرة والمخبوءة.

تضمنت "من الأعمال الشعرية" خطابات التفعيلة وخطابات النثر المعزز بالبلاغة فضلا عن قصائد الومضة وقصائد تحمل عنوانات باللغة الإنكليزية كأن الشاعر يرسم خيطا يتجه طرفه السائب الى الشعر العالمي، وهذا من حقه بعد ان اكتشف واكتشفنا نحن معه، انه ليس طارئا على الشعر العالمي. بل ان منجزه الشعري الذي ضمته "من الأعمال الشعرية حتى 2016" يعد إضافة لا غنى عنها للشعر العربي والعالمي. إنها إضافة استدعتها ظروف صار الشعر يميل فيها الى الإنسحاب للبحث عن دور خلاق جديد .

مسرح اللامعقول
مفهومه، نشأته، أنواعه، وعناصر بنائه الدرامي

د .زهير البياتي

فنان وأكاديمي، دكتوراه فلسفة الفن من كلية الفنون الجميلة/ جامعة بغداد، عضو نقابة الفنانين، عضو نقابة المعلمين. عمل ممثلا ومخرجا وادارة فنية في فرق "المسرح الشعبي" و"مسرح اليوم" و"اتحاد الفنانين" و"مسرح الفن الحديث".
من مؤسسي مسرح الستين كرسي، وتجمع الفرق المسرحية الأهلية.
تدريسي في معهد الفنون الجميلة، انتخب في الشعبة المسرحية لنقابة الفنانين بالانتخابات الأخيرة.

المقدمة:

إذا اعتبرنا أن جميع المجالات الإبداعية بشكل عام تعكسُ طبيعة المرحلة المُعاشة، فأن المسرح يفرض ذاتهُ وينفرد بخصوصيته في هذا الاتجاه لكونه يقدم تجارب منتَقاة يستخلصها من خضم الحياة التي يعيشها ويتفاعل معها مؤلف النص المسرحي والمخرج صانع العرض وكذلك الممثل، وإيصال هذه التجارب إلى المتلقي الذي هو بالضرورةَ نتائج مرحلة لعبِ فيها العامل الاقتصادي والاجتماعي دوراً كبيراً. ومسرح اللامعقول الذي ظهر من خلال كتابات "يوجين يونسكو" و"بكت" و"الفريد جاري" وكتّاب آخرون مثل "أداموف" و"آرابال" و"أدوارد ألبي" و"سارتر" و"كامو" وغيرهم الذين عكسوا ردود الأفعال من جرّاء الحرب العالمية الثانية على عموم أوربا والعالم، والخط الرئيس والبارز في أعمالهم هو عدمية ولا معقولية ولا جدوى الحياة، وكذلك مَسخ الإنسان في مجتمع أصبح كل ما فيه مُدمَر ومُحطم. وإزاء مثل هكذا موضوع فأن هذا البحث سيوضح مفهوم مسرح العبث أو اللامعقول وكذلك نشأته وأنواعه وبنائه الدرامي، معززاً ذلك بمشاهد مُنتقاة تُمثل فلسفة الكاتب في هذا النوع من الدراما والذي أُطلق عليه، دراما العبث اللامعقول.

مفهوم العبث واللامعقول:

لكي نفهم بالتحديد مفهوم العبث أو اللامعقول يجب أن نُفرّق بين نوعين: العبث الذي يدل على ما ينافي المنطق والصواب، أو ما يتصف بالحمق وعَدم التَعقل، والعبث الذي يرتقى إلى مستوى الفلسفة، وهو المؤسَسَ على فكرة لامعقولية الوجود والوضع الإنساني وان كلا اللفظتين الإنكليزي ABSURD والفرنسي ABSURDE يحمل المدلولين معاً. يقول مجاهد عبد المنعم مجاهد في ترجمته لكتاب (أسطورة سيزيف) "لقد ترجمنا كلمة ABSURDE بالعبث،

ثم كانت الصعوبة تنشأ عندما تَرد هذه الكلمة كصيغة، وما يجعلني أضع الصفةَ هكذا: عَبثَ، وذلك تفادياً للاشتقاق على اسم الفاعل الَذي يُعطي معنى اللهو، مما يبعده عن الالتصاق بالمصطلح الفلسفي"(1).

ومن هنا فالعبث هو حالات من انعدام الوزن والشعور بالتناقض الناتج من عدم التناسق بين الفرد ومجتمعه، أو بين الفرد والوجود والمحيط الذي حوله، أن هذا التناقض يؤدي بالإنسان إلى الاعتقاد بعدم وجود حقيقة موضوعية في هذا العالم الذي من الممكن أن ينهار في أية لحظة بقيمهِ وأسسه الحضارية.

ويشرح مجاهد مصطلح عبث ABSURD بقوله: "هو كل ما ليس له معنى. ومن ثم فأن وجود الإنسان عبث نظراً لأن غرضيتهُ لا تجد أي تبرير خارجي، وأن مشروعاته عبثية لأنها موجهة نحو هدف لا يمكن الحصول عليه إلا وهو الرغبة في أن يصبح الإنسان الله أو أن يكون الشيء لذاته أو الشيء في ذاته في آن واحد"(2).

ومن هذا نرى أن الإنسان في صراعه مع الطبيعة للوصول إلى حقيقتها يصل إلى فراغ فكرة الحقيقة، وفراغ معنى الوجود بالضرورة، ومن هنا تُعم الفوضى لخلو الوجود من المعنى، يقول (يونسكو) مبيناً الجانب الوحشي للعالم اللاانساني الذي لن يعرف معنى السلام والمحبة "أن الشعوب والجماهير تفقدُ إنسانيتها بصفة دورية أو على مراحل، فالحروب الطاحنة وأعمال التنكيل الجماعية ما هي إلا الجانب من الملامح الوحشية عند البشر، هذه الملامح التي نشاهدها ونسمع عنها كل يوم ويحفل بها تاريخ البشرية على مراحل مختلفة"(3).

إن أي صراع يقوم في الغالب على أساس الملكية الخاصة التي تحمل بين طياتها عنصر الأنانية الفردية، ونتيجةً لهذا يحدث الأقتتال بين طرفي الصراع، فلابُد أن يكون أحد هذه الأطراف عدوانياً والآخر مدافعاً عن مصَالحه المرتبطة بهذه الملكية التي عَبّر بعدة وسائل عن أحقيَقتهُ لها، ومن هنا نجد أن الإنسان منذُ نشأتهُ ضحية استغلال مُدعم بتبرير يصل إلى مستوى الحقيقة الموضوعية، ولكن يحدث في بعض الأحيان أن يصل هذا الإنسان إلى التفكير بخواء الحقيقة التي آمن بها، عند ذاك يحدث انقلاب داخل ذاته ليعيش في جو مظلم وتجربة موحشة تدفعهُ في الغالب إلى هوة الانتحار، وبهذا الخصوص يقول البيركامي:

"...فقتل الإنسان نفسه هو مجرد اعتراف بأن الحياة لا تستحق المشقة بطبيعة الحال. إن العيش ليس سهلاً أبداً. والإنسان يواصل أداء الحركات التي يأمره بأدائها الوجود لعدة أسباب، أولها العادة. والموت اختياراً يتضمن أنك قد اعترفت ولو غريزياً بسخف هذه العادة وعدم وجود أي سبب عميق يدعوَ للعيش، وجنونية الانفعالات اليومية ولا جدوى المعاناة"(4).

وبرغم إيمان جميع كتاب العبث بسخف هذه الحياة وعدم جدواها وخلوها من المعنى إلا أننا لم نقرأ أو نسمع عن أي من هؤلاء الكتّاب أنهُ قد أقدم على التخلصَ من هذه الحياة، بل أن جميع هؤلاء وضعوا مبادئ لمعايشة هذا العبث مثل مبدأ الحرية عند سارتر ومبدأ الثورة والتمرد عند البريكامي لقهر عبث الوجود، وبهذا الخصوص يقول (البير كامي) مبرزاً تناقض كتاب العبث من حيث سلوكهم في الوجود وتفكيرهم العبثي "إن في تعلق في الإنسان بالحياة شيئاً أقوى من جميع شرور العالم"(5).

إن سيزيف الذي وصفهُ (البير كامي) بأنهُ يكره الموت ويحب الحياة ولا يطيع أوامر الإلهة التي حكمت عليه بأن يدفع حجراً إلى قمة جبل وكلما بلغ القمة، انحدر إلى

السطح ويعود سيزيف ويرفع الحجر من جديد وينحدرُ مرةً أخرى وهكذا إلى مالا نهاية يعلم أن عمله هذا عبث لا جدوى فيه، وشقاء لا هدف له ولكنه في الوقت نفسه يعلم أن بطولته تكمن في القيام بهذا العمل والتخلي عنهُ معناه الموت بالضرورة، وهو بهذا العمل أيضاً حبهُ للحياة والتشبث بها حتى وأن كانت بهذه الصورة.

تُصيب الإنسان العَادي في بعض الأحيان حالات شعورية بالعبث بتأثير صدمة تهز كيانه فجأةً عندها يدرك أن الحياة لا تستحق أن تُعاش، وكثيراً ما يتلاشى هذا الشعور بالبعث واللاجدوى بعد فترة.

والإنسان العبثي يمرُ بمرحلة الشعور بالعبث ومرحلة الوعي بهِ، والشعور العبثي يُصيب أغلب البشرَ في مراحل العمر المختلفة، والتراث الإنساني الأدبي القديم والحديث بجميع أشكاله الشعرية والملحمية والقصصية والمسرحية يصور لنا كثيراً من حالات الانتحار أثر احتدام الشعور باللاجدوى، إذ أن:

"كل إنسان يفكر بالموت والعدم في لحظة من لحظات حياته، وقد تراوده الفكرة تلقائياً وقد تبرز أمام عينيه اضطراراً عندما يفقد أحد أعزائه أو ذويه أو عندما يرى عملية الموت تجري تحت سمعه وبصره في المعركة أو في المستشفى أو الشارع، أو حين يقرأ قصة أو يشاهد عرضاً مسرحياً... بل أن الإنسان لا يدرك معنى الحياة إذ لم يعرف معنى الموت، والنظرة إلى الموت هي نظرة إلى الحياة قبل كل شيء وإلى التشبث بوشائجها أو الاندفاع في مجراها، وللإنسان قابلية يتفرد بها ألا وهي التفكير في المستقبل أي معنى الموت في النهاية"(6).

إن العبث كفكر محدد بدأ مع نشأة الفكر الوجودي، أي مع بروز (كيركجارد) مؤسس الفلسفة الوجودية، والعبث كلمة كثر استعمالها في الأدب الفرنسي، وفي اللغة الفرنسية في القرن العشرين، ثم صارت مصطلحاً يُقصد بهِ مذهب أدبي مميز هو العبث، وأن المتتبعَ لهذه الكلمة في اللغة الفرنسية يجد أن الفرنسيَين قد استخدموها ابتداءً من الربع الثاني للقرن العشرين وخاصةً عندما بدأت تُظهر الفلسفات التي تهاجم الحضارة الصناعية الجديدة الوافدة على حياة الناس، ومن ثم بدأت تهاجم العلم ذاته(7).

وهكذا أخذ الفكر العبثي يغزو الأدب الفرنسي وخصوصاً الرواية، إذ كانت الظروف الاجتماعية الأوربية التي أخذت تشكك في كل القيم والتقاليد والمعتقدات، هذه الظروف هيأت العقلية الأوربية لتقبل هذاَ الفن بالإضافة إلى النصوص المسرحية التي تضمّن محتواها فكرة اللاجدوى والعدم والفراغ والغثيان، وكذلك ما تضمنتهُ الحركة الروائية والسريالية من مفاهيم مثل اللاوعي واللامنطق وكذلك الأحلام.

لقد تجسدت فكرة العبث ومفهومه بشكل بارز في مجال المسرح في مسرحية "أوبو ملكاً" لمؤلفها "الفريد جاري" والتي عرضت عام (1896) لأول مرة، إذ قدمت هذه المسرحية صوراً بشعة لما سيلاقيه القرنَ العشرين من دمار وفوضى بالإضافة إلى تصويرها خسة الإنسان الحديث وخواء المجتمع البرجوازي الذي فقد الإيمان بكل القيم، ويمكن اعتبار هذه المسرحية مثالاً على دراما اللامعقول، وهَي مسرحية هزلية Farce تظهر فيها دُمى مخيفة تنتقد بشدة خواء المجتمع البرجوازي وجشعه من خلال الصور المسرحية الغريبة والخارجة عن المألوف(8).

بعد هذه المسرحية، أي مسرحية (أوبوملكا) والتي شكلت نقلة نوعية وثورة على الأشكال الدرامية الواقعية والطبيعية التي كانت سائدة(9).

بعد هذهِ المسرحية كتب "أبو لنير" عام

1913 مسرحية " ثديا تيديزياس" وعرضت عام 1917، ويُعتبر "آبولنير" أحد المؤثرات المباشرة التي مَهدَت لخلق مسرح اللامعقول في فرنسا، وثمة هناك مؤشر واقع آخر هو تأثير "الدادائين" و"السيرياليين" ولهذا يسمي "أبولينير" مسرحية "ثديا تيريزياس" مسرحية سيريالية لما تحتويه من أحداث تسير على وفق اللامنطق واللامعقول، فالبطل أو بالأحرى "تيريزياس" تُغير جنسها إذ تدع ثدييها يعومان نحو السماء على شكل بالونين.

لقد كان "جاري" و"أوبولينير" رواد الدادائية، وهما في الوقت نفسه كان لهما تأثيراً مباشراً على مسرح العبث أو اللامعقول(10). بالإضافة إلى أثر الدادئية والسيريالية في نشأة مسرح اللامعقول يأتي مسرح "انتونين آرتو" من خلال رفضه للمسرح التقليدي ودعوته بالعودة إلى المسرح الشعائري والإيحاء الأسطوري وقد توضح ذلك جلياً في كتابه "المسرح وبديله" الذي يعادل كتابه "إعداد الممثل" بالنسبة للمسرح الحديث.

ومن العَوامل المهمة التي ساهمت في إبراز مسرح اللامعقول، تأثير "بيراندللو" بفضل معالجاته لمسألة "الحقيقة" وشكه في حقيقة السلوك الإنساني وعدم إيمانه بالحلول الاجتماعية من جرّاء خداع معاني اللغة التي أصبحت أداة غير جيدة لتفاهم البشر(11).

ومن أبرز مظاهر تأثير "بيراند يللو" في مسرح اللامعقول معالجته للزمن الوجودي، الزمن الذي لا يطابق زمن الساعة عند الإنسان فشخصيات "بيراندييللو" في صراع مع هذا الزمن الذي يسلبها نضارتها ويقربها من الموت ذلك الزمن الذي يشبه الحُلم، وقد تجسد هذا الموضوع، الزمن الوجودي في مسرحية "هنري الرابع":

هنري الرابع: "وأنتَ يا بيترداميانى أن ذكرى ما كنتَ وما فعلت تبدأ الآن مثل إدراك حقائق في الماضي تظل داخلك مثل حلم.. الأمر هكذا.. اليسَ كذلك؟ وهكذا الأمر بالنسبة لي أيضاً.. كل شيء لا يعدو أن يكون حلماً.. ما أكثرها من حقائق.. عندما ترجع بفكرك إلى الوراء.. كثيرة ومستحيلة التفسير.. أوه حقاً.. ليسَ هذا ما يُثير الدهشة بدرجة كبيرة يا بيترداميانى.. أن حياة اليوم هي حلم الغد"(12).

أنواع العبث(*):

بالرغم من اختلاف أساليب الكتّاب الذين ينتمون إلى مسرح اللامعقول إلا إنهم يلتقون في الهدف الذي يؤكد عبثية الحياة ولا جدواها، ونستطيع أن نصنفهُ إلى أربعة أصناف:

الأول: الفكر العبثي ذو الشكل التقليدي والمضمون العبثي مع إيمانه بعدم وجود إله للكون، وقد تمثل هذا الصنف في المسرحيات التي كتبها "سارتر" مثل: مسرحية "الأيدي القذرة" و"الذباب".

الثاني: الفكر العبثي ذو الشكل التقليدي مع إيمانه بالخالق، من أهم كتاب هذا الصنف "جبريَل مارسيل" وقد توضح ذلك في مسرحية "رجل الله".

الثالث: الفكر العبثي الذي يصوغ أعماله في شكل مضمون عبثي، من أهم كتابه "سومئيل بيكث" و"يونسكو" و"جان جينيه".

الرابع: الفكر العبثي الذي يصوغ أعماله بشكل تقليدي ومضمون عبثي ولا يؤمن بالفلسَفة الوجودية "البيركامي".

إن جميع هذه الأصناف تخضع في أثناء الكتابة للبناءَ الدرامي الخاص بها وقد كتب "مارتن أسلين: بهذا الخصوص في مقدمة كتابه "دراما اللامعقول" ما معناه أنهُ عندما ظهرت مسرحيات "يونسكو"

و"بكيت" و"جينيه" و"أداموف" على المسرح لأول مرة حيّرت معظم النقاد والمشاهدين وأثارت سخطهم بسبب من أن هذه المسرحيات هزأت بجميع المعايير التي ظلّت تُقاس بها المسرحية قروناً كثيرة، ومن هنا لابد أنها تظهر كأنها تتحدى الناس الذين يؤمونِ المسرح وهم يأملون أن يجدوا أمامهم عملاً يدركون أنهُ مسرحية مُحكمة الصنع، ويُتوقع في المسرحية المُحّكمة الصنع أن تقدم شخصيات دوافعها مقنعة وتصويرها صادق، أما هذه المسرحيات فهي تجيء في الغالب خالية من كائنات بشرية يمكن التعرف عليها تقوم على أفعال خالية من الدوافع تماماً، ويُنتظر أن يجيء الاقناع في المسرحية المُحكّمة الصنع عن طريق حوار ذكي ومنطقي البناء، ولكننا نجد في بعض هذه المسرحيات حوار يبدو وكأنهُ ينحدر إلى مَستوى الثرثرة التي لا معنى لها. ويتوقع أن يكون للمسرحية المُحكمة الصنع بداية ووسط ونهاية حُبكت ببراعة، أما هذه المسرحيات أي مسرحيات العبث أو اللامَعقول فأنها تبدأ في الغالب بشكل اعتباطي وتنتهي بشكل اعتباطي فإذا قَسنا هذه المسرحيات بجميعِ المقاييس التقليدية في التذوق الأدبي للمسرحية نجدها ليست رديئة بصورة مقيتة فحسب وإنما لا تستحق أيضاً اسم الدراما(13).

مسرحية العبث لا تعتمد على تتابع الأحداث كالتي تحدث في المسرحية التقليدية والمحكمة التركيب، وليست لها بداية أو نهاية محددة، وإنما هي نماذج من الوضعيات تُكرر نفسها إلى ما لا نهاية، وقد نبذت مسرحية العبث النموذج التقليدي لعلاقة السبب والنتيجة وتخلت عن الأجزاء المألوفة في تطوير الحدث الدرامي: العرض، التعقيدات التطوّر، الذروة، الحل، فبدلاً من أن تتطور أحداثها في هذا الخط التصاعدي ينزع الفعل إلى أن يكون دائرياً ليركز على بنية الوضعية نفسها بدلاً من أن يكون قصة ذات أجزاء متصلة(14).

أننا عندما نتحدث عن مسرح العبث أو اللامعقول فأننا لابُد من أن نركز على مسرح "سموئيل بكيت" وذلك لما يتمتع به من مكانة هامة في مسرح اللامعقول، وذلكَ أنه يسخر بعنف من عبثية الحياة المليئة بالزيف والكذب، ومن ذلك الغثيان والقرف من البشر الذين يخفون وراء أحاديثهم وجلساتهم حيوانية مرعبة، كل شيء يتميز بالاضمحلال والجدب والعذاب والموت على ان هذه الغاية وأن كانت تبدو من أكثر غايات مسرَح اللامعقول وضوحاً، إلا أنها ليست أهم أهدافه، بل أن مسرح اللامعقول يواجه لا معقولية أخرى أكثر عمقاً وأصالة واعنفُ أثراً، تلك هي لا معقولية الوضع الإنساني ذاته في عالم فقد إيمانهُ ويقينهُ وكلُ معانيه.

"بيكت" أعطى صورة صادقة للوضع الإنساني ولاسيما في مسرحية "في انتظار غودو" التي نشرها بالفرنسية عام 1952 وبالإنكليزية عام 1954(15). وفيها تبدو المواجهة العنيفة التي أحكم "بكيت" إعدادها ليصدم المشاهد بحقيقة الوضع الإنساني مُنذُ بداية المسرحية.

مشاهد من مسرحية "في انتظار غودو"

المنظر:

عبارة عن طريق خلوي، "فلاديمير"، "وستراجون" واقفان بجوار شجرة جرادء، وهما بانتظار شخص لا نعرف عنهُ شيء سوى أن أسمه "غودو" ولحين مجيئه أي مجيئ "غودو" فأنهما يتجاذبان أطراف الحديث، الحوار قصير ومفكك وغير مترابط كما يبدو ولأول وهلة، ويقترح (ستراجون) على (فلاديمير) أنهُ لما كانا عاجزين عن البقاء صامتين،

فلا بُد لهما من التحدث بهدوء وسكينة وخلال الحديث يعرض (فلاديمير) كلمات (القديس أوغسطين) على اللصين الذين صُلبْ أحدهما وأنقذ الآخر، ومن هنا فأن أمل الخلاص، خلاص الإنسان لا يمكن أن يعتمد على أكثر من نصف الفرص السانحة والمتوفرة لديه. ومن ثم فقد يكون إذا جاء "غودو" فأن ثمة أمل بالخلاص ولإنقاذ شأن اللص الذي أنقذ.. ويواصلان انتظاره "غودو".. غير أن الخواء والعدم يحيطان بكل شيء.. فلا يظهر "غودو" بل "بوزو" و"لاكي" الأول يبدو سيداً متسلطاً يتصرف إزاء "لاكي" على هيئة إنسان سادي، أما "لاكي" خادمه الذليل فلا يبدي أي تمرد أو ثورة.. لقد انتهى أمره وزهقت روحه لدرجة لم يستطع معها القيام بأي أجراء، وبعد حديث يتجاذب أطرافه الأربعة نتمكن من تميز جوانب متعددة متباينة في شخص "بوزو" و"لاكي" وما هو مهم هنا هو حديث "لاكي" الذي هو بحق نعي "بكيت" للمفكر والإنسان المثقف بعد أن وصل أعلى مراحل الاغتراب الروحي في العصر الراهن، فنحن عندما نسمع "لاكي" يتحدث للمرة الوحيدة، يأتي كلامه مشوشاً مضطرباً تمتزج فيه لغات عدة، وكما نرى في هذا المقطع من حوار "لاكي":

"ومن ناحية أخرى بالنظر إذا افترضنا كما هو واضح في كتابات نشرد. واتمان وجود إله بشري كوا كوا خارج حدود الزمن بلا امتداد الذي من أعالي الخمول المقدس... حباً كبيراً مع بعض الاستثناءات لأسباب مجهولة غير أن الزمن سوف يكتشفها وسيتأسى كما قاست ميرندا المقدسة مع هؤلاء الذين لأسباب مجهولة غير أن سوف يكتشفها دفع بهم إلى العذاب، دفع بهم إلى النار التي نارها ولهيبها إذا استمر هذا ومن ذا الذي يشك في ذلك سوف تحرق السماء، وبمعنى آخر تقذف بالجحيم إلى السماء التي ما زالت في غاية الزرقة وهادئة في غاية الهدوء، وبهدوء...".

إن نظرة واحدة تبين لنا سعة الإطلاع والمعرفة التي حصل عليها هذا الإنسان، ولكن هذا هو صنعهُ في العالم الراهن.

بعد هذا يغادر "بوزو" و"لاكي" المسرح في حين يواصل "فلاديمير" و"ستراجون" الانتظار حيث يظهر بعد فترة غلام يخبرهما أن "جودو" لن يأتي هذا المساء بل أنهُ سيأتي مساء اليوم التالي. وعندما يسألهما أية رسالة يريدان أن ينقلها إلى "جودو" يخبره "فلاديمير" قل له أنك رأيتنا، وبعد ذهابه يسأل "ستراجون" حسناً هل تذهب فيجيبهُ "فلاديمر" نعم لنذهب، ولكن تسدل الستارة ولا يغادرون المكان.

الفصل الثاني:

نفس الأحداث كما في الفصل الأول، سوى أن الوقت مساء اليوم التالي، ولكن هل هو حقاً مساء اليوم التالي؟ أم البارحة؟ أم الغد؟ الشجرة الجرداء نمت لها بضع ورقات.. الحوار يستمد بين "فلاديمير" و"ستراجون" كما في الفصل الأول، بل يبدو أكثر تفككاً، واللغة أكثر ضحالة بفعل الزمن، إنهاء لا تنقل أي شيء سوى البرهنة على أنها لم تعد صالحة للاستعمال وأنها قد فقدت كل معنى، كما إنها فقدت القدرة على التعبير.

ستراجون: لنتحدث بهدوء ما دمنا عاجزين عن الصمت.
فلاديمير: معك حق.
ستراجون: وبذلك لن نفكر.
فلاديمير: هذا عذرنا.
ستراجون: وبهذا فلن نسمع.
فلاديمير: لدينا أسبابنا.
ستراجون: كل الأصوات الميتة.

فلاديمير: لها صفات كالأجنحة.
ستراجون: كأوراق الشجر.
فلاديمير: كالرمال.
ستراجون: كأوراق الشجر.

(صمت)

فلاديمير: لتعلم كلها سوية.
ستراجون: كل مع نفسه.
فلاديمر: بل تهمس.
ستراجون: تحف.
فلاديمير: تتمتم.

(صمت)

فلاديمير: ماذا تقول؟
ستراجون: تتحدث عن حياتها.
فلاديمير: لا يكفيهم أنهم عاشوا.
ستراجون: عليهم أن يتحدثوا عن ذلك.
فلاديمير: لا يكفيهم أنهم ماتوا.

(صمت)

فلاديمير: تصدر صوتاً كالريش.
ستراجون: كأوراق الشجر.

(صمت طويل)

فلاديمير: كل شيئاً.
ستراجون: أني أحاول.

(صمت طويل)

فلاديمير (بجهد): كُل أي شيء.
ستراجون: ماذا نفعل الآن؟
فلاديمير: ننتظر جودو.
ستراجون: آه.

(صمت)

فلاديمر: هذا رهيب.
ستراجون: غن شيئاً.
فلاديمير: لا، لَا. (مفكراً) ربما استطعنا أن نبدأ من جديد.
ثمة تطور آخر يطرأ على المسرحية عند مجيء "بوزو" مصاباً بالعمى ولاكي مصاباً بالصم ثم تأتي النهاية نفسها كما في الفصل الأول، حيث يأتي الغلام ويخبر "فلاديمير" و"ستراجون" بأن "جودو" لا يستطيع الحضور الليلة وأنهُ سيحضر في اليوم التالي. وعندما يسأل الصبي "فلاديمير" عما إذا كانت لديه رسالة يرغب إيصالها إلى "جودو" يخبره بعد تردد أن (قل لهُ أنك رأيتنا) وبعد ذهابه يسأل فلاديمير: حسناً؟ هل تذهب؟ فيرد ستراجون: نعم لتذهب. ولكن الستارة تُسدَل للمرة الثانية.
مشهد من مسرحية الخرتيت لـ"يوجين أونسيكو":
وهذا المشهد الأخير من مسرحية "الخرتيت" لكاتب ينتمي لمسرح اللامعقول "يوجين أونيسكو"(16).
ديزي: (تخاطب برنجيه الذي يدير لها ظهره ويتفرس في وجهه) حياتنا معاً لم تعُد ممكنة إلى الإنسان.. رغم كل شيء.. ليس دميماً إلى هذا الحد، ومع هذا فلستُ أعد ممن يتصفون بشدة الجمال صديقتي يا ديزي (يستدير) ديزي، ديزي، أين أنتِ يا ديزي؟ مُحال أن تفعلي هذا (يندفع مسرعاً نحو الباب) ديزي أصعدي أصعدي ثانيةً عودي يا صغيرتي ديزي، أنت حتى لم تتناولي غذاؤك، ديزي لا تتركيني وحيداً تماماً، أين ماَ وعدتني به؟ ديزي، ديزي. (يكف عن مناداتها ويبدي حركة تدل على اليأس ثم يعود إلى غرفته) شيء واضح لم يُعد في أمكاننا أنم نتفاهم. علاقة مفككة لم يكن في إمكان هذهِ العلاقة أن تعيش لكنها

ما كان ينبغي أن تتركني دون أن تُفسر لي موقفها (ينظر في كل ناحيه) لم تترك لي كلمة واحدة، لا يصح ذلك، أنا وحيد تماماً الآن. (يذهب ليغلق الباب بالمفتاح بعناية لكن بغضب.

أنا لن ينالني أحد. (يغلق النوافذ بعناية) أنتم لن تنالوني (يخاطب جميع رؤوس الخراتيت) لن اتبعكم ولن أفهمكم وسأبقى كما أنا. أنا كائن بشري كائن بشري (يجلس على المقعد ذي المساند) لا يمكن احتمال هذا الموقف مطلقاً. الذنب ذنبي إذا كانت قد رحلت. لقد كنتُ لها بأكملي، فماذا دهاها؟ ها هو أذن إنسان آخر ينقل ضميري. أني أتخيل أسوأ الأمور. محتمل يا للطفل المسكين المهجور في عالم الوحوش هذا، أن أحداً لن يساعدني في العثور عليها، لا أحد لأنهُ لم يُعد هناك أحد (أصوات الخوار من جديد وأصوات ركض مضطربة وسحب من الغبار) لا أريد أن أسمعهم سأضع قطناً في أذني (يضع قطناً في أذنيه ويحدث نفسهُ في المرأة) ليس هناك من حل سوى أقناعهم، ولكن بماذا أقنعهم؟ والتحولات هذه هل يمكن ردها؟ سيتطلب هذا مجهود الجَبابرة، مجهوداً أقوى من مستوى قواي أولاً لكي أقنعهم، لابد من أن أتحدث إليهم، ولكي أتحدث إليهم عليَّ أن أتعلم لغتهم أو أن يتعلموا لغتي. لكن أية لغة هذه التي أنكلمها؟ ما هي لغتي؟ هَل هِيَ فرَنسية هذه؟ لابد أن هذه فرنسية حقاً؟ لكن ما هي الفرنسية؟ يستطيَع الإنسان أن يسمى هذه فرنسية إذا أراد ذلك، لن يعارض أحد فيَ هذا، فأنا الوحيد الذي أتكلمها، ماذا أقول؟ هل أنا أفهم نفسي، هل أنا أفهم نفسي؟ (يتجه إلى وسط الغرفة) ثم هل هم على صواب كما قالت لي ديزي؟ (يعود إلى المرأة) الإنسان ليس دميماً الإنسان ليس دميماً (ينظر إلى نفسه وهو يمرر يده على وجهه) ما اسخف هذا الوجه أي شيء أشبه أذن؟ أي شيء؟ (يندفع مسرعاً) نحو خزانته في الحائط ويُخرج منها صوراً فوتوغرافية، وينظر إليها) صور فوتوغرافية. من هم أولئك الناس؟ أهذا هو السيد بابيون، أم هي بالأحرى ديزي؟ وذلك أهو بوتار أم دودار أهوجين أو لعلهُ أنا؟ (يندفع من جديد نحو الخزانة حيث يُخرج منها لوحتين أو ثلاث) نعم أنا أعرف صورتي، أنه أنا أنهُ أنا (يذهب ليعلق اللوحات على الحائط الخلفي بجوار رؤوس الخراتيت) أنهُ أنا، أنهُ أنا (عندما يعلق اللوحات يلاحظ أن هذه اللوحات تمثل شيخاً عجوزاً وامرأة ضخَمة ورجلاً آخر وتتعارض دمامة هذه الصور مع رؤوس الخراتيت التي صارتَ جميلة، يبتعد برنجيه ليتأمل اللوحات) لستُ جميلاً لست جميلاً (يرفع اللوحات عن الحائط ويقذف بها على الأرض في غضب ويتجه نحو المرأة) إنهم يتصفون بالجمال. لقد كنتُ على خطأ، آه كم أتمنى لو أنني صرتُ مثلهم. ليسَ لي قرن مثلهم، وا أسفاه، كم هي قبيحة الجهة المسطحة. كان ينبغي أن يكون لي قرن أو قرنان حتى ترتفع ملامحي الهابطة. قد يحدث هذا، وحينئذ يزول عني خجلي، واستطيع أن أذهبَ فأعثر عليهم جميعاً، لكن هذا القرن لا يبزغ (ينظر إلى كفيه) يداي رطبتان.

أفستصبحان خشنتين؟ (يخلع سترته، ويفك أزرار قميصه ويتأمل صدره في المرأة) جلدي رخو آه من هذا الجسم شديد البياض ذي الشعر الكثيف، كم أتمنى لو أن لي مثلهم جلداً صلباً، وذلك اللون الأخضر الغامق الفخم، وذلك العري العفيف المجرد من الشعر (يصغي إلى الخوار) لأغانيهم سحر فيه قليل من الشراسة لكنه سحر مؤكد. لو أنني أستطيع أن أفعل مثلهم (يحاول أن يقلدهم) آه، آه، بررر، كلا ليس هذا ما يفعلونهُ، ما أوهن هذا الصوت، كم تنقصه القوة لم استطع الخوار، أنا أصرخ آه،

آه، بررر الصراخ ليس خواراً، كان ينبغي عليّ أن أتبعهم في اللحظة الحاسمة، ما دمتُ سيء النية، لكن الأوان قد فات الآن، واأسفاه، أبداً لن أصير خرتيتاً، أبداً ليسَ في وسعي بعد أن أتغير أودُ حقاً لو تغيرت، كم أود ذلك، لكني لا أستطيع لم يعد في وسعي أن أرى نفسي، أشعرُ بخجل شديد من نفسي (يدير ظهره للمرآة) كم أنا دميم، الويل لذلك الذي يريد أن يحتفظ بأصالته (يصبه فزع مفاجئ) يا للمصيبة سوف أحارب العالم أجمع دفاعاً عن نفسي، غدارتي، أين غدارتي؟ (يدير وجهة إلى الجدار- جدار المؤخرة- حيث استقرت رؤوس الخراتيب (صارخاً) سأحارب كل العالم أجمع دفاعاً عن نفسي، سأحارب العالم أجمع دفاعاً عن نفسي أنا الإنسان الأخير في العالم وسوف أظل كذلك حتى النهاية ولن أسلّم.

عناصر البناء الدرامي:

الحبكةPlot: حين لا يضَع أرسطو مفهوماً محدداً لهذا المصطلح فلانهُ مصطلح غامض وغير قابل للتحديد، فمن ترجمها بالقصة(17) ومن ترجمها بالخرافة(18) والبعض الآخر بالعُقدة.

و"الحبكة هي ترتيب فعل، وهي أسلوب تنظيم شكل الفعل في المسرحية من خلال البناء الذي يتم بموجبه ترتيب خط تسلسل الأحداث التي يؤدي تفاعل الصراع منها إلى النهاية، فالحبكة تُبنى على أساس السبب والنتيجة وهي خط تطور القصة"(19).

إن مسرح العبث يقيم مجرد اتصال بين المواقف الإنسانية والمشاعر، بين إحساسه بالوجود ورؤياه الفردية للعالم، ويُعتبر هذا الموضوع هو الرئيسي الذي يقوم عليه مسرح العبث، وهو الذي يحدد شكله والذي يمثل تقليداً لهذا المسرح، وهذا المسرح غير مهتم أساساً بنقل المعلومات أو تقديم مشاكل أو أقدار الشخصيات، لهذا فقد جاء بناءه الدرامي مختلفاً عن البناء الأرسطي القائم على المنطق والعقلانية والسببية، وعلى الرغم من الرفض للمنطق فأن مضامين هذا المسرح واضحة لكونها تعكس الإدراك الذهني للوضع الإنساني أكثر من كونها رواية تترابط فيها الأحداث ترابطاً متسقاً، فبدلاً من تنامي الأحداث وتسلسلها وترتيبها، نرى الفعل الدائري الذي يؤكد فلسفة الوضع الإنساني الذي يراه هذا المسرح. فمسرح العبث قائم على الشكل الكيفي وليس المنطقي، ولهذا السبب أصبح للشكل أهمية لأنهُ يمثل المضمون، فهم يرون أن المتلقي يجب أن يخضع لنفس المعاناة التي تمرُ بها الشخصيات، ففي مسرحية "في انتظار غودو" لـ "بكيت" فأننا لا نرى سوى الشجرة وكما مر في بداية الموضوع، وبهذا الشكل أراد أن يوظف الأسلوب والشكل الدرامي لخدمة المضمون، أما المضمون فهو كوني شمولي.

الحبكة في مسرح العبث امتازت ببنائها الدرامي الدائري والذي يعتمد التكثيف المتصاعد والمتزايد للموقف الأساسي، لتأكد، أي الحبكة معنى واحد هو لا معنى الحياة وهذا المعنى هو الذي يربط المسرحية عن طريق مركزية الموضوع لخلق منطقاً تنظيمياً خاصاً بها.

الشخصية Character :

تعدت الآراء التي قدمها دارسوا الدراما بصدد الشخصية منهم من يراها في المسرح هي كائن يُشار إليه في النص المسرحي بعلامات لغوية ويتقمصه ممثل على المسرحً من خلال علامات غير لغوية، أو هي تلك القوى في المسرحية التي تنفذ الفعل المسرحي من خلال كينونتها الفردية وكلماتها وأعمالها، أو هي ذلك المحرك الأساسي للفعل

المسرحي الذي يحدد الحبكة والحوار، أو هي فكرة معقدة(20).
والشخصية هي ذلك الانتقاء في قيم التنظيم الدنيامي للشخصية الإنسانية الذي يستخدمه الفنان المسرحي لتقديم أفكار مجرده أو صور ذهنية أو آراء معينة متوخياً وضعها في قالب جمالي مليء بالتشويق وميسور الفهم من قبل المتفرج، حيث يُستعار لهذا التنظيم جسَم الممثل وأدواته لتحويله من تنظيم انتقائي مُتصور إلى تنظيم فعلي عياني في العرض المسرحي(21).
أما الشخصية في مسرح العبث فيمكن تصنيفها بالشخصية غير المرئية وهي الشخصية التي يمكن أن تدور حولها الأحداث دون أن تظهر على خشبة المسرح، وعلى الرغم من عدم حضورها الا أن شخصيات من هذا القبيل تؤثر بالقدْر نفسه الذي تؤثر بهِ الشخصيات المرئية على المسرح، بفعل دورها المؤثر في الأحداث نتيجة ردود الفعل تجاهها، أي أنها تشكل فعلاً يتطلب رد فعل كما هي الحال بشخصية "كودو" في مسرحية "في انتظار كودو" لـ"بكيت" أما البعد النفسي لشخصية مسرح العبث فأنها تكشف عن التشكيلة الداخلية للعقل والأنظمة العاطفية والذهنية المؤثرة التي تؤدي إلى الفعل، وهذا البعد يُعتبر أهم بُعد بالنسبة للشخصية في مسرح اللامعقول، فهو مستوى للتشخيص لأن الطباع الشعورية والفكرية والسلوكية توضح حدود الشخصية أفضل من الصفات البدنية والاجتماعية.
والشخصية المسرحية العبثية عبارة عن لا إنسان يعيش في اللامكان واللازمان فهي باقية على هذا الحال تعيش اللاجدوى. وفي "انتظار كودو" المسرحية المارة الذكر يصور "بكت" مؤلف المسرحية، البشر على أنهم دمى بائسة ذات قوى وحشية مروعة وغير مفهومة، وهذا ما يجعل بأسهم وغضبهم ومحاولاتهم لاشغال أنفسهم أمراً شخيفاً وهزلياً للجمهور ولأنفسهم أيضاً. فالشخصية في مسرح اللامعقول لا تبدو بشكل واضح فهي تمثل نماذج أكثر مما تتصف بالخصوصيات العمومية، وليس هناك أبطال لأن الشخصيات كلها تتفق كما لو كانت قد بقيت سجينة منذ دهور في مستنقع تجمد على قذارته فأقنعت بهِ هذه الشخصيات في وقفة أزلية قد تطول، وهذَا ما يجعلها تتحول إلى رموز للمعاناة الإنسانية ويؤدي بها إلى أن تفقد هويتها القومية لتصبح مجرد رمز إنساني.
إن مسرح العبث أو اللامعقول يخلو من الشخصيات الموضوعية لأنهُ يعبر عن عالم الكاتب الداخلي، فضلاً عن أنهُ لا يعبر عن التصادم في الأمزجة كما أنهُ لا يدرس المشاعر الإنسانية التي تنبثق على هيئة صراع.

اللغة Language:

يعرّفها "ابن جني" "بأنها أصوات يُعَبّر بها كل قوم عن أغراضهم"(22). كما يعرفها "سوسير" بأنها: "إنتاج اجتماعي لمَلَكَة اللسان ومجموعة من التقاليد الضرورية التي يتبناها مجتمع ما ليساعد أفراده على ممارسة هذه المَلَكَة"(23).
وقد اعتبرهَا "أرسطو" العنصر الرابع للدراما والتي أسماها بالبيان أو الأسلوب وقد وصفها كأداة للتعبير عن الأفكار بواسطة اللغة، والأسلوب هو الطاقة التي تتواجد في اللغة الشعرية الموزونة، وفي النثر غير الموزون، حيث حَدَدَ وظائفها، فهي تكسب القول الوضوح المعّبر وهي تقوم بتصعيده فوق مستوى الكلام الاعتيادي.
ومن مهماتها الوضوح وإثارة الانتباه والملائمة، هذهِ هي أهدافها ومهماتها كما

يسهم الحوار في المسرحية في تأسيس سرعة انتظام إيقاع العرض المسرحي.
وينبع الإيقاع العام للمسرحية من أسلوب تكرار أنظمة الإيقاع المنفردة لأي مشهد والحاصلة من طبيعة وانسيابية الحوارات. ومن ثمة لها وظيفة مهمة إلا وهي تحقيق الاتصال ونقل المعلومات والمشاعر.
وفي مسرح العبث فأن اللغة تتحول إلى معرقل واضح لأنها تخفق في أداء وظيفتها كأداة اتصال، فنلاحظ قصوراً فيها مما يثير إلى حالة الاغتراب وعدم قدرة الشخصيات على التواصل الاجتماعي، وعدم القدرة على التفاهم، واللغة في مسرح العبث ليست إخبارية وإنما هي لغة استفامية، فلا أهمية فيها لقواعد لغة ما، ولا نستطيع الكلمات ان تنقل معنى مُعين لكونها فاقدة للتسلسل المنطق والتتابع في الكلمات فهي تقف دائماً على قدم المساواة مع الصمت، لأن مسرح العبث مسرح موقف وليس مسرح أحداث، فهو يستخدم لغة مبنية على نماذج من الصور الملموسة وليس كلاماً مبنياً على التحاور، فمسرحية. "المغنية الصلعاء" لـ"يونسكو" مثلاً تثير التساؤل بشأن اللغة، عما إذا كانت ما تزال وسيلة للتفاهم أم أنها فقدت وظائفها الاجتماعية.

الفكرة Thought :

وهي التي تتضمن أفكار الفعل وحججه ومعناه العام ودلالته الاجتماعية، وهي عنصر له حضوره في كافة المسرحيات حتى التي تظهر وكأنها خالية من المعنى لأن الكاتب لا يستطيع ان يكتب دون التعبير عن أفكار معينة.
وفي مسرح العبث فأن الفكرة تظهر بشكل واضح وخاصة إذا علمنا أن المادة الأساسية والشمولية لفلسفة العبث هي اللاجدوى، ففي مسرحية "بكت" "في انتظار كودو" الفكرة الرئيسة فيها هي الانتظار وفي مسرحية أخرى لـ"بيكت" عنوانها "مسرحية" الفكرة المهيمنة فيها هي لا جدوى الحياة، وهكذا تتمركز الأفكار على القمة في فلسفة العبث إذ تبدو وكأنها هي المهيمنة على بقية عناصر البناء الدرامي.
وعلى العموم نستطيع ان نستخلص أهم النتائج التي تضمها البحث وهي:
أولاً: الوجود عبث ولا طائل منه ولا معنى له.
ثانياً: عدم الإيمان بالسلوك الإنساني، فلا يوجد في الكون سلوك حقيقي، يمتلك الصفة الموضوعية والتي لا يختلف على صحتها أثنان من البشر.
ثالثاً: الشك في جمع القيم السائدة والموروثة في المجتمع والتي تحاول أن تفسر الكون بمفهوم اجتماعي أو فلسفي معين محدد بإطار ثابت لا يتغير لعدم إيمان الكتّاب بحتمية التطور الاجتماعي للإنسان.
رابعاً: اعتماد مسرح اللامعقول على تجسيد النظرة الوجودية التي ظهرت في كتابات "بكت" و"يونسكو" وهي الروح العبثية.
خامساً: الأماكن في مسرح البعث أو اللامعقول هي أماكن رمزية أو تجري في الفراغ، وهي مقطوعة الجذور عن العالم الحقيقي، كما يتمتع الزمن بالمرونة عن طريق تعميم الزمان والمكان.
سادساً: تتداخل الصبغ الدرامية وتختفي الفوارق بينهما، وقد تحل الكوميديا محل التراجيديا وبالعكس.
سابعاً: مسرح اللامعقول يحمل مضامين عميقة تنطلق من الوضع الإنساني بصورة مباشرة أو غير مباشرة.
ثامناً: مسرح العبث أو اللامعقول برز بشكل واضح نتيجة لظروف موضوعية حتمت بروزه وإظهاره على حيز الواقع.

هوامش البحث:

(1) كامي، البير، أسطورة سيزيف، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، القاهرة، دار الفكر، 1967، ص67.

(2) عبد المنعم، مجاهد عبد المنعم، سارتر مفكراً وإنساناً، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1979، ص292.

(3) يونسكو، يوجين، مقدمة لمجموعة مسرحيات ضمت مسرحية: المغنية الصلعاء، الدرس الكرسي، ترجمة وتقديم: حمادة إبراهيم، الكويت، وزارة الإعلام، 1972، ص20.

(4) كامي، البير، أسطورة سيزيف، مصدر سابق، ص14، 15.

(5) المصدر السابق نفسه، ص45.

(6) الدباغ، فخري، الموت اختياراً، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1968، ص1.

(7) يُنظر: الحنفي عبد المنعم، البيركامي، حياته، أدبه، مسرحياته، فلسفته، فنهُ، القاهرة، دار الفكر، 1963، ص124.

(8) يُنظر: أسلين مارتن، دراما اللامعقول، تر: صدقي عبد الله حطاب، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء، 1970، ص17.

(9) يُنظر: إبراهيم حمادة، مقدمة المغنية الصلعاء، المصدر السابق، ص6.

(10) يُنظر: أسلين مارتن، المصدر السابق، ص17.

(11) يُنظر: عطية نعيم في مسرح العبث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص426، 427.

(12) بيراند يللو، يوچن، هنري الرابع، ترجمة: فاروق عبد الوهاب، مجلة المسرح المصرية،/ مسرح الحكيم، القاهرة، 1965، ص108.

(×) لتداخل أنواع العبث في الدراما التي تُعنى بهذا الاتجاه نجد صعوبة في تحديد أنواعه، ولكننا ولخصوصية الموضوع سوف نصنف أنواعه تصنيفاً آلياً، الباحث.

(13) يُنظر: أسلين مارتن، المصدر السابق نفسه، ص7، 8.

(14) يُنظر: جاسم، حياة محمد، مجلة الأكاديمي، مجلة أكاديمية الفنون الجميلة، جامعة بغداد، العدد 4، لسنة 1981، ص22.

(15) يُنظر: فراید مان جون، بيكت والإنسان المعاصر، مجلة السينما والمسرح العراقية، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، العدد3، 1975، ص30.

(16) أونيسكو يوجين، مسرحية الخرتيت، ترجمة: عبد الرشيد الصادق، القاهرة، مطابع الدار القومية، بدون تأريخ، ص138 – 139 – 140.

(17) يُنظر: أرسطو، فن الشعر، تحقيق: شكري عياد، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص50.

(18) يُنظر: أرسطو، فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الثقافة، 1973، ص40.

(19) فرانك هوايتنج، المدخل إلى الفنون المسرحية، ترجمة: كامل يوسف وآخرون، 1975، ص177.

(20) س.و. دادتسن، الدراما والدرامية، ترجمة: جعفر الخليلي، بيروت، 1980، ص88.

(21) البياتي، ميسون عبد الرزاق، الأبعاد الثلاثة للشخصية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة، 1988، ص25.

(22) ابن جني، أبي الفتح عثمان، الخصائص، ج1، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي، 1952، ص33.

(23) فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يؤئيل يوسف عزيز، جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1988، ص27.

قصائد بابلية

ناهض الخياط

ولدَ في مدينة الناصرية / محافظة ذي قار، أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في مدارسها. نالَ شهادة البكالوريوس من كلية الآداب / بغداد سنة 1957م . اشتغل في التدريس في مدينة الناصرية. انتقل إلى مدينة الحلة سنة 1968م . أحيل إلى التقاعد سنة 1982م .
عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق . عضو نقابة الفنانين العراقيين.
صدرت له بعد التغيير 2003 عدة مجاميع شعرية ومسرحية للكبار والأطفال/ عن وزارة الثقافة ودار رند وتموز/ دمشق. مجموعة شعرية بعنوان (تقول الوردةُ: انظروا هذه أنا)

تحية

السلام عليك .. أيها الشاعر !
وأنت في سرحات خيالك
ويقظتك
وفي حزنك
وابتسامتك
والسلام على يدك
وأنت تمسك دفة مسيرتك
وحين ترد بها علينا السلام !

لكني أرى

تطلع الشمس متوشحة بجمالها
أو حين تغيب
وتطلق العصافير لها
زغاريد عرسها
الذي يرسم الشعرُ لهَ للخطى
ولا عذر فيه
للمطأطئين عنه رؤوسهم
لأسفل سافلين !

الشعراء

شعراء الحقيقة
لا يستعرضون وجوههم
في صالات الأضواء الباهرة
ولا يسوّقون أسماءهم
كما يسوّق التاجر بضاعته
وحسبهم

أن يلصقوا
سمعهم بنبض قلوبنا
ليكتبوه
فنرى دونهم
ذلك السلّم الشفيف
الذي يرتقي بهم للسماء !

سؤال

أيتها الجميلة
لو تسألين مرآتك
عن القوى الخفية في داخلي
لتعرفي
من أيقظها بعد سبات طويل
لتشاكسك
وإلاّ
فلن أكون مسؤولا
عن إطراقتك النادمة
لاتهامك النحلة بالتهام الزهور !

كيف استحضرك

أيتها الجميلة النائية عني
أنا ...
لست ذلك الصوفي الذي
يقطع المسافات الشاسعة
أو يستحضر ما يشاء بطرفة عين
إنما أنت ماثلة، أبدا، تحت جفنيّ
وفي سطور قصائدي
ورئتاي أنفاسك
فها هي الأنسام تحمل لي رفيف فستانك
وعطرك
ووقع خطاك ...
في الشوارع الصاخبة بنهارها
والهادئة بليلها
وحين ترتقين السلالم
أو تنزلين
وثمة جسر ما بك ينحدر
وها أنا أرى
ذلك الشاطئ الآن
كيف يصعد الموج فيه لقدميك
ويرتد بفضتك
انظري
كيف تطرف عيناي بهما
كما تطرفان الآن
في ورقتي.. وأنت ترقصين !

كلمات

جميلتي !
حين أتغزل بك في قصائدي
فلن أخشى من رقابة أحد عليّ
غير الورود ...
لكنها تسامحني
لأنك وحي القصيد
حتى وإن خاصمتِني
ففي إشاحة وجهك السريعة عني
كلمات ومضتي !

دعوة

في منامي ..
سمعتُ الشاعر (النابغة) يقول لي:
لقد زرتك مرارا في حلمك
وأنت تحت السماء
فلماذا امتنعت
حين دعوتك لدخول خيمتي؟!
- لأنني رأيتك خارجها ...
وفيها من اتخذ شكل هيأتك !

أيها النهر

أيها النهر الذي
أبعدني الزمن الخؤون عن ظلاله
ورحلت
بعد أن عمّدتُ فيه دفاتري
ها أنا أسمع حفيف موجك الآن
يتهادى في لمسات أصابعي
على ورقتي
فيا أيتها الضفاف
لو تردين على أجنحة النوارس فيك
لأنها تحيتي !

الشهداء الخونة

حسن كريم عاتي

قاص وقانوني، صدر له: "خطوط متعامدة" مجموعة قصص 1997 على نفقته الخاصة، "اليوسفيون" رواية 2004 عن دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد، "عزف منفرد" مجموعة قصص 2007 عن دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد، "أثر الزمن في خلق البنية الدلالية في الرواية" نقد 2012 عن الدار العربية ـ بيروت، و"الرمز في الخطاب الأدبي" نقد.
نال جائزة الابداع لعام 1998 عن مجموعته "خطوط متعامدة" نال قبلها جائزة الشباب لعام 1999 من الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق.

ما يكاد الليل يسكن، حتى تستيقظ أوجاع أخرسها ضجيج النهار. لا منافذ للبوح عن مكنون الفؤاد لأم أو لأخت. فالتحف الحزن غطاءً. أتقي به فضول خوف أمي عليّ من عدو موهوم يتربص الإيقاع بيّ في حال غفلتها عني. عدو لا تشخصه هي أو أنا، لكنها تختصره (بكلام الناس)، أو (ماذا يقولون عنا)، من دون أن اعرف مَن أولئك الذين يقولون؟ فيتعاظم الخوف في داخلي من (أولئك) المختفين خلف تربصها. ينهض خوفي أمامي، في ظلمة المساحة التي يشغلها جسدي تحت اللحاف، عيونا لا تتوقف عن الحركة يمينا وشمالا، ولا تبطئ من حركتها. وأفواه تتلمظ ، لا اعرف إن كانت تتذوق مرارة الألم الذي تزرعه في داخلي، أو تتوعدني بسوء إن كسرت قيد الصمت وبحت عما في داخلي. يورق فنن الخوف وينمو مع كل (آه) أطلقها وأنحرها بالكتمان، وارقب وريقاته السود يتسع حجمها وتغطي كوة ضوء أملها تتسع، فتلتف حول جسدي الساكن، وتمتد إلى عنقي تخنقني، حتى يكاد الهواء المهور بحزن آهاتي يعز عليّ واختنق، فارفس رفسة محتضر لأنجو من موت يجثم على صدري:

ـ اسم الله اسم الله .. بنتي ؟؟

تقولها أمي وهي تحتضن رأسي بفزع:

ـ ما بك !

ويخرسني الخوف من القول لها: أنه غادر إلى المجهول.

أخبرني صديقه برسالة شفوية قصيرة، كأنه ينقل بحرص شديد توقيتا سريا لثورة ستحدث غداً، وأوصاني أن لا انقل الخبر لأحد. فان عرفت عيون السلطة فلا تعفي أهله أو احدا من أصدقائه من الأذى. وأكد في محاولته طمأنتي: وأظنه الليلة الماضية عبر الحدود...

شعرت بالغربة تنسج خيوطها وتقيد حركة جسدي، نزل ستار فاصل معتم بيني وبين الفرح الذي كنت ارجوه بعدوله عن الهرب. قال:

ـ سأغادر الوطن في أية لحظة.

أدرك خطورة بقائه، وأخشى من سفره وغربته في مجهول لم يصل لنا عنه إلا حكايات تكذب تفاصيلها حكايات أخرى عنها. نقلها لنا أصدقاء لكلينا وتناقلناها بهمس شفاه ترتجف من الخوف عليهم ،

قلت بنية عدوله:
ـ ستهرب من الوطن!!
ابتسم كعادته عند انفعالي معه في موضوع يكون قد اتخذ فيه قرارا:
ـ وأحملك معي هوية عاشق في الغربة.. هوية لا تبدلها تسمية الأماكن التي أقيم فيها.. ستنتظريني.. مؤكد ستنتظرين؟
ـ فقط انا من بين إناث الأرض التي تعلق قلبها بنتيجة مصير وطن!!!!!
لاذ بصمت اقرب إلى الرفض منه إلى الحيرة، يدرك أني لا ارفض انتماءه، فقد سبقه أبي بتجربة قاسية وصلت نهاياتها في سقوط الرومانسية الثورية لدية في انقلاب شباط 1963. لذا فهو لا يثق بشركاء الجبهة، الذي لا يتوانى عن تسميتها بين أصدقائه المقربين وفي المنزل بـ (الجبحة). وليس لي أنا أن اسلم مصير قلبي لتجربة مماثلة، لكنها غواية الحب التي ترغمني على مخالفة العقل. فيأسرني بملامحه وحكاياته ونغمة صوته ومشيته، حتى أكاد أجن لما فيه من غواية الجمال. فليس فيه مبرر للكره وحتى الخصومة. فاصطنع الخصومة بنية الفراق، لكن وباء العشق في داخلي يصرخ بي للعودة إليه. فأدرك أن قلق انتماء القلب قد غلبته غواية العشق وانساق إلى هواه من دون مراعاة عقل يدرك خطورة قراره، فيمكث في منطقة الخوف والمؤجل، على أمل اكبر من قدرتنا أنا وهو، في تغيير تصنعه أصابع خفية، عظيمة القدرات، ويتبجح بأننا سنخلق الغد السعيد، انقاد إلى غواية الأماني حد أن اطعن بقدرة العقل، واكبح نذره الشديدة الوضوح.
قلت في سري: طالما عبر الحدود فهو في أمان.
نتحايل على أعين الرقباء التي تخشاهم أمي، عندما نقطع دربنا، في توقيت واحد، متباعدين عن بعضنا، من بيتينا القريبين حتى مرآب حافلات النقل إلى كليتينا المتقاربتين، لا يلتفت احدنا إلى الآخر، ولا نمنح الخوف في داخلنا أية فرصة للظهور أمام أعين شهود غير منظورين، نلتقي في واحة البعد قريبين حد التوحد، ونعود إلى بيتينا غرباء لم يلتقوا على امتداد الدهر الذي سبق. ننظم اللقاءات بدقة لا تقبل الخطأ. ويتجاهل احدنا الآخر بدقة لا تقبل الخطأ كذلك.
لم تفاجئني أمي عند عودتي في يوم بإخباري بمغادرته، حين قالت:
ـ حسن ابن أم حسن اختفى ومحد يعرف وين صار.. خطية أمه تلطم وتبجي بسكوت ومتكدر تحجي. أبوه يدور عليه بصمت.
بعدها لفها صمت مميت، تركتني لخوفي، ظننت إن الأمر لا يعنيها كثيراً، وما تظهره من تعاطف لا يعدو حس الواجب الإنساني والجيرة، ورؤية أم مكلومة. وبقيت إنا بحيرتي، اصطنع اللامبالاة، وينحر الحزن صبري، حد أن أجهشت بالبكاء، وأنا اسمع أنين أمي الذي هطل ناعماً، وكنت أتمناه، فلا منافذ لإجهاض العبرة إلا ببكاء ساخن، لن أجد مبرره إلا بموت قريب:
(ردْتَك يَيُمّه مْا ردت مْال.. ولا ردت خُوْصَه ولَا حْيْال.. ردْتَكَ تَعَدْل الْحمل لَوَ مْال).
تلصصت عليَها بهدوء، كمنَ يرغب الإمساك بها متلبسةً بالحزن، أتنقل بقدمي الحافيتين على البلاط البارد، لأصل إليها، بكاملِ قيافة الموت السوداء الذي ترتديه حزناً على أب قتلته السياسة، في غمرة التغني بالوطن المفجوع بأبنائه، وأخوال هربوا إلى صقيع البلدان التي كنا نعدها عدوةً لنا، في مفارقة يصعب تفسيرها لنا نحن البنات الصغيرات اللواتي يشار لهن بما يشبه الخيانة الوطنية.. لذلك كرهت السياسة.
واكتملت المصيبة بحب اكتشف فيه ما اكرهه. دنوت منها، لم تشعر بي وعيناها قد اغرورقتا بالدمع المسكوب بسخاء تجيده. ولم تشعر بي إلا وانا أجهش ببكاء حار

لا ينقطع، وبعبرة تخنقني مع كل شهيق، انتبهت لي ولم تتوقف عن النعي:
(طْوِل الوَكت عِيْني عْلَيك تِرْبي.. وبْفَـْد الْولد مْا شُوْف دَرْبِي.. يَرْوَحِي عْلَيَه طْوِل الْعُمْر نحْبي).
لا أجيد النعي، ولا يحتاج البكاء للإجادة. يكفي أن تطلق السراح للمشاعر لتتلقف مواطن البكاء التي تهدئ الروح قليلا، وتجعلك اقرب إلى من يلتمس العذر من المفجوع، والتي هي روحك المعلقة بين الحزن والحزن. تعانقنا بين مدرار الدمع الذي غسل وجهينا، ورسم كآبة الحزن عليهما، وننشج من زفير الحسرة. انتبهت إلي والى نفسها، نهرتني وهي ترسم غضبا مصطنعا على جبهتها:
– نصي صوتج ، ولج لا يسمعونا.. وانتي على شنو تبجين، يمه!!
كان التأنيب لها ولي معاً من دون أن تدرك ان السؤال نفسه يمكن لي أن أوجهه لها، بالمجاهيل نفسها التي نتغاضى عنها معاً، ولا تعلم إن مصيبتها التي أبكتها، قد زادني عليها فقده السريع، وان من تبكي بسببه مأتمي السري الذي لا يمكن أن أبوح به. وان كنت علمت انه تمكن من مغادرة الوطن الذي يبحث عنه للقصاص من حبه له!
بعد أن هدأت قليلاً ومسحت دموعها، قالت:
– حضري روحج من يجلجل الليل نروح لبيت أم حسن.. النسوان زارتها بسكوت.
اعرف ما لا يعرفه غيري، أو من القلة الذين يعرفون بمغادرته ويصطنعون الجهل به، فاعلان المعرفة بهربه قد يدفع بك إلى مجاهيل كثيرة، فمن السلامة الحفاظ على جوهرة السر الثمينة، خشية تلوثها بأصابع الوشاة. يخفف عني انه خصني، دون غيري، ربما حتى أمه، برسالته التي نقلها صديق له، وقد يكون ذلك الصديق، حين اخبرني، اختفى أو غادر الوطن بالطريقة نفسها التي غادر هو بها، أو ابتكر طريقة أخرى، وقد تكون له حبيبة مثلي تنتظر من يخبرها بعبوره الحدود إلى المنافي البعيدة بأمل لقاء قد يكون أو لا يكون. قد يكون الان يبحث عن طريقة لإخباري بوصوله إلى مكان يشعرني بالاطمئنان عليه. وقد يكون الآن في حيرة الغربة يبحث عن مستقر ليبيت فيه ليلته، وقد يكون هناك من استقبله، وتزداد الـ (قد) اتساعا بحجم ما تركه من أسئلة محيرة لي، لا يشاركني بحيرتها سوى أمه التي تنوح عليه، سواء كان بخير أم بشرّ. يكفي أنه فارقها إلى مجهول وان كان سعيدا فيه فهو الفراق الذي لا تنتظر بعده لقاء، وان كنت أنا أأمل به. ربما يخفف عليها حزنها انه في مكان يأمن به من الموت المتربص به في أزقة ودروب الوطن. وان افترضت أنها تعرف ما اعرفه باجتيازه الحدود ليلة أمس، ستلتقي عيوننا على وشاية النظر بان كلينا يعرف السر، ونبوح بأحاسيسنا لطمأنة الأخرى، من دون لغة تلفظ، نوصل رسائل اطمئنان لبعضنا. وان ما ننوح من أجله الفراق، وليس خطر الموت. ربما تكون نظراتنا لبعضنا لاتهام الأخرى بطعنها بالظهر بإخفاء ما يوجب البوح به، أو انه التنافس بين قلبينا على تقاسم حبه، فليس من حق أوضح من حقنا أنا وهي بتقاسم أسراره.
خشيت اللقاء بها من أن تبوح عيوني بأسراره لها ، أو تقسرني اللهفة لطمأنتها إلى البوح بسرّ تعرفه أو لا تعرفه. وتشخص أمامي عيون الوشاة الذين تعرفهم واعرفهم. وأولئك الذين يتربصون المجهول للإيقاع بي مثلما تخوفني أمي بهم. فلا يزيح قيح وحشة الفراق عن الفؤاد سوى البوح، والبوح مغلف بالموت لي ولها. وهو ما يجعلني اعشق اللقاء بأمه لتلمس أغلال الحزن الآسر لها ولي، وخوفي من ان نهتك

ستر سرّنا المشترك بأمان عبوره الحدود. فبقيت أترقب الذهاب بلهفة وخوف لا تدركه أمي.
حين تسللنا في مغرب اليوم نفسه إلى بيتها، كنا كمن يصبغ قامتينا بعباءات نرتديها بلون الليل للاختباء من عيون الضوء، خشية تعرف الوشاة علينا، ترهقنا فكرة معرفة الآخر المخيف بنوايانا مشاركة أمه حزنها. أو ندفع عن نفسينا تهمة مشاركته هو انتماءه وأفكاره. لم تكن هناك من نسوة الجيران إلا واحدة أو اثنتان، يتسللن بالدخول ويخرجن من المكان بمهابة الحزن الذي يخيم على المكان، ووجوه غريبة لنسوة يبدو مكوثهن يطول معها، قد يكن أخوات لها. لم تكن الأصوات لتجتاز باب الغرفة التي نجلس بها. اشعر فورة الحزن تلوك الأفئدة ببطء وتلذذ، وتفرّ العيون عن العيون بحياء أسئلة لا جواب لها. بل وبخشية السؤال نفسه من أن تكون الإجابة هتكا لتلك الأسرار المفضوحة في الأسئلة، التي لا تمتلك أهميتها إلا من الكتمان الذي نغلفها به:
(يُمّة الْوَلَد كَسّر جْنَاحِي.. مثْل الْمَاي وتْبَدَ من رَاحِي.. وْيَاهُو اَلِيعِين لَو ثِخْنَت جْرَاحِي).
أنينهاَ الذي تنزفه بحرقة، مبتعدة عن التنغيم لنعي نفسها، فشطر تحكيه لمجاورة لها، وشطر تطلقه بحسرة، وشطر تهز رأسها به منغمة إياه بصوت يشق فؤادها قبل أن يصل إلى حنجرتها. نجلس كلينا من دون تحية مسموعة، سوى لأقرب جالسة في المكان، لم تكن أمه لتلتفت إلينا، فما يشغلها من حزن يبقيها في عتمة الألم الذي تقيم به منذ خبرِ فقده:
(رِدْتَك لَحد ايْام كُبْرِي.. او رِدْتَك تنَزّلْني ابْ□بْري.. راح الْوَلد عَفَيه اعْلَ صَبْرَي).
لم يطول مكوثنا كثيرا، فما نزفته أمَي معها من أنين مكتوم وحسرة عليه وعلى أبي وأشقائها، رغم قصر الوقت، كان كافيا لان يملأنا حد التسمم بالألم الممظ، تيقنت أن الحياة، في أمه، توقف عن أن تدب في أوصالها، كأرض اخذ الملح يأكلها بسرعة، لا تقوى على غسله إلا بماء التلاقي الذي يشفينا أنا وهي.
أحسست بفرح وهدوء مفاجئين يجتاحاني برغم وباء الكآبة والألم الذي أصاب جميع المحيطين بي، كان مبعثه الإحساس بأنه ما زال سالما، طالما لم يأت احد بخبرٍ سيء، وما زلت احتفظ بخبر سلامته طازجا، ذلك الذي اخبرني به صديقه. فأقول لنفسي، ما زلنا في أول طريق الفراق الذي لا نعرف مداه، وقد تجود الأيام بتلاق قريب أو بعيد. لكن لابد منه، فلأحفظ طاقة الحزن لزمن قد يأتي بمصائب جديدة.
أدركت من هدوء أمي أنها تمكنت من استنزاف حسرتها على أحبة فارقتهم، وقاسمت أمه الإحساس بالفقد، وكأنها مباركة عضو جديد في منظومة الألم التي تتسع على العوائل والأمهات. فهبط هدوء بارد لف روحي وجعلها تدور في بحر الذكريات الجميلة التي جمعتنا. وكأني أعود للقاء الأول به. أو لحالات الوجد التي جمعتنا معا. هدوء يمنح الاستقرار والتأني والنظر إلى العالم من زاوية مختلفة لم اعتد عليها. فما زلنا أحياء، لا بد لنا من إيجاد طريق نلتقي به سوية. أدركت اهرب أنا مثله أيضا، ولكن لجهة مناقضة لوجهته. اهرب إلى داخلي واستسلم للألم الذي يواجهه هو بطريقة التحدي، وان كان ثمنه حياته. استسلم بطريقة لابد له أن يرفضها. كان قبل رحيله يعدّ اعتراضاتي عليه اقرب للدلال منه إلى الرأي. فيكون هروبه مواجهة ضارية، بينما هروبي إنا، هروب مكشوف أمام روحي العارية الان. لا تعفيني أنانيتي عليه من النظر إلى عالمه بتعجب. فليس من السهل عليه هذا الألم الشاسع الذي يوقعه

على نفسه وأحبته. انه شهيد الصمت وخائن العلن.
أدرك أني بمراجعة تأخرت كثيرا عليها، كان قربه يعميني عن غيره. رغبتي الحرص عليه. انه ثروتي السرية التي لا يراها سوى قلبي، وأخشى عليها من السرقة في السر والعلن، والبوح احد الأبواب المشرعة لسرقته، اكتمه فرحة مؤجلة لزمن قحط الأفراح. تداعب المخيلة والأحلام في كل لحظة استذكار للقاءاتنا، أو لحكاية ابتدعها خيالنا من مفردات لا تستحق أن تكون ذكرى، سوى كونها صدرت منا نحن الاثنين.
لم أتنبه إلا على صرخة واحدة موجعة مقطوعة، لم تكمل أنينها، في صمت رافق التكبير لصلاة الفجر في غبش لم أذق فيه النوم . أمسكت قلبي الذي طفر من مكانه صوب بيته. ضاعت الصرخة في فراغ لف الزقاق والمدينة. صرخة يتيمة كيتمي يوم قتلوا أبي لإرغامه على صمت مماثل للصمت الذي يغلف فواجع الصبح الذي انشق عنها قبل قليل. أرقب المارة من نافذة غرفتي المطلة على الزقاق. خرج رجال من الجيران على صوت الصرخة التي أفزعت الجميع، يهرولون باتجاه الصوت، وهم ينزلون أكمام أثوابهم على ماء الوضوء لصلاة الصبح، الذي أعلن حضوره بصرخة أم حسن المكتومة. يعودون مسربلين بالحزن. تترقرق دموع يكتمون إعلانها بأكمام الأثواب التي اختلط ماء الوضوء فيها بماء أعينهم.
أخذت الأبوابُ تفتح وتُخرج النسوة رؤوسهن من شق ضيق يتسع لحجم الرأس، في محاولة اتقاء نظر الوشاة الذين أعلنوا عن أنفسهم وحضروا بكامل قيافة الخوف. ومنعوا الحضور أو التجمهر أمام بيته. بدت صرخات واطئة قصيرة تزرع نفسها بين البيوت من نساء لا يعلن عن أنفسهن. ويكتم الليل حضورهن.
انظر أمي تسند قامتها التي تتهاوى على الباب الخارجي للبيت. تهمس لها جارتنا بما يمنع البوح به. لا اعرف كيف هبطت من غرفتي لألتقي بها، تكتم صرخة مماثلة لتلك التي انطلقت مع الأذان. فقدت قواي وتهاوى جسدي على الأرض بغفوة لا أرجو اليقظة منها، حين قالت:
– وجدوه مقتولا على الحدود .....

في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

رحيل الأم الشجاعة (جيزيلا مَيْ)

توفيت في شهر كانون الأول 2016 جيزيلا مَيْ عن 92 عاما. لقد تجاوزت شهرتها حدود بلدها جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وكانت عضوا مهما في فرقة التمثيل الدائمية لتجمع برلين ومسرح بريخت منذ أن صعدت المسرح وهي في أواسط الثلاثينيات من عمرها لتمثل بدلا من أرملة بريخت (هيلين فيغيل) دور الأم الشجاعة فأدت دورها ببراعة. كان الذي إكتشفها هو مؤلف موسيقى مسرحيات بريخت (آيسلر) الذي شجعها في مهنتها الغنائية وقدمها لبريخت. لكنها كسبت شهرة عالمية عندما خلفت مغنية بريخت الأسطورية (لوته لينا). أدت كمغنية أدوارا على مسارح ميلانو وباريس وموسكو وبريطانيا واستراليا والولايات المتحدة. كتبت جريدة نيويورك تايمز بعد إدائها في (كارنيج هول) سنة 1974 تقول بأنها "أفضل مؤدية في فنها في الزمن الحالي". إن صوتها الجذاب الأجش مع غنج فتيات الشوارع الذي تميزت به يستدعي الى الأذهان أسلوب مارلين ديترش وجولييت غريكو، ولكن بأسلوب بريختي حقيقي يبرز معنى الأغاني ويجبر الحضور على التأمل.

ولدت في العام 1924 في فيتزلر في منطقة هسه وتربت في جو عائلي ثقافي فقد كانت أمها ممثلة وشيوعية فيما كان والدها ديمقراطيا إجتماعيا وكاتبا أصبح بعد الحرب العالمية الثانية مدير ملهى. عُرفت في المدرسة كمهرجة وتمارس أدوارا تمثيلية في تصرفاتها على الدوام، لكن ذاكرتها ظلت دائما مجروحة بطفولة عاشتها في ظل الحكم النازي والحرب وترعرت وهي تحمل مشاعر معادية للنازية والفاشية وبقيت كذلك الى نهاية حياتها. كانت حتى سنة 1964 متزوجة من الصحفي جورج هونيغمان الذي قضى سنوات نفيه هربا من النازية في لندن، وبعد أن إنفصلا عاشت مع وولفغانغ هاريش الفيلسوف الماركسي المعارض الذي سجنته حكومة المانيا الديمقراطية، غير أنها بقيت بثبات الى جانب جمهورية ألمانيا الديمقراطية التي رأت فيها الدولة الألمانية المعادية للفاشية بحق.

إنضمت الى تجمع برلين ومسرح بريخت في العام 1962 حيث بقيت ثلاثين سنة

جيزيلا مي بدور الأم الشجاعة في العام 1978

وحيث مثلت العديد من أدوار مسرحيات بريخت الكلاسيكية بضمنها دور السيدة بيشوم في أوبرا القروش الثلاثة ومدام كابيت في (يوم الكومونة) والنادلة السيدة كوبيكا في (شوايك في الحرب العالمية الثانية). كانت واحدة من أحب فناني جمهورية المانيا الديمقراطية عند الجمهور وأصبحت في فنها واحدة من أكثر سفيرات ذلك البلد حيازة للإحترام، وحتى عند بلوغها الثمانين ظلت تظهر كل بضعة أشهر في تجمع برلين بمشهد نسائي فردي مؤدية أغاني بريخت وفايل. أدت الدور الرئيس في (هلو دولي) وهو واحد من أكبر العروض الهوليودية التي قدمت في برلين الشرقية في المسرح الجديد آنذاك الميتروبول، وجسدت السيدة شنايدر في مسرحية (كباريه) في مسرح ويستنس وظهرت في الأفلام والتلفزيون كممثلة في عدة أدوار ما بين 1951 و 1991.

سجلت عددا من ألبومات الأغاني وحصلت، من بين عدة جوائز، على جائزة الفيلم الألمانية الذهبية لإنجازها الفردي المتميز وحازت في العام 2002 على الصليب الفيدرالي للكفاءة الفنية. بعد إنسحابها من عالم التمثيل إلا من بعض الأدوار ألقت محاضرات وأدارت مشاغل فنية ودرّست صفوفا في العديد من المدن والبلدان وكانت لفترة طويلة عضوا في أكاديمية برلين للفنون.

جون غرين/ جريدة ذي مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

شعر:

جون بيرغر بوصفه شاعرا

جون بيرغر في بيته في العام 2005

إن جون بيرغر الناقد والروائي والفنان وصانع الأفلام الماركسي، الذي توفي عن 92 عاما في الثاني من كانون الثاني 2017، أقل شهرة كشاعر مع أن قصائده وكتاباته في الشعر نشرت في (ذي بويتري ريفيو) وغيرها من المجلات منذ شبابه، حتى ظهرت وهو في السبعين مجموعته (صفحات الريح) 1994 التي حظيت بإحتفاء نقدي واسع. كان أيضا غالبا ما "يدس" مقاطع من شعره في المقالات التي يكتبها عن الفن أو في كتبه مثل (الرجل السابع) و(الطير الأبيض) ولم يتم جمع أعماله الشعرية الكاملة حتى بادرت دار سموكستاك بطبعها في مجموعة واحدة سنة 2014،ثم ظهر (خيط الكلمات الأبيض الطويل) عن الدار نفسها إحتفاءا ببلوغه التسعين. يقول أندي كروفت: «يهتم بيرغر في أشعاره بالفن والسياسة، بالحب والحرب، بالتاريخ والذاكرة، بالهجرة والحياة الفلاحية الأوربية. قصائده مثل الصور داخل إطار، بسيطة وحسية معا، تخطيطات مرهفة عن الحياة الصعبة».

من نعي مؤسسة (ذي بويتري سوسايتي) لجون بيرغر.

نماذج من قصائد جون بيرغر

(وشاح)

في الصباح
مطويا بزهوره البرية
مغسولا ومكويا
يأخذ حيزا صغيرا في الدُرْج.
تلفه حول رأسها
وهي تهزه لتفتحه.
تنزعه في المساء
وتتركه يسقط
الى الأرض وهو لا يزال معقودا.
على لفاع قطني
وسط زهورٍ مطبوعةٍ
يومُ العمل
كتب حلمه.

(مسافة)

معاً كنجارين مع مطارق
علّمْنا المسافة
كيف تبني سقفا
من الأشجار
التي نتراكض بينها.

في الصمت خلفنا
لم نعد نسمع
سؤال منزل الصيف البعيد:
وغداً أين
سنذهب؟.
عند الغسق تخشى الكلاب المربوطة
أنْ لا يكون للغابة نهاية
وفي كل ليلة في الثلج
نهدئها
بضحكتنا المفاجئة.

(حلم)

في جيب أرضي
دفنت كل نبرات
لغتي الأم.
هنالك ترقد
مثل أوراق صنوبر
جمعها النمل.
ربما تدفعها الى الإشتعال
ذات يوم صرخةٌ متعثرةٌ
يطلقها جَوّال آخر.
عندها، وهو متدفئ ومرتاح
سيسمع طوال الليل
الحقيقةَ مثل تنويمة.

عن موقع ذي أور أوف بويتري (ساعة الشعر)

سرد:

قصة زواج قصير في حرب طويلة

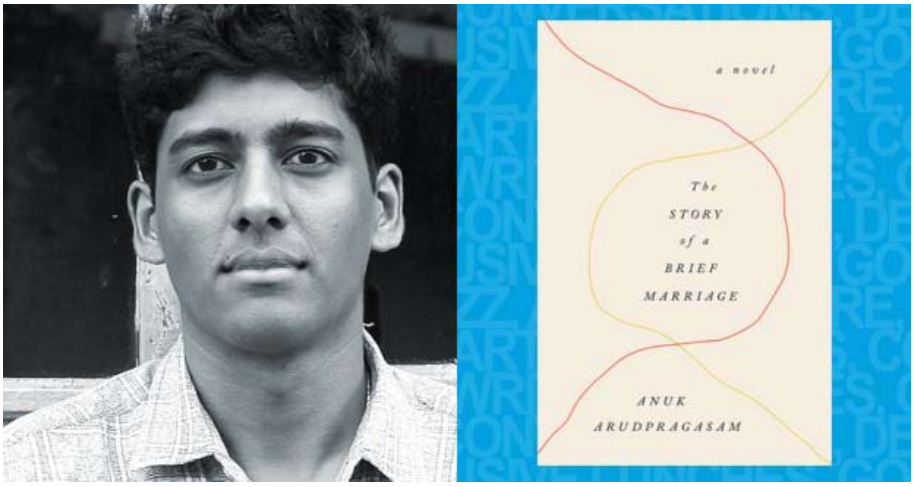

الروائي الشاب آنوك آرودبراغاسام وروايته (قصة زواج قصير)

لا يوجد شيء سوريالي أو يمت بصلة الى الخرافة في الأحداث القليلة التي تجري في رواية السريلانكي (آنوك آرودبراغازام) المعنونة (قصة زواج قصير) ومدتها الزمنية التي لا تتعدى يوما وليلة. تبدأ في أعقاب قصف حين يركض (دينيش) الى العيادة حاملا بين ذراعيه صبيا أصيب إصابة خطيرة، وفقد ساقه، وفيما كان دينيش يراقب، يبتر الجراح ذراعه أيضا بدقة ولكن بإهتمام جراحي قليل. لم يعطه تخديرا وليس هناك أدوات جراحية بل إستخدم سكين مطبخ بعد أن دقق فيها ليرى إن كانت نظيفة، يسرد آنوك تفاصيل العملية سردا دقيقا ويروي لنا كيف أن الطبيب طلب من دينيش أن يمسك برأس الصبي وكتفه الأيمن بينما كانت الممرضة تمسك الذراع اليسرى والساق وكيف بدأ ينشر من نقطة قرب مرفق الصبي الأيمن.

يجعلنا هذا المشهد في قلب الصراع الأهلي في شمال شرق سريلانكا والذي كان في مرحلته الأخيرة، بعد عقدين ونصف من بدايته أوائل الثمانينيات. توجه دينيش ووالدته آنذاك، إذعانا لطلب "الحركة" والمقصود هنا (نمور التاميل)، وإلتحقا بآلاف الناس الهاربين الى الشمال الشرقي، وكلما هربوا أبعد كلما كانوا أقرب الى قصف مدفعية الحكومة. حملوا ما أمكنهم حمله من حاجياتهم، حتى وجد دينيش نفسه في معسكر لاجئين مؤقت عند البحر. مع ذلك فلا بد للحياة أن تواصل مسيرتها. إن (سوماسوندورام)

العجوز الذي يعمل في العيادة والذي فقد إبنا وزوجة في القصف يعلم أنه لا بد أن يزوج إبنته غانغا الى عضو العائلة الوحيد الباقي على قيد الحياة دينيش، ويفكر دينيش في الموضوع مليا فيما هو يخلو لقضاء حاجته في مكانه السري قرب الساحل.

يوحي لنا آنوك بأنه في لحظات الصراع كل ما نراه عاديا ينتهي ويتوقف عن الوجود. ليس فقط فقدان دينيش لناسه المقربين، والدته، وأخيه، والنوم الذي يجفو عينيه والتضور جوعا، بل حقيقة أنه لا يملك إلا القليل من السيطرة وقدرة الإختيار على الأشياء التي رآها يوما مضمونة، وفقط عادات التغوط هي التي يحتفظ بالسيطرة عليها ويستمتع بها.

حتى بعد الزواج، فيما كان هو وغانغا يتناولان سويا وجبتهما البسيطة الأولى، فإننا نحس في قلب هذا الوضع الطبيعي بالتنافر والسخرية. الصمت وما ينطوي عليه من توتر شكل فرصة لغانغا للتأمل في زواجها المستعجل الذي وقع إثناءه حتى القس ضحية للقصف، أما دينيش فمن جانبه لا يملك سوى أن يلاحظ بارتياح كيف أن تنفسه بنفس الإيقاع مع تنفسها. توجد سخرية حزينة ملحة في تردد وقلق شاب بخصوص قربه من فتاة، حتى ولو كانت عروسه، عندما يعني الصراع أنه توجد دائما هموم تنغص عليه عيشه. مشهد الغراب المشرف على الموت يتضمن رمزية معبرة عن المعاناة حين يراقبه دينيش وهو لا يدري كيف ينقذ الطير من معاناته سوى أن يكون قربه في لحظاته الأخيرة. يغادر والد غانغا بعد الزواج بقليل ولا يعود، أو لا يعرف كيف يعود، وفي اللحظة التي تموت فيها أم دينيش من الإجهاد لا يستطيع هو أن يبكي. المعاناة نفسها تصبح فعلا وجوديا وفيما تتلاشى تدريجيا سيطرة المرء على ما كان يوما مألوفا تصبح الصغائر حيوية.

تخبره غانغا قائلة: " ماذا هناك لنفرح أو نحزن بخصوصه؟ الأشياء تحدث وعلينا القبول بها. السعادة والحزن يليقان بأناس يستطيعون التحكمفيما يحدث لهم". برغم هذا يفكر دينيش في المستقبل، في حياةمع غانغا بعد الحرب. من الممكن أن يموتا معا ولكنه يعلم أيضا أنه يستطيع العناية بها إذا فقدت أحد أطرافها أو صارت عاجزة بسبب الحرب، وهو واثق أنها ستعتني به إذا أصابه هو شيء. إن مجرد التفكيربإمكانية عناية أحدهما بالآخر، برغم العنف المدمر الذي يكتنفهما، يجعل الوجود على قيد الحياة شيئا نبيلا، وعملا شجاعا.

The Story Of a Brief Marriage, AnukArudpragasam

آنو كومار/ موقع (سكرول دوت إن)الهندي

سينما:

أكواريوس.... صورة امرأة وبلد

سونيا براغا في لقطة من فيلم أكواريوس

لم يثر المخرج البرازيلي (كليبر ميندونسا فيلهو) الإهتمام في مهرجان كان 2016 بنوعية فيلمه فقط بل أيضا بتصريحاته المساندة للرئيسة ديلما روسيف، التي دبر اليمين ضدها «إنقلابا دستوريا»، فبرهن على أنه سينمائي يقف بقوة الى جانب قيم الثقافة والديمقراطية. لم يعد فيلهو وهو في السابعة والأربعين سينمائيا مبتدئا، فقد عمل في البداية ناقدا وناشطا في نادي السينما، وأخرج أفلاما قصارا ووثائقية قبل أن ينطلق في مغامرة فيلم (ضوضاء دي رسيف) 2012 وهو تعبير عن حبه لبلدته (دي رسيف) في أقصى الشرق والتي يحب أن يراقب منها العالم بدلا من الذهاب الى المدن الكبرى مثل ريو أو حتى السفر الى الخارج. هاهو في فيلم (أكواريوس) يقص علينا قصة الأزمنة التي تتغير من خلال بورتريه إمرأة والتي تجسدها الممثلة الكبيرة سونيا براغا التي أدت بتميز دورها في (دونا فلور وزوجاها) و (قبلة المرأة العنكبوت). كانت سونيا قد إنسحبت منذ عودتها من الولايات المتحدة إذ لم تعد تجد دورا جميلا يجتذبها الى التمثيل منذ 1996.

بعد سلسلة من صور أعوام الستينيات

الفوتوغرافية ينتقل فيلم (أكواريوس) الى أعوام الثمانينيات حيث تحتفل عائلة ببلوغ العمة لوسيا سن السبعين والتي ترثها إبنة اخيها (كلارا)، ثم تمر 35 سنة لنجد كلارا لا تزال في شقتها المطلة على البحر. تتصاعد الأحداث حين يزورها متعهدون ليقنعونها ببيع الشقة التي غادر جميع جيرانها ولم يبق سواها معارضة لبناية (أكواريوس الجديدة) الشاهقة والفخمة، والمؤمَّنة. جاء العجوز صاحب المشروع هذه المرةبصحبة حفيدته ذات الضحكة المتملقة والتي عادت للتو من الولايات المتحدة حاملة شهادات الدبلوم، ولكن الناقدة الموسيقية السابقة التي تعيش هناك مع ذكرياتها لا تريد أن يحدثها أحد عن شيء، اللهم إلا عما تضمه مكتبتها الصوتية الكبيرة من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الروك. رفضت الأرملة والأم لثلاثة أولاد كل العروض ولكن البرجوازية المعتدة بنفسها والمثقفة لا تستسلم بسهولة. من خلال الأحداث وشخصية الستينية كلارا، التي لا تخلو من نزوات جنسية تزيد المواجهة تعقيدا، وأقاربها ومعارفها نتعرف على بانوراما تعقيدات البلد وإنحرافاته الإجتماعية، وإندفاعه المجنون نحو الحضارة، وفساده.

Aquarius, de KleberMendonçaFilho (Brésil – France 2016), avec Sonia Braga, HumbertoCarrão, Maeve Jinkings, Irandhir Santos, ZoraideColeto, Pedro Queiroz, Julia Bernat. 2h22

عن مجلة لو تون (الزمان) السويسرية

كتاب:

موسكو لينين ،شاهد عيان لروسيا بعد 1917

هذه شهادة كتبها النقابي الثوري الفرنسي (ألفريد روسميه) 1877 – 1964 عن الأيام الأولى للثورة الإشتراكية. شغل روسميهمنصب عضو في الهيئة التنفيذية للأممية الثالثة وفي المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي. قضى معظم السنوات من 1920 الى 1924 في روسيا السوفيتية حيث ساعد في تأسيس وتطوير نقابات العمال العالمية. كانت رحلة روسميه الى روسيا بدعوة من لينين مأثرةَ تحمُّلٍ بطولية إستمرت ستة أسابيع وسط الفوضى والفقر والإضطرابات التي سادت في أعقاب الثورة، فقد كانت الحرب الأهلية لا تزال تستعر بالإضافة الى نشاطات الدول الغربية المعادية للثورة. برغم هذا كله جمع لينين وليون تروتسكي وغريغوري زينوفيف مندوبين من جميع أنحاء أوربا كجزء من إستراتيجية لينين لتطوير جبهة ثورية متحدة تضم حتى ممثلين عن اليسار المتطرف. لعب روسميه دورا حاسما مع توم كيلش من بريطانيا ويان بروست يانسن من فنلندا وجون ريد من الولايات المتحدة حين رافقوا زينوفيف الى مؤتمر (كل الشعوب

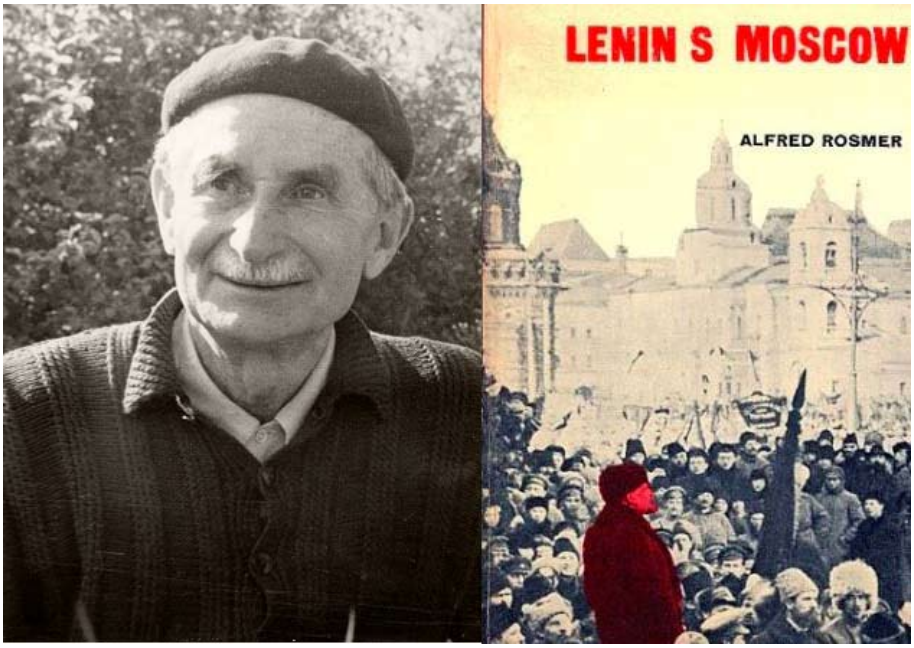

ألفريد روسميه والطبعة الإنكليزية لكتابه (موسكو لينين)

المستعبدة) في باكو، ثم رافق تروتسكي في رحلة القطار الشهيرة ليشهد التطورات على الجبهة نحو نهاية الحرب الأهلية.

إن المتعة في قراءة سرد روسميه لا تكمن فقط في حضوره ومشاركته خلال النقاشات الكبرى بل في فهمه للسياق وللأسباب التي تحرك الممثلين المختلفين في هذه الدراما العظيمة التي إحتل كلٌ فيها موقعه، ولم يسمح لإعجابه بلينين ولصداقته مع تروتسكي أن يؤثرا في تعليقه على الأحداث وتحليلها. لقد بقي ثوريا طوال حياته ولكن صداقته لتروتسكي تسببت بطرده من الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1924، ولم يتردد في كتابه هذا الذي نشر في العام 1953 من إظهار إحتقاره لستالين لما رآه خيانة للمُثل التي كرس لينين حياته لها. هذا النقد لا يجعل من كتابه نظرة تأملية رائعة في فترة تاريخية حاسمة فقط بل ومجموعة من الحقائق والدروس التي نحن اليوم بأمس الحاجة اليها.

الكتاب:

Lenin's Moscow by Alfred Rosmer

عرض آلان ليود/ جريدة ذي مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

من أقوال فيدل كاسترو

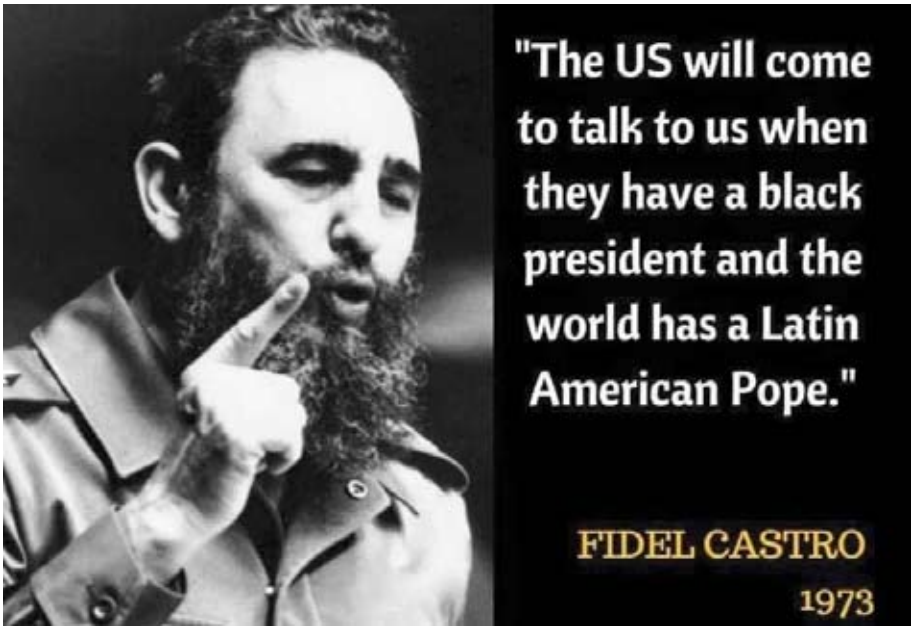

صورة كاسترو وبجانبها نبوءته التي يدور جدل في صحة أنه قالها فعلا في العام 1973 أو أنه قالها بنفس معنى المثل الكوبي (عندما ينبت للضفدع شعر) يضرب للاستحالة. قال: "ستأتي الولايات المتحدة للتحدث الينا عندما يكون لديها رئيس أسود، والعالم يكون لديه باب من أميركا اللاتينية"، ومهما يكن فإن ما قاله قد تحقق فعلا قبل وفاته - م.

• (أدينوني، لا يهم، فالتاريخ سيبرئني.) قالها في أكتوبر 1953 إثناء محاكمته بعد أن نفذ مع رفاقه الهجوم الفاشل على ثكنة مونكادا.

• (عندما تنتهي هذه الحرب ستبدأ حرب أخرى، أطول وأعظم، الحرب التي سأشنها على الولايات المتحدة. سيكون هذا قدري الحقيقي.)
تموز 1958، في رسالة الى سيليا سانشيز كتبها وهو في جبال سييرا مايسترا

• (الثورة ليست فراشا من الزهور. الثورة صراع بين الماضي والحاضر.)
1959

• (بدأْتُ الثورة مع 82 رجلا، وإذا توجب علي القيام بها مرة أخرى سأقوم بها مع 10 أو 15 رجلا صادقي الإيمان. لا يهم كم هو عددكم إذا كان لديكم إيمان بالقضية وخطة للعمل.)

1959

• (الوطن أو الموت!)

في آذار من العام 1960 عند تشييع جثامين ضحايا تفجير الباخرة الفرنسية في ميناء هافانا والتي كانت تحمل أسلحة للكوبيين.

• (في الثورة، كل شيء..... ضد الثورة، لا شيء.)

في حزيران 1961 في رسالته المسهبة الى المثقفين (وهي أصلا خطاب في مؤتمر للمثقفين، أنظر على الأنترنيت CASTRO'S SPEECH TO INTELLECTUALS ON 30 JUNE 61

–م) يقول لهم فيها بأن أعمالهم تتلقى كل الدعم من قبل الحكومة إذا كانت تصب في صالح الثورة ولهم كل الحقوق ولكن إذا كان العمل ضد الثورة فلا دعم ولا حقوق.

• لم أر أي تناقض بين الأفكار التي تحركني وبين أفكار هذا الرمز، هذا الشخص العظيم (يقصد السيد المسيح).

1985

• (الإشتراكية أو الموت! الماركسية – اللينينية أو الموت!)

في كانون الثاني 1989 عندما تصاعد القلق على مستقبل المعسكر الإشتراكي.

• (حتى عاهراتنا خريجات جامعة.)

سنة 2003 بخصوص محو الأمية من كوبا إثناء مقابلة مع السينمائي الأميركي أوليفر ستون.

• (أنا قانع ببلوغي سن الثمانين فلم أتصور أني سأبلغه يوما بحكم كوني مجاورا لأقوى بلد في العالم كان يريد قتلي كل يوم.)

21 تموز 2006 إثناء قمة البلدان اللاتينية الأميركية في الأرجنتين.

مجلة لو تون (الزمان) السويسرية

معارض:

في الذكرى الثمانين لإقامة الجناح الإسباني

معرض ثوار الفن في جناح مايورال بلندن

أقام جناح مايورال بلندن (من 18 كانون الثاني الى 10 شباط 2017) معرضا مستلهما من الجناح الإسباني الذي أقيم في العام 1937 بباريس ضمن المعرض العالمي للفن والتقنيات في الحياة الحديثة.

لقد شكل الجناح الأصل خطوة حاسمة خلال الحرب الأهلية الإسبانية (17 تموز 1936 - 1 نيسان 1939) حيث إستخدمته الجمهورية الإسبانية كمنبر تُطلع من خلاله باقي العالم على الفظائع التي كان التمرد الفاشي يقترفها في إسبانيا. عرض الجناح نسخا لرسوم وتماثيل أساتذة الفن الحديث آنذاك والذين وقفوا في صف الجمهورية مثل بيكاسو وميرو وكالدر وخوليو غونزاليس، وعرض كذلك مادة أرشيفية مهمة مثل البوسترات الدعائية النادرة التي عرضها الجناح الأصل. أشرف على المعرض (خوان بونيت ميرو) حفيد الفنان ميرو وهو مؤرخ ومختص في هذا النوع من الفنون، وخوان مانويل بونيت مدير معهد ثرفانتس في باريس والمدير السابق للمتحف الوطني للفن الحديث في مدريد. لقد سعت الحكومة الجمهورية آنذاك لجعل الجناح أداة تعبئة سياسية ولفضح همجية نظام فرانكو، وأصبحت المشاركة في المعرض ليس فرصة لعكس الصراع فنيا فقط بل وليعرض هؤلاء الفنانون منجزاتهم الفنية ورؤاهم، وكانت الحكومة تكلف العديد من الفنانين والمصممين البارزين المذكورة أسماء بعضهم أعلاه والذين كانوا في إسبانيا وقتها (قبل أن يجبروا على التوجه الى المنافي بعد إنتصار الفاشية وكان إنتصارها بدعم من هتلر وموسوليني وبتغاض ودعم خفي للفاشيين من قبل ما تسمى بالدول الديمقراطية-م).

عن جريدة داون الهندية.

بوستر تعبوي

(ساعدوا إسبانيا!) 1937 بوستر للفنان
خوان ميرو

الطائرات السود للرسام هوراثيو فيرير

بوستر لطلب الإغاثة الطبية والغذائية

من أفعال المتمردين، إذا أنتم تسامحتم في هذا سيأتي الدور على أطفالكم

إسبانيا المغدورة للرسام أندري فوجيرون

مطبوعات وصلتنا :

• لجنة العمل الفكري المركزية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، الخصخصة،التكييف الهيكلي و"الاصلاحات الاقتصادية" في العراق – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2016 .

• ابراهيم المشهداني – قراءات في الاقتصاد والسياسة الاقتصادية العراقية – دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.

• نعمة عبد اللطيف – الواقع والتطلعات المشروعة في قضايا التربية والتعليم – الطباع للطباعة والنشر، بغداد 2013.

• حمدي العاني، أضواء على العملية الزراعية في العراق – دار الرواد المزدهرة – بغداد 2015

• حنون مجيد – المدونة الرقمية (رواية). دار غراب للنشر والتوزيع – مصر، القاهرة 2016.

• جودت جالي، فك الحزن (قصص) – دار ضفاف للطباعة والنشروالتوزيع، بغداد – شارع المتنبي 2017.

• د. خيال الجواهري – أوراق من الذاكرة، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.

• د. فائق عبد حميد – ظاهرة التمرد في شعر مظفر النواب، المطبعة المركزية/جامعة ديالى ،2016

• طالب عبد الامير، ظلال على شواطئ المنفى– نصوص قصصية، أور – ميديا، ستوكهولم، الطبعة الاولى، 2016

• سارة كين – الاعمال المسرحية الكاملة، تقديم وترجمة د. صالح مهدي حميد الشكري – المركز الثقافي للطباعة والنشر، بابل، دمشق، القاهرة 2016.

• براين تيرنر – ها هنا،رصاص – تقديم وترجمة د. صالح مهدي حميد الشكري – المركزالثقافي للطباعة والنشر، بابل،دمشق،القاهرة 2016.

• راجيف جوزيف – نمر بنغالي في حديقة حيوانات بغداد – تقديم وترجمة د.صالح مهدي حميد الشكري –المركزالثقافي للطباعة والنشر ،بابل،دمشق،القاهرة 2016.

• الاتحاد العام لنقابات عمال العراق – قانون العمل رقم (37) لسنة 2015 .

• سالم محسن– ضحى المرجة ، شعر – اتحاد الادباء والكتاب في البصرة، 2016.

• د. محسن محمد حسن – المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع – 2016.

• د.محسن محمد حسن – الاغتراب ضوء في وسط النفق، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع – 2016.

• خديجة الحمامي – لامغالاة في ما أقول (شعر)، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.